



حقائق الإسلام وأباطيل خصومه

عباس محمد العفاد

« طبعة جديدة منقحة ومراجعة »



العنوان: جائق الإسلام وأباطيل خصومه.

المؤلف: عباس محمود العقاد .

إشراف عام: داليا محمد إبراهيم .

تاريخ النشر: الطبعة الرابعة - يونيو 2003 م .

رقم الإيداع: 2003/ 16080

الترقيم الدولي: ISBN 977-14-2410-6

الإدارة العامة للنشر: (2) في أحمد حرايم - المهني - الجيزة
ت: 346434 (02) - 347284 (01) فاكس: 3462576 (02) - ص ب: 11 إجابة
البريد الإلكتروني لإدارة العامة للنشر: publinfo@nahdetmisr.com

الطبع: 80 المتطوعة المصنعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287 (02) - 8330289 (02) - فاكس: 8330296 (02)
البريد الإلكتروني للطبع: press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسي: 18 ش كامل صدفى - القنطرة -
القاهرة - ص ب: 96 القنطرة - القاهرة.
ت: 5909827 (02) - 5908895 (02) - فاكس: 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجاني
08002126222
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: sales@nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (بشور)
ت: 5230569 (03)

مركز التوزيع بالقاهرة: 47 شارع عيد الميلاد - عمارق
ت: 2259675 (050)

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)
وتتمتع بأفضل الخدمات من موقع البيع
www.enahda.com

جميع الحقوق محفوظة © لشركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي سريع من الناشر.

تقديم

بقلم أنور السادات سكرتير عام المؤتمر الإسلامي

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد .

أما بعد ، فقد طال التصدي للأديان ، بقصد النيل منها ، وبغير قصد ، واستمرأ الكثيرون التخفف من أحكامها ، بدعوى بدعونها وبغير دعوى . وهان على بعض الهيئات أن تشكك فيما فرغ منه العلم ، وحار بين هؤلاء وهؤلاء كثيرون حتى أصبح أمر الدين شكاً وتظنيماً . وهذه ظاهرة من شأنها أن تشغل بال المؤتمر الإسلامي ، وتبلغ من عنايته واهتمامه مبلغاً بعيداً .

حدث هذا بدعوى حرية الفكر ، وحرية البحث . وما درى هؤلاء جميعاً أن حرية الفكر والنظر تتطلب غزارة معرفة ، واتساع أفق ، وعمق بحث ، وسلامة منطق ، ونصوع حجة ، وإيمان قلب ، وإنصاف رأى ، واستقامة مذهب ، وتنزهاً عن الهوى .

ولما كان محل اتفاق أن الأستاذ عباس محمود العقاد مرفور النصيب من هذا كله ، كان طبيعياً أن يتجه التفكير إليه ، وكان طبيعياً أن يرتاح هو إلى هذا الاتجاه ؛ لما أخذ نفسه به من مؤازرة الحق وتأيينه ، ومقاومة الباطل وتفنيده .

وها هو ذا كتابه «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» يخرج المؤتمر الإسلامي لكل معنى بالثقافة ، راغب في تمييز الحق من الباطل ، راج أن يقف على أصول الإسلام ومبادئه ؛ ليحقق به المؤتمر غرضاً من أغراضه ؛ هو نشر الثقافة الدينية خالصة مما يشوبها من شبهات ، ويعلق بها من ريب .

هذا ، والنية أن يترجم الكتاب إلى اللغة الإنجليزية ، واللغات الآسيوية ؛ ليعم
نفعه ، وليكون له الأثر المرجو .

والله سبحانه هو المستعان ، وهو ولينا ، وهو نعم المولى ونعم الوكيل .

تحريراً في ٢٥ مارس سنة ١٩٥٧ م .

أنور السادات

السكرتير العام للمؤتمر الإسلامي

فاتحة

بسم الله ، وعلى هدى من الإيمان بالله .

وبعد ، فهذا كتاب عن فضائل الإسلام وأباطيل خصومه ، يتقاضانا التمهيد له أن نقدم بين يديه بكلمة موجزة عن فضل الدين كله ، أو فضل العقيدة الدينية في أساسها ؛ إذ لا محل للكلام على فضل دين من الأديان ما لم يكن أمر الدين كله حقيقة مقررّة أو ضرورة واضحة ، ولا معنى كذلك لأن نقصر الخطاب على المؤمنين المصدقين ولا نشمل به المتشككين والمترددّين ، بل المنكرين والمعطلين ؛ لأن المتشكك والمعطل أولى بتوجيه هذا الخطاب من المؤمن المصدق ، ولا فضل لدين على دين ما لم يكن للدين كله فضل مطلوب تتفاوت فيه العقائد كما يتفاوت فيه من يعتقدون ومن لا يعتقدون .

هل للدين حقيقة قائمة ؟

هل للدين ضرورة لازمة ؟

سؤالان متشابهان ، بل سؤال واحد في صورتين مختلفتين ، ولسنا نزعم أن الصفحات القليلة التي نقدم بها هذا الكتاب كافية للإجابة عن هذا السؤال الذي يجاب عنه كل يوم بما يتسع بعد الجواب الواحد لألف جواب . ولكننا نزعم أن هذه الكلمة الموجزة كافية لموضعها المقدور من هذا الكتاب ؛ لأنها تكفي لهذا الموضع إذا تركت شكوك المترددين والمنكرين مضعوفة الأثر منقوضة الأساس ، وتكفي لموضعها إذا تركت من يشك ويتردد وقد أحس الوهن في بواعث شكه وأسباب تردده ، وبحث عن جانب الحقيقة فيها فلم يجده ، أو بحث عنها فوجدها في الجانب الآخر أقرب إلى العقل والبداهة ، وأجدر بالاتجاه في وجهتها إلى نهاية المطاف .

ونحن فى بداءة الطريق نحب أن نصحب القارئ على بصيرة من الباب الذى نستفتح به طريق البحوث فى هذا الكتاب ، بل نستفتح به الطريق فى كل بحث تشعبت حوله المسالك واضطربت عنده الآراء . وبإبنا هذا قبل كل طريق من تلك الطرق أن نسأل : إذا كان هذا الأمر غير حسن فما هو الحسن ؟ ثم هذا الذى نستحسنه كيف يكون ؟ وأى الأمرين إذن هو الأقرب إلى العقل أو الأيسر فى التصور ؟ فإن كان ما نستحسنه هو الأقرب إلى عقولنا والأيسر عندنا فى الإمكان فقد حق لنا أن نفضله وننكر ما عداه ، وإن عرفنا بعد المقابلة بينهما أن الذى ننكره أقرب إلى العقل والإمكان من الذى نستحسنه - فقد وجبت علينا مراجعة التفكير ووجب فى رأينا ، قبل رأى غيرنا ، أن نصطنع الأناة ونتردد فى الجزم والتفضيل .



ونبدأ الآن من البداءة فى هذه الفاتحة فنقول : إن أكبر الشبهات التى نعترض عقول المتشككين والمنكرين شبهتان هما : شبهة الشر فى العالم ، وشبهة الخرافة فى كثير من العقائد الدينية . وخلاصة شبهة الشر : أنهم لا يستطيعون التوفيق بين وجود الشر فى العالم وبين الإيمان بإله قدير كامل فى جميع الصفات . وخلاصة شبهة الخرافة فى كثير من العقائد الدينية : أنهم لا يستطيعون التوفيق بين العقائد وبين المحسوسات والمعقولات التى تتكشف عنها معارف البشر كلما تقدموا فى معارج الرقى والإدراك .

شبهة الشر

أما شبهة الشر فهي من أقدم الشبهات التي واجهت عقل الإنسان منذ عرف التفرقة بين الخير والشر ، وعرف أنهما صفتان لا يتصف بهما كائن واحد . وربما كان تفريق الإنسان الهمجي بين شعائر السحر وبين شعائر العبادة مقدمة الحلول الكثيرة التي عالج الإنسان البدائي أن يحل بها هذه المشكلة العصية ، ثم ترقى الإنسان في معارج الحضارة والإدراك فاهتدى إلى حل آخر أوفى من هذا الحل الساذج وأقرب إلى المعقول ، وذلك حيث آمن بالهين اثنين ، وسمى أحدهما بإله النور ، وسمى الآخر بإله الظلام ، وجعل النور عنواناً لجميع الخيرات ، والظلام عنواناً لجميع الشرور .

إلا أن هذا الحل - على ارتقائه ووفائه بقياس إلى الحلول البدائية في عقائد القبائل الهمجية - لن يُرضى عقول المؤمنين بالتروحيد ، ولن يحل لهم مشكلة الشر في الوجود ، ولا يزال في عرفهم حتى اليوم ضرباً من الكفر يشبه جمود الجاحدين وتعطيل المعطلين .

ولعلنا لم نطلع على حل لهذه المشكلة العصية أوفى من الحل الذي نطلق عليه اسم حل الوهم ، ومن الحل الذي نطلق عليه اسم حل التكافل بين أجزاء الوجود . وخلاصة حل الوهم : أن القائلين به يعتقدون أن الشر وهم لا نصيب له من الحقيقة ، وأنه عرض زائل يتبعه الخير الدائم . ومن الواضح أن هذا الحل لا يفضي الإشكال ، ولا يفتنى عن التماس الحلول الأخرى التي تريح ضمير المعتقد به فضلاً عن المعترضين عليه ؛ إذ لا نزاع في تفضيل اللذة الموهومة على الألم الموهوم ، ولا يزال الاعتراض على الألم لغیر ضرورة قائماً في العقول ما دام في الإمكان أن تحل لذاتنا الموهومة محل ألما الموهومة .

وخلاصة الحل الذي نطلق عليه اسم حل التكافل بين أجزاء الوجود : أن

المعتقدين به يرون أن الشر لا يناقض الخير في جوهره ، ولكنه جزء متمم له ، أو شرط لازم لتحقيقه : فلا معنى للشجاعة بغير الخطر ، ولا معنى للكرم بغير الحاجة ، ولا معنى للصبر بغير الشدة ، ولا معنى لفضيلة من الفضائل بغير نقيضة تقابلها وترجع عليها . وقد يطرد هذا القول في لذاتنا المحسوسة : يطرد في فضائلنا النفسية ، ومطالبنا العقلية ؛ إذ نحن لا نعرف لذة الشبع بغير ألم الجوع ، ولا نستمتع بالرؤى ما لم نشعر قبله بلهفة الظمأ ، ولا يطيب لنا منظر جميل ما لم يكن من طبيعتنا أن يسوءنا المنظر القبيح .

وهذا الحل - حل التكافل بين أجزاء الوجود - أوفى وأقرب إلى الإقناع من جميع الحلول التي عرّجت بها هذه المشكلة على أيدي الحكماء أو على أيدي فقهاء الأديان ، ولكنها لا تغنى الحائر المتردد عن سؤال لا بد له من جواب ، وهو : لماذا كان هذا التكافل لزاماً في طبيعة الوجود ؟ ولماذا يتوقف الشعور باللذة على الشعور بالألم ، أو يتوقف تقدير قيمة الفضيلة على وجود النقيضة وضرورة الاشمئزاز منها ؟ أليس الله بقادر على كل شيء ؟ أليس من الأشياء التي يقدر عليها : أن يتساوى لديه خلق اللذة وخلق الألم ؟ أليس خلق اللذة أولى برحمة الإله الرحيم من خلق الألم ، كيف كان موقعه من التكافل بينه وبين اللذات ؟

وعندنا أن المشكلة كلها بعد جميع ما عرضنا من حلولها إنما هي مشكلة الشعور الإنساني ، وليست في صميمها بالمشكلة الكونية .

وهنا نعود إلى الباب الذي نستفتح به مسالك هذه المشكلات ، ونسأل أنفسنا : إذا كان الإله الذي توجد النقائص والآلام في خلقه إلهاً لا يبلغ مرتبة الكمال المطلق ، فكيف يكون الإله الذي يبلغ هذه المرتبة في تصورنا وما ترتضيه عقولنا ؟ أيمكن أن يكون إلهاً قديراً ثم لا يخلق عالماً من العوالم على حالة من الحالات ؟ أيمكن أن يكون إلهاً قديراً يخلق عالماً يماثله في جميع صفات الكمال .

هذا وذاك فرضان مستحيلان أو بعيدان عن المعقول ، كل منهما أصعب فهمًا وأعسر تصورًا من عالماً الذي تنكر فيه النقائص والآلام .

فأما الإله القدير الذي لا يخلق شيئاً فهو نقيضة من نقائص اللفظ لا تستقيم في

التعبير ، بَلَّة استقامتَها في التفكير ؛ فلا معنى للقدرة ما لم يكن معناها الاقتدار على عمل من الأعمال .

وأما الكمال المطلق الذي يخلق كمالاً مطلقاً مثله فهو نقيضة أخرى من نقائص اللفظ لا تستقيم كذلك في التعبير ، بَلَّة استقامتَها في التفكير ؛ فإن الكمال المطلق صفة منفردة لا تقبل الحدود ولا أول لها ولا آخر ، وليس فيها محل لما هو كامل وما هو أكمل منه . ومن البديهي أن يكون الخالق أكمل من المخلوق ، وألا يكون كلاهما متساويين في جميع الصفات ، وألا يخلو المخلوق من نقص يتنزه عنه الخالق . فاتفقهما في الكمال المطلق مستحيل يمتنع على التصور ، ولا يحل تصوره مشكلة من المشكلات . وأي نقص في العالم المخلوق فهو حقيق أن يتسع لهذا الشر الذي نشكوه ، وأن يقترن بالألم الذي يفرضه الحرمان على المحرومين ، وبخاصة إذا نظرنا إلى الأجزاء المتفرقة التي لا بد أن يكون كل جزء منها قاصراً عن جميع الأجزاء ، وأن يكون كل شيء منها مخالفاً لما عدها من الأشياء .

فوجود الشر في العالم لا يناقض صفة الكمال الإلهي ولا صفة القدرة الإلهية . بل هو - ولا ريب - أقرب إلى التصور من تلك الفروض التي يتخيلها المنكرون والمترددون ولا يذهبون معها خطوة في طريق الفهم وراء الخيال المبهم العقيم .

وقد يختلف مدلول القدرة الإلهية ومدلول النعمة الإلهية بعض الاختلاف في هذا الاعتبار : فمدلول القدرة الإلهية يستلزم - كما تقدم - خلق هذا العالم الموجود ، ولكن مدلول النعمة الإلهية يسمح لبعض المتشائمين أن يحسبوا أن ترك المخلوقات في ساحة العدم أرحم بها من إخراجها إلى الوجود ، ما دام الألم فيه قضاء محتوم على جميع المخلوقات . ومهما يكن من شيوع التشاؤم بين طائفة من المفكرين فليس تفسير النعمة الإلهية بترك المخلوقات في ساحة العدم تفسيراً أقرب إلى المعقول من تفسير هذه النعم الإلهية بإنعام الله على مخلوقاته بنصيب من الوجود يبلغون به مبلغهم من الكمال المستطاع لكل مخلوق .

وليس الشر إذن مشكلة كونية ولا مشكلة عقلية إذا أردنا بالمشكلة أنها شيء متناقض عَصِيٌّ على الفهم والإدراك ، ولكنه في حقيقته مشكلة الهوى الإنساني الذي يرفض الألم ويتمنى أن يكون شعوره بالسرور غالباً على طبائع الأمور .

وإذا كانت في هذا الوجود حكمته التي تطابق كل حالة من حالاته فلا بد من
حكمة فيه تطابق طبيعة ذلك الشعور ، ولا نعلم من حكمة تطابق طبيعة ذلك
الشعور ، غير الدين .

إن الشعور الإنساني في هذه المشكلة الجلى يتطلب الدين . فهل ثمة مانع يمنعه
من قبَل العقل أو من قبَل المعرفة التي يكسبها من تقدّمه في العلم والحضارة ؟ هنا
يستطرد بنا الكلام على مشكلة الشر إلى الكلام على مشكلة الدين أو مشكلة
التدين في جملة ، وخلاصتها - كما قدمنا - عند المترددين والمعتلين أن الأديان
قد اختلطت قديماً بكثير من الخرافات ، وأن العقل يتعسر عليه أحياناً أن يوفق بين
عقائد الدين وحقائق المعرفة العلمية .

شبهة الخرافة

وهنا نعود مرة أخرى إلى سؤالنا الذي افتتحنا به هذه الكلمة ، فنسأل المترددين
والمعتلين : إذا كان التدين على هذه الحالة التي وجد بها غير حسن في تقديركم
فكيف يكون الحسن ؟ وكيف تتصورونه ممكناً على نحو أقرب إلى العقل وأيسر في
الإمكان ؟

وكأننا بهم يقترحون ديناً لا يركن إليه إلا النخبة المختارة من كبار العقول الذين
لا تنسرب الخرافة إلى مداركهم في عصر من العصور ، كأننا ما كان موقع ذلك
العقل من درجات التقدم والحضارة .

هذا ، أو يقترحون ديناً يتساوى فيه كبار العقول وصغارهم تساوياً آلياً لا عمل
فيه لاجتهاد الروح وتربية الضمير واستفادة المستفيد من كفاح الحوادث وتجارب
الحياة .

هذا ، أو يقترحون ديناً يتبدل في كل فترة تبديلاً آلياً كلما تبدلت معارف الأمم في
مختلف الأزمنة أو مختلف البلدان .

ومهما نسترسل في تصور المقترحات التي تخاطر للمترددين والمعتلين فلا نخال
أننا منتهون إلى مُقترحٍ يروونه وبراء غيرهم أقرب إلى النصور وأيسر من الدين في

تاريخه المعهود ؛ فإن أطوار التدين كما نشأت من أقدم عصورها إلى اليوم لا تزال أقرب إلى المعقول من كل مقترح ذكرناه على ألسنتهم بين هذه العروص .

والسحبة المختارة من كبار العقول لا تحاج إلى تعاليم الدين كما تحتاج إليه طوائف البشر من الجهلاء أو صغار العقول . وقد يتره أساء للنحلة انحرار عن الخرافة في أونة محدودة ، ولكنهم لن يترهوا عنها في كل أونة مع التسليم بتطور العلم وتطور الإنزاع الذي يستفيد من جملة العلوم .

أما أن يتساوى الدس تساويًا ألبًا في كشف حقائق الكون ، من أول عهد انبش بالتدين إلى آخر عهدهم المقلور بهم من الحياة الأرضية - فإنما هو نكسة بهم إلى حالة لا فرق بينها وبين أحوال الحماد أو أحوال الآلات التي لا عمل فيها لاحتها الروح ولا لتربية الصمير .

وأما أن تبدل العقائد في كل لحظة تتغير فيها مذكرات العوم ومذكرات المعرفة على العموم فتدك حالة نحاول أن نتصررها في أطوار الجماعات فلا نرى أنها قابلة للتصور في جماعة واحدة تعيش من أسلاف إلى أحلاف مئات السنين ، أو ألوف السنين ، اللهم إلا إذا تصورنا عقول هذه الجماعة وصمائرهم في صورة الصفحات التي تلبث صفحة بعد صفحة حين تعرض على مرثها وهم يربون نفلها أو لا يربون .

كل هذه الصور يقترحها من يشاء ، ولا يكلف نفسه أن يتماهى مع صورة منها في التحيل ، أو يعالج تطبيقها في الواقع إذا استطاع ، وما هو بمستطيع

ونكد نقول عن نشأة التدين بين جماعات البشر كما نشأ في عالم الواقع ؛ إنه ليس في الإمكان أبدع مما كان ، نولا أننا نرى أن الرماد المتطاوّل قد يمكن فيه اليوم ما لم يكن ممكنًا بالأمس ، وقد يمكن فيه غدًا ما ليس ممكن في يومنا هذا ، ولا في الأيام التي سبقت ، وقد يمكن فيه صد قوم في العصر الواحد ما يتعد على آخرين في العصر نفسه . إلا أننا ندين بقوى الفائلين - إنه ليس في الإمكان أبدع مما كان - إذا نظرنا إلى تطور الدين نظرة تحيط بأطواره كلها في جميع الأزمنة وبين جميع الأقوام .

وينبغي أن نذكر أن التعبير الرمزي والعقيدة الإيمانية لارمتان من لوازم الشعور الديني لاتفصلان عنه ، ولا يتأني لنا أن نفهم ظواهره وحوافيه ما لم يكن على استعداد لتفسير هذا التعبير وقبول ذلك الإيمان

ولسنا نقبل التعبير الرمزي والعقيدة الإيمانية ترخصاً مع الدين وحده برخصة لا نتمسحها مع سائر المدركات الخمسة أو النفسية ؛ لأننا نعلم أن التعبير الرمزي والعقيدة الإيمانية لارمتان من لوازم تكوين الإنسان في مدركات حسه ومدركات نفسه ، على اختلاف الأساليب ومعارض الإدراك .

فأى إدراك للإنسان أصدق عنده من إدراك العيان ؟ وما هي حقيقة هذا الإدراك إن لم يكن في صميمه تعبيراً رمزياً يصعب له من الأسماء ما ليس بينه وبين الواقع مطابقة غير مطابقة الرمز للحقيقة التي ترمز إليها ؟ هل نحن نسمى الألوان بأسمائها ، ثم نرجع إلى حقائقها فلا نعلم لها حقيقة في الواقع إلا أنها دبدبات كما يقال في أمواج الأثير ، ولا نعلم للأثير من حقيقة في الواقع غير أنه - كما يقال - فرض نقول به ؛ لاسيما لا نريد أن نقول بفرض العدم أو بفرض العشاء والخلاء

ومن أمثلة العقيدة الإيمانية التي يلمسها في كل حي أو يلمسها في كل مولود أن الآباء والأمهات يحسون ذريتهم ولا يقبلون بديلاً عنها ، ولو كان البديل خيراً من تلك الذرية وأجمل مطراً وأفضل محترراً وأدعى إلى العسطة والرحاء . ولا بقاء لأنواع الأحياء إذا قامت لأبوة على عاطفة عبر هذه العقيدة الإيمانية التي يرتبط بها قوام الحياة ولا يختلف اثنان في وصف هذا الحد لأبوي بالمعالة إذا أردنا أن نحرد الحياة من صوب العاطفة أو صواب العقيدة ، ولا يدين فيها بغير صواب العقول

فإذا وحب علمنا أن نقبل التعبير الرمزي والعقيدة الإيمانية في مدركات الدين هل نحن لا نترخص مع الدين وحده بهذه الرخصة الشائعة عندنا - نحن بني الإنسان - في جميع مدركاتنا ، بل نحن سوّى بين رخصة الدين ورخصة الحس ورخصة العقل في هذه اللعبة الحيوية التي يطق بها كل حي مع اختلاف الظروف والعبارات .

على أننا لا نستحي بدعاً من العقل إذا ميزنا الدين برخصة لا تساويها رخصة قَطُّ فيما تدركه الحواس أو تدركه العقول ؛ لأن مركبات الدين تشمل أصول الوجود

وأسرار الحقيقة ، وتتطلع إلى بواطن العيب كما تتطلع إلى ما وراء هذا العالم المحدود ، كلما ارتفعت بها أشواقها إلى سماء الكمال المطلق كمال الخالق المسدح لجميع هذه المخوقات .

فإذا قبلنا من عقولنا وحواسنا أن نقع بالتعبير الرمزي والعقيدة الإيمانية في إدراك حقيقة محدودة من هذه الحقائق التي لا عداد لها ، فإنه من الشطط أن نسوم العقل إدراكا للحقيقة المطلقة يحبو من الرموز ويتجرد من عنصر الإيمان .



ولكن واقعيين مع الواقعيين في كلامنا عن مشكلة الدين ، فلما كنا إلى الآن في هذه المرحلة عقليين ، نحتكم إلى البرهان في محاسبة الدين ومراجعة الشبهات التي تواجه المترددين والمعتلين ويواجهون بها عقائد الأديان على الاحمال .

فماذا لو أصمنا إلى حجة العقل حجة الواقع من تجارب التاريخ وتجارب الحاضر في شئون الجماعات الإنسانية وشئون كل فرد من نبي الإنسان على حدة بيته وبين جماعته أو بيته وبين نفسه ؟

إن تجارب التاريخ تقرر لنا أصالة الدين في جميع حركات التاريخ الكبرى ، ولا تسمح لأحد أن يزعم أن العقيدة الدينية شيء تستطيع الجماعة أن تلغيه ، ويستطيع الفرد أن يستعسى عنه في علاقته بتلك الجماعة أو فيما بيته وبين سريره المطوية عن حوله ، ولو كانوا من أقرب الناس إليه . ويقرر لنا التاريخ أنه لم يكن قطّ لعامل من عوامل حركات الإنسانية أثر أقوى وأعظم من عامل الدين ، وكن ما عداه من العوامل المؤثرة في حركات الأمم وإنما تتفاوت فيه القوة بمقدار ما بيته وبين العقيدة الدينية من المشابهة في التمكن من أصالة الشعور وبواطن السريرة .

هذه القوة لا تصارعها قوة العصبية ، ولا قوة الوطنية ، ولا قوة العرف ، ولا قوة الأخلاق ، ولا قوة الشرائع والقوانين ؛ إذ كانت هذه القوة إنما ترتبط بالعلاقة بين المرء ووطنه ، أو العلاقة بينه وبين مجتمع ، أو العلاقة بينه وبين نوعه على تعدد الأوطان والأقوام . أما الدين فمرحعه إلى العلاقة بين المرء وبين الوجود بأسره ، وميدانه يتسع لكل ما في الوجود من ظاهري وباطني ، ومن علانية ومسر ، ومن ماض

أو مصير ، إلى غير نهاية بين أزال لا تحصى في القدم وأباد لا تحصى فيما يكشف
عنه عالم العيوب . وهذا على الأقل هو ميدان العقيدة الدينية في مثلها الأعلى
وعاياتها القصوى ، وإن لم تستوعبها صمائر المتدينين في جميع العصور .

ومن أدلة الواقع على أصالة الدين : أنك تلمس هذه الأصلة عند انقلاص بين
الجماعة المتدنية والجماعة التي لا دين لها أو لا تعنصم من الدين بركن ركين
وكذلك تلمس هذه الأصلة عند المقابلة بين فرد يؤمن بعقيدة من العقائد الشاملة
وفرد معطل الصمير مضطرب الشعور يحمى في الحياة بغير محور يهود به وبغير رحاء
يسمو إليه . فهذا المارق بين الجماعتين وبين المرددين ، كالمارق بين شجرة راسخة
في سببتها وشجرة محتثة من أصولها ، وقل أن ترى إنساناً معطل الصمير على شيء
من القوة والعظمة إلا أمكنك أن تتحيلة أقوى من ذلك وأعظم إذا حست العقيدة في
وحدانه محل التعطل والخبرة



وبعد ، فحين نختم هذه الفاتحة - كما بدأها - بالنسبة إلى عرضنا من هذه
المنافسة الوجيرة لشبهات المترددين والمعطيين على الدين في أساسه ، فنقول في
ختامها : كما قلنا في مستهلها : إننا لا نحسب أن مناقشة من المناقشات في هذا
الموضوع الحلل تحسم الخلاف وتختتم المطاف ، ولكننا نطمح بحق في لإبانة عن
مواطن الضعف من تلك الشبهات ، ونعلم أنها أضعف من أن تقتنع أصول العقيدة
الدينية من الطبيعة الإنسانية ، وأنها تنهافت تناعاً كلما استحضرت الباحث في
حدود شرائط الدين المعقولة التي تلامس حتماً في رأى المؤمن بدين من الأديان ،
وفي رأى المنكر لجميع الأديان على السواء :

فمن شرائط الدين اللازمة أن تدب به جماعة تمتد أحلقها وراء أحوال الأفراد
وتتعاقب فيها الأجيال حقبة بعد حقبة إلى أمد بعيد ، فلا يؤخذ على الدين إدد
أنه يناسب هذه الأجيال حيث تأخرت كما يناسبها حيث تقدمت على مر الزمان
مع تطور العلم والحضارة

ومن شرائط الدين اللازمة : أن تدب به الأمة في العصر الواحد على تفاوت
أبائها في معرفه والسحيه والرأى والمشرب ؛ فلا يؤخذ على الدين إدد أن يدخل

فيه حساب العالم وجاهل ، وحساب الرفيع والوصيع ، وحساب العليل والخصيب ،
وحساب الذكي الساذج والخبى الخامل .

ومن شرائط الدين اللازمة أن يريح الصمير فيما يحبه الإنسان . ولا بد أن
يجهل . من شئون العيب وأسرار الكون ؛ لأنها الشئون والأسرار التى لا يحيط بها
عقله المحدود ولا تبديها له طواهر الرمان والمكان ؛ فلا يؤخذ على الدين إذن أن يتولى
تقريب هذه الأسرار لأندية بأسلوب المزار والتشبيه ، أو بأسلوب الرمر الذى تدركه
العقول البشرية على مقدار خطئها من الفطنة والسهاذ إلى بواطن الأمور وحمايا
الشعور .

ومتى توفرت النفس على تسليم هذه الشرئط اللازمة لكل دين من الأديان فقد
وجب على العارفين أن يضطلعوا بالتوفيق بينها وبين مطلب الجماعة ومطلب
الرمز ومطالب السرية فى أعماقها ؛ حيث تتصل بعالم العيب وعالم الشهادة
صلاتها التى لا تنقطع لمحمة عين .



وظاهر من سياق الكلام عن الدين فى هذه الماتحة أما معنى به التدبى على
إطلاقه ، ونريد أن ندل على أصالته فى حياة الفرد وحياة الأمة ، ومتى عرفنا للتدين
أصالته فى كلتا الحياتين منذ ألوف الستين ، فليس ما يجمع أن يكون بين الديانات
اللى آمن بها الشر قديماً وحديثاً ديانة أفصل من ديانة ، وعقيدة أقرب من عقيدة
إلى الكمال .

وإنما تمصل الديانة سواها بمقدار شمولها لمطالب الروح وارتقاء عقائدها وشعائرها فى
أفاق العقل والصمير ، وكذلك كانت الديانة الإسلامية - كما أما بها - ملة لا تفصلها
ملة فى شمول حقائقها وحنوس عباداتها وشعائرها من شوائب الملل العارة .

وذلك هو موضوع هذا الكتاب فيما يعرضه من حقائق الإسلام ، وفيما يعرض
له من أبطل المقترين عليه .

إن بعض العقائد ليصيب النفس بما يشبه داء الفصام ؛ لأنه يقسم الشخصية
الإنسانية على نفسها ، ويرق الصمير الحائر بين نوارع الجسد ونوارع الروح ، وبين

سلطان الأرض وسلطان السماء ، وبين فرائض السعى وفرائض العبادة . وشمول العقيدة الإسلامية هو الذى يعصم صميم المسم من هذا العصام الروحاني ، وهو الذى يعلمه أن يرفع رأسه حين تثول دولته أمام المسيطرين عليه ، وهو الذى يحفظ كيان الأمم الإسلامية أمام الصربات التى تلاحقت عليها من عارات الفاتحين ، أو عارات الحروب الصليبية ، أو عارات الاستعمار والتبشير .

وشمول العقيدة الإسلامية هو الذى حقق للإسلام ما لم يتحقق بعقيدة غيره من تحويل الأمم العريقة التى تدب بالكذب المنقصة إلى الإيمان به عن طوعية واحتيار ، كما آمنت به الأمم المسيحية والمجوسية والبرهمية فى مصر وسوريا وفارس والهند والصين .

ولقد عرّى انتشار الإسلام فى صدر الدعوة المحمدية إلى قوة السيف ، وما كان للإسلام يومئذ من سيف يصول به على أعدائه الأقوياء ، بل كان المسلمون هم ضحايا السيف وطرائد المشم والحجرات . وإن عدد المسلمين اليوم بين أبناء الهند والصين وأندونيسية والقارة الإفريقية ليلح تسعة أعشار المسلمين فى العالم أجمع ، وما روى لنا الساريج من أحبار العرواب الدينية فى عامة هذه الأقطار ما يكفى لتحويل الآلاف المكدودة - فضلا عن مئات الملايين - من دين إلى دين

ولقد عرّى انتشار الإسلام بين السود من أساء القارة الإفريقية إلى سماح الإسلام بتعدد الروحانيات ، وما كان تعدد الروحانيات بالأمر ليسر لكر من يشتهيه من أولئك السود المقبلين على الدين الإسلامى بغير مجهود ، ولكنهم يحلون الخمر ميسرة لهم حيث أرادوها وقد حرمها الإسلام أشد التحريم ، فلم يصرف عنه السرد لأنه قد حال بينهم وبين شهوة الشراب التى قيل إنها كانت شائعة بينهم شيوخ الطعام والعداء .

إنما شمول العقيدة الإسلامية دون غيره هو العامل القوى الذى يجمع إليه النفوس ويحفظ لها قوة الإيمان ، ويستعصى عن السيف وعن المال فى بث الدعوة ، كلما تمتحت أبوها أمام المدعوين إليها بغير عائق من سلطان الحاكمين والمتسلطين .



فقد فى باب العقيدة الشاملة من كتابنا عن «الإسلام فى القرن العشرين»

«ويبدر إلى النهر أن الشمول الذى امتارت به العقيدة الإسلامية صفة حمية

عميقة لا تظهر للناظر من قريب ، ولابد لإظهارها من تحت عوبص في قواعد الدين وأسرار الكتاب وهرائنص المعاملات ؛ فمست هي مما يراه الناظر الوثني أو الناصر البدوي لأول وهلة فس أن يطلع على حقائق الديانة ويتعمق في الاصلاص ومن المحقق أن إدراك الشمول من الوجهة العدمية لا يتأتى بغير الدراسة الوافية ومقارنة المتعصلة في وحوه الاتماق ووحوه لاختلاف بين الديانات ، وبخاصة في شعائرها ومراسمها التي يتلاقى عليها المؤمنون في بيئاتهم الاجتماعية .

ولكن الناظر القريب قد يدرك شعور العقيدة الإسلامية من مراقبة أحوال المسم في معبشته ومعادته ، ويكفي أن يرى مسلم مستقلاً معادته عن الهيكل والصم والأيقونة والوثن ، ليعلم أنه وحدة كاملة في دينة ، ويعلم من ثم كل ما يرعه في ذلك الدين أيام أن كان الدين كله حكراً للكاهن ، ووقفاً على المعبد ، وعالة على الشعائر والمراسم مدى الحياة .

لقد ظهر الإسلام في إبان دولة الكهانة والمرسم ، وواحه أناس من الوثنيين أو من أهل الكتاب الذين صارت بهم تقاليد الحمود إلى حالة كحالة الوثنية في تعظيم الصور والتماثيل والتعويل على المعبد والكاهن في كل كبيرة أو صغيرة من شعائر العبادة ، ولأح لناس في القرن السابع للميلاد خاصة أن المتدين قطعة من المعبد لا تتم على انفرادها ولا تحسب لها ديانة أو شفاعة بمعزل عنه . فالدين كله هي المعبد عند الكاهن ، والمتدينون جميعاً قطع متفرقة لا تستقل يوماً بقوام الحياة الروحية ، ولا تزال معيشتها الخاصة والعامة تثوب إلى المعبد ، لتترود منه شيئاً تتم به عقيدتها ، ولا تستغنى عنه مدى الحياة .

لا دين بمعزل عن المعبد والكاهن والأيقونة ، سوء في العبادة الوثنية أو في عبادة أهل الكتاب ، إلى ما بعد القرن السابع بأحيال متطاولة

فلم ظهر المسم في تلك الآونة طهر الشمول في عقيدته من نظره وحلفه ، ظهر أنه وحدة كاملة في أمر دينة : يصلى حيث شاء ، ولا تتوقف له لحاجة على مشيئة أحد من الكهان ، وهو مع الله في كل مكان ، ﴿ فَأَيُّهَا تَوَلَّوْا فَنَمُ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ [البقرة ١١٥]

ويذهب لمسلم إلى الحج ، فلا يذهب إليه ليعتم من أحد بركة أو نعمة يصفىها

عليه ، ولكنه يذهب إليه كما يذهب الألف من إخوانه ، ويشترون جميعاً في شعائره على سنة المساواة ، بعير حاجة إلى الكهنة ، وقد يكون السُّدنة الذين يراهم محاورين لكعبة حُدَّاماً لها وله ، يلدونه حين يطلب منهم الدلالة ، ويتركهم إن شاء ؛ فلا سبيل لأحد منهم عليه .

فإد توسع قبلاً في العلم شعائر لحج علم أن الحج لا يفرص عليه ريادة قرر الرسول ، وأن هذه الريادة ليست من مسالك الدين ، وأنها تحية منه يؤديه من عبده عبر مردم ، كما يؤدي التحية لكل دفين عزيز محبوب لديه : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ . [الكهف : ١١٠]

وقرأ فيه ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنَّ عَلَيْكَ الْبَلَاغَ ﴾ [الشورى : ٤٨]

وقرأ فيه ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [النور : ٥٤]

وقرأ فيه ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ [ق : ٤٥]

وقرأ فيه ﴿ لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾ [العاشية : ٢٢]

وقرأ فيه ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبا : ٢٨]

وقرأ فيه آيات لا تخرج في وصف الرسالة عن معنى هذه الآيات



مر بنا أن فساد رجال الدين كان من أسباب انصراف أتباعهم عن دينهم ودخولهم أهواجا عقيدة المسلمين .

مثل هذا لا يحصل في أمة إسلامية فسد فيها رجال دينها ، فما من مسلم

يذهب إلى الهيكل ليقول لكاذه : حد ديك إليك هانئى لا أومن به ، لآسى لا أومن بك ، ولا أرى فى سيرتك مصدقاً لأوامرك وبواهيث أو أوامره وبواهيته

كلاً ، ما من رجل دين يسو للمسلم أنه صاحب الدين ، وأنه حين يؤمن بالله يؤمن به لأنه إله تلك الرجل الدين توسط بينه وبين الله ، أو يعطيه من نعمته قوما لروحه

﴿ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ﴾ (٣) إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ﴿١٤﴾ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد ﴿١٥﴾

[فاطر : ١٣ - ١٥]

نعم ، كلهم فقراء إلى الله ، وكلهم لا فصل لواحد منهم على سائرهم ، لا بالتقوى ، وكلهم فى المسجد سواء ، فإن لم يحدوا المسجد فمسجدهم كل مكان فوق الأرض وتحت السماء .

إن عقيدة المسلم شىء لا يتوقف على غيره ، ولا تنفى منه بقية وراء سره وجهه ، ومن كان إماماً له فى مسجده هل ترتفع به الإمامة مقاماً فوق مقام السبى صاحب الرسالة السبى بشير وينذر ، ولا يتجر ولا يسيطر ، ويبلغ قومه ما حُسن وعيهم ما حملوا ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين

ومنذ يسلم المسلم يصبح الإسلام شأنه الذى لا يعرف لأحد حقاً فيه أعظم من حقه ، أو حصة فيه أكبر من حصته ، أو مكاناً يأوى إليه ويكون الإسلام فى غيره

كذلك لا ينقسم المسلم قسمين بين الدنيا والآخرة ، أو بين الحسد والروح ، ولا يعانى هذا الفصام الذى يشق على النفس احتمالاً ويحمرها فى الواقع إلى طلب العقيدة ، ولا يكون هو فى ذاته عقيدة تعتصم بها من الحيرة والانقسام

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ [القصص ٧٧]

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (٣) ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ﴿

[الأحزاب : ٤٣]

فإذا كانت العقيدة التي ناعد المسافة بين الروح والجسد تعيب من العمل حين يشق علينا العمل ، فالعقيدة التي توحد الإنسان وتجعله كلاً مستقلاً ندياه شفاءً له من ذلك الفصام الذي لا تستريح إليه السريرة إلا حين يضطر إلى الهرب من عمل الإنسان الكامل هي حياته ، وحافز له إلى إخلاص من لقهر كلما غلب على أمره ووقع في قصة سلطان غير سلطان ربه ودينه .

ومن هنا لم يذهب الإسلام مذهب التفرقة بين ما لله وما لقيصر ؛ لأن الأمر في الإسلام كله لله ﴿ بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ (١) ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ (٢) ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

وبما كانت التفرقة بين ما لله وما لقيصر تفرقة الضرورة التي لا يقبلها المتدين وهو قادر على تطويع قيصر بأمر الله ، وهذا التطويع هو الذي أوحته العقيدة الشاملة ، وكان به العصف في صمود الأمم الإسلامية لسطوة الاستعمار وإعديها الراشح بأنها دولة دائمة وحالة لا بد لها من تحوّل .

وقد أتت هذه العقيدة على الرجل أن يطيع الحاكم بحزء منه ويطيع الله بغيره ، وأتت على المرأة أن تعطي بديها في الرواح لصاحبها وتضأ عنه بروحها وسريرتها ، وأتت على الإنسان حملة أن يستريح إلى «الفصام الوجداني» ويحسبه حلاً لمشكلة الحكم والطاعة قابلاً للدوم .

إن هذا الشأن العظيم - شأن العقيدة الشاملة التي تجمع المسلم «وحدة كاملة» لا يتحى وضخاً قوياً كما يتحلى من عمل المرء في شر العقيدة الإسلامية ؛ فقد أسلم عشرات الملايين في الصحارى الإفريقية على يدى تاجر فرد ، أو صاحب طريقة مفرد في خلوته لا يعتصم سلطان هيكلا ولا بمراسم كهانة ، وتصنع لها قدرة المرء الواحد ما لم تصنعه جموع التشير ولا سطوة المتح والعلبة ، فحملة من أسلموا في البلاد التي انتصرت فيها جيوش الدول الإسلامية هم الآن أربعون أو خمسون مليوناً بين الهلال الخصيب وشواطئ البحرين الأبيض والأحمر ، فأما الذين أسلموا بالقدوة الفردية الصالحة فهم فوق المائتين من الملايين ، أو هم كل من

(١) الرعد ٢١ .

(٢) البقرة ١١٥ .

(٣) الشعراء ٢٨ .

أُسِّمَ في الهند والصين وحرائر حوة وصحاري إفريقيا وشواطئها ، إلا الغيل الذي لا يزيد في بدايته على عشرات الألوف .



ويسعى أن يفرق بين الاعتراف بحقوق الحسد وإنكار حقوق الروح ؛ فإن الاعتراف بحقوق للحسد لا يستلزم إنكار الروحانية ولا الخلد من سحابتها التي اشتهرت باسم التصوف في اللغة العربية أو اشتهرت باسم «الخفيات والسريات» في اللغة العربية (Mysticism) إذ لا يوصف بالشمول دين ينكر الحسد ، كما لا يوصف بالشمول دين ينكر الروح ، وقد أشار القرآن الكريم إلى الفارق بين عالم الظاهر وعالم الباطن في قصة الخضر وموسى عليهما السلام وذكر تسبيح الموجودات ما كانت له حياة باطقة وما لم تكن له حبة ، ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (١) . وأشار إلى هذه الأشياء بضمير العفلاء ، وعلم منه المسلمون أن الله أقرب إليهم من حبل الوريد ، وأنه نور السموات والأرض ، وأنه ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢)

وحسب المرء أن يتعلم هذا من كتب دينة ، ليسبح لنفسه من مسحات التصوف كل ما يستباح في عقائد التوحيد ، ويعله لم يوجد في أهل دين من الأديان طرق للتصوف تباع ما نعتته هذه الطرق بين مسلمين من الكثرة والعدد ، ولا وحه للمقابلة بين الإسلام وبين البرهمية أو بين السودية - مثلاً - في العقائد الصوفية ؛ فإن إنكار الحسد في البرهمية أو السودية يخرجهما من عداد العقائد الشاملة التي ينقدها الإنسان بحمته غير منقطع عن جسده أو عن دنياه

وحسب المرء أن يرضى مطالبه الروحية ولا يحالف عقائد دينة ؛ ليوصف ذلك الذين بالشمول ، ويرأ فيهم الصمير من داء العصام .

كذلك يحاطب الإسلام العقل ولا يقصر خطاه على الصمير أو التوحدان ، وهي حكمه أن السطر بالعقل هو طريق الصمير إلى الحقيقة ، وأن التفكير باب من أبواب الهداية التي يتحقق بها الإيمان

(٢) الحديد ٣٠

(١) الإسراء ٤٤

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بَوَاحِدَةً أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَكَبَّرُوا﴾ [سبا : ٤٦]

﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة : ٢١٩]

وما كان الشمول في العقيدة ليذهب فيها مدها أبعاد وأوسع من حطاب الإنسان روحاً وحسداً، وعقلاً وعصميراً نعو نخس ولا إفراط في ملكة من هذه الملكات

وهي مشكلة المشكلا الذي تعرض للمسلمين يعدل المسلم بين الإيمان بالقدر والإيمان بالتبعية والحرية، الإنسانية، فمن عقائد ديه : ﴿إِنَّ أَحْلَ اللَّهُ إِذَا جَاءَ لَا يُؤْخَرُ﴾^(١)، ﴿وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُقْصَرُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾^(٢)، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(٣)، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾^(٤).

ومن عقائد ديه أيضا : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾

[الرعد : ١١]

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود : ١١٧]

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى : ٣٠]

وليس في الإسلام أن الخطيئة مورثة في الإنسان قبل ولادته، ولا أنه يحتاج في التوبة عنها إلى كفارة من غيره. وقد قل إن الإيمان بالقضاء والقدر هو عنة حمود المسلمين وقيل على نقيض ذلك إنه كان حافهم في صدر الإسلام على لقاء الموت وقلة المبالاة بهراق الحياة. وحقيقة الأمر أن المسلم الذي يترك العمل بحجة لا تكال على الله يحالف الله ورسوله، لأنه مأمور بأن يعمل في آيات الكتب وأحاديث الرسول ﴿وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾^(٥) بل حقيقة الأمر أن خلاصة ذلك كله موقوف عليه، وأن إيمانه بحريته وتلايره لا يقتضى بداهة أن الله سبحانه - مملوب - خرية والتدبير

(١) يوح ٤ (٢) طاهر : ١١ (٣) آل عمران : ١٤٥ (٤) النساء : ٨١ (٥) التوبة : ١٠٥

وأصدق ما يقال في عقيدة القضاء والقدر أنها قوة تقوى وعذر للضعيف ، وحافز لطلاب العمل ، وتعلّة لمن يهان ولا يقدر عليه ، وطكّ ديدنّ الإنسان في كل باعث وهي كل تعلّة ؛ كما أوضحها في المشرق بين أبي الطيب المتنبي وأبي العلاء المعريّ وهما يقولان بقول واحد في عبث الجهد وعبث الحياة

فأبو الطيب يقول عن مراد النفوس :

ومراد النفوس أهون من أن تتعادي فيه وأن تتفاني

ثم يتخذ من ذلك باعثاً للمجاهد والكفاح ، فيقول

غير أن المتنبي يلاقى المنيب كالحات ولا يلقى الهوانا

والمعري يقول إن التعب عبث لأنه لا يؤدي بعده إلى راحة في الحياة ، ولكنه يعجب من أجل هذا لمن يتعبون ويطلبون المزيد :

عبث كلّها الحياة هما أعـ حـب إلا من راعب في اريداد

وعنى هذا ، انثال يقال تـره : إن عقيدة القضاء والقدر بعثت المسلمين ، ويقال بـاره أخرى إنها ضربهم وأوكلتهم إلى التواكل والحمود . وصواب القول أنهم صعموا ، قل أن يفسروا القضاء والقدر ذلك التفسير ، وتلك حديعة الطبع الضعيف

وبوصف العقيدة الإسلامية بالشمول ؛ لأنها تشمل الأمم الإنسانية جميعاً ، كما تشمل النفس الإنسانية بجملتها من عقل وروح وضمير

فليس الإسلام دين أمة واحدة ، ولا هو دين صيغة واحدة ، وليس هو للسادة المسطّطين دون الصعفاء المسحجرين ، ولا هو للضعفاء المسحجرين دون السادة المسطّطين ، ولكنه رسالة تشمل في الإنسان من كل جنس وملة وقبيلة

﴿ وما أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [صبا : ٢٨]

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [الأعراف : ١٥٨]

﴿ قُولُوا مَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ

ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَبَيْنَ لَهُ عِزًّا ﴿١٣٦﴾ [البقرة: ١٣٦]

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ مِنَ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١٦٢]
فهذه عقيدة إسلامية شاملة لا تخص بعممة اله أمة من الأمم لأنها من سلالة محتارة ، دون سائر السلالات لفصيلة غير فصيلة العمل والصلاح .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]

وفي أحاديث السني عليه السلام أنه لا فصل لعربي على عجمي ، ولا لقرشي على حبشي إلا بالتقوى .

وليس للإسلام طبقة يؤثرها على طبقة أو مرلة يؤثرها على مرلة ، فالناس درجات : يتفاوتون بالعلم ، ويتفاوتون بالعمل ، ويتفاوتون بالرق ، ويتفاوتون بالأحلاق

﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]
﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٥]

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّقِّ﴾ [الحل: ٧١]

﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]



وإذا ذكر القرآن الضعيف فلا يذكره لأن الضعيف بعممة أو فصيلة محتارة لذاته ، ولكنه يذكره ليقول للضعيف : إنه أهل لمعرفة الله إذا جاهد وصبر وأنف أن يسحر لبه وقلبه للمستكبرين ، ولا فإنه لمن الجرمين .

﴿ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٣٦) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا أَنْحَرُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بِلَ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴾ (٣٧) [صبا: ٣٦، ٣٧]

﴿ وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ (٥) وَنُكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ (٦) [القصص: ٦، ٥]

وما من ضعيف هو ضعيف إذا صير على البلاء ، فإدراك عرف الصبر عليه فيه لأقوى من العصبية الأشداء

﴿ إِنْ أَحْبَبَ اللَّهُ عِبَادَهُمْ وَعَلَّمَ أَنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مَائَةٌ صَابِرَةً يَغْلِبُوا مَائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ١٦٠]

وما كان الإله الذي يدين به المسلم إله ضعفاء أو إله أقوياء ، ولكنه إله من يعمل ويصبر ويسحق العيون بفصل فيه ، حراؤه أن يكون مع الله ، والله مع الصابرين .

بهذه العقيدة الشاملة عبد المسلمون أقوياء الأرض ، ثم صمدوا لعلة الأقوياء عليهم يوم دالت الدول وتبدلت المقادير ، ودق المسلمون نأس القوة معلوبين مدافعين .

وهذه العقيدة الشاملة هي التي أفردت الإسلام عربة لم نعهد في دين آخر من الأديان الكتابية ؛ فإدراك ناريج التحول إلى هذه الأديان لم يسجل لنا قط تحولاً جماعياً إليها من دين كتابي آخر بمحض الرضا والاقساع ؛ إذ كان المتحولون إلى المسيحية أو إلى اليهودية قبها في أول شأنها أمناً وثية على الفطرة لا تدب بكتاب ، ولم تعرف قبل ذلك عقيدة النوحيد أو الإله الخالق المحيط بكر شيء ، ولم يحدث قط في أمة من الأمم ذات الحضارة العريقة أنها تركت عقيدتها لتتحول إلى دين كتابي غير الإسلام ، وإنما تفرد الإسلام بهذه المزية دون سائر العقائد الكتابية ، فتحوّل إليها الشعوب فيما بين الهرين وهي أرض الهلال الخصيب وفي مصر وقرس ، وهي - فارس . أمة عريقة هي الحضارة كانت قبل التحول إلى الإسلام تؤس بكتابها

القديم ، وتحول إليه أناس من أهل الأندلس وصقلية ، كما تحول إليه أناس من أهل النبوة الذين عثروا على المسيحية أكثر من مائتى سنة ، ورغبهم جميعا فيه تلك الشمول الذى يجمع النفس والصغير ، ويعم بين الإنسان على تعدد الأقسام والأوطان ، ويحقق المقصد الأكرم من العقيدة الدينية فيما امتازت به من عقائد الشرائع وعقائد الأخلاق وآداب الاجتماع .

وابرر هذه الحرية - حرية العقيدة الإسلامية التى أعانت أصحابها على العلب وعلى الدفاع والصمود - هو الذى نستعين به على النظر فى مصير الإسلام بعد هاتين الحالتين ، ويريد بهما حالة القوى العالبة وحالة الضعيف الذى لم يسلبه الضعف قوة الصمود للأقوياء ، إلى أن يحس الحين ويتبدل بين حالتي العالبة والضعف حالته التى يرجوها بعده المأمول ، ولش كانت حالة الصمود حُسنى الحالتين فى مواقف الضعف ، مع شمول العقيدة ونقاها صالحة للنفس الإنسانية فى حملتها وللعالم الإنسانى فى حملته . ليكون المصير فى العد المأمول أكرم ما يكون مع هذه القوة وهذا الشمول .

فى هذه العجالة عن شمول العقيدة الإسلامية دراسة كافية المقصود فى هذا الكتاب الذى نود أن نستقصى فيه كل ما يستقصى عن حقائق الدين فى حيز هذه الصفحات أما لمرايا التى امتدت بها عقائد الإسلام وأحكامه فمحس مفردون لها ما يلى من فصول للكتاب الأربعة ، وهى مدوءة بفصل عن العقائد ، وببعض فصل عن الحقوق ، وفصل عن المعاملات ، وفصل عن الأخلاق والآداب .

ووجهتنا التى نتجه إليها فى هذه السحرة .

أولاً . أن لإسلام يوحى إلى المسلم عقيدة فى الدين الإلهية ، وعقيدة فى الهداية النبوية ، وعقيدة فى الإنسان لا تعدوها عقيدة فى الديانات ولا فى الحكمة النظرية أو الحكمة العملية .

وثانياً . أن أحكام الإسلام لا تعوق المسلم عن غاية تفتحها أمامه أشواط العلم والحضارة وثالثاً . أن فى الإسلام راداً للأثم الإنسانية فى طريق المستقبل الطويل يواتيها بما فيه عنى لها حيث نصبت ، لأرواد من وطب العقائد الروحية أو تكاد وباسم الله نتجه فى وجهتنا ، وعنى هدى من الإيمان بالله .

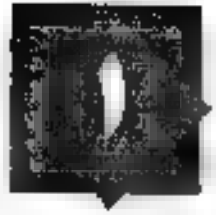
المفصل

الأول

الحقائق



العقيدة الإلهية



العقيدة في الإله رأس العقائد الدينيي بحميتها وتمصيتها ، من عرف عقيدته فوم في إلههم فقد عرف نصيب ديههم من رفعة العهم والوجدان ، ومن صحه المقاييس التي يقاس بها الخير والشر وتقدر بها الحسنات والسيئات فلا يهبط دين وعقيدته في الإله عالية ، ولا يعلو دين وعقيدته في الإله هابطة ليست ، بأاسب صفات الموحود الأول الذي تتبعه جميع الموجودات

ولقد كان النظر في صفات الله محال التنافس بين أكبر العقول من أصحاب الفلسفة الفكرية وأصحاب الحكمة الدينية ، وقد كانت مهمة الفلاسفة أبسر من مهمة حكماء الأديان ؛ لأن الفيلسوف النظري يطلق في تفكيره وتقديره غير مقيد بعرائض العبادة وحدود المعاملات التي يتقيد بها الحكيم الديني ويتقيد بها من يأتمون به من أتباعه في الحياة العامة والمعيشة الخاصة . فظهر بين الفلاسفة الطريين من سما بالتنزيه للإلهى صُعُدًا إلى أَوْج لا بلحق به الخيال فصلًا عن المكر والإحساس .

وجاء الإسلام من حوف الصحراء العربية بأسمى عقيدة في الإله الواحد الأحد ، صححت فكرة الفلسفة الطرية كم صححت فكرة العقائد الدينية فكان صحيحه لكل من هتير الفكرتين - في حاسب النقص منها - أعظم المعجرات التي أثبتت له في حكم العقل المنصف والمديهة الصادقة أنه وحى من عند الله .

يقال على الإجماع ، إن صفات الإله قد ارتفعت إلى دروتها العليا من التنزيه والتجريد في مذهب «أرسطو» الفيلسوف اليوناني الكبير

والدين يرون هذا الرأي لا يسون مذهب «أفلاطون» ، إمام الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، وشيخ الفلسفة الصوفية بين العربيين إلى العصر الأخير ، غير أنهم لا بدكروه في معرض الكلام على التنزيه في وصف الله ؛ لأن مذهبه أقرب إلى العيبوبة الصوفية مه إلى التفكير الخلي والمنطق المعقول ، وطريقته في التنزيه أن يمع في الرادة على كل صفة يوصف بها الله ، فلا يراد يتخطاها ، ثم يتخطاها

كلما استطاع الريادة اللعظية حتى تنقطع الصلة بينها وبين جميع المدبولات المفهومة أو المطلوبه ويرجح الأكثرون أن «أفلاطون» نفسه لم يكن يتصور ما بصوره من تلك الصعقات ، وإنما كانت غايته القصوى أن يذهب بالتصور إلى مقطع العجز والإعياء .
ومن ذلك - أنه ينكر صفة الوحدانية ليقول بصفة الأحذية ، ويقول : «إن الواحد غير الأحد ؛ لأن الواحد قد يدخل في عدد الاثنين والثلاثة والعشرة ، ولا يكون الأحد إلا مفردا بغير تكرار»

ومن ذلك - أنه ينكر صفة الوجود ليقول إن الله لا يوصف بأنه موجود ، تريه له عن الصفة التي يقدها العدم وتشارك فيها الموجودات أو الموحّدات
لهذا يصربون انشل بأرسطو في نسيه الإله ، ولا يصربون المثل بأفلاطون ؛ لأن مذهبه ينقطع في صومعة من عيبوبة الدهون لا تتمرح بحياة فكرية ولا بحياة عملية .
ومذهب أرسطو في الإله أنه كائن أرلى أبدى مطلق الكمال لا أول له ولا آخر ، ولا عمل له ولا إرادة ، منذ كان العمل طلباً لشيء والله عسى عن كل طلب ، وقد كانت الإرادة اختياراً بين أمرين ، والله قد احتتمع عنه الأصلح الأفضل من كل كمال ؛ فلا حاجة به إلى الاحتيار بين صالح وغير صالح ، ولا بين فاصل ومفصول وليس بما بنامب الإله في رأى أرسطو أن يتبدئ العمل في زمان ؛ لأنه أبدى سرمدى لا يطرأ عليه طارئ يدعو إلى العمل ، ولا يستجد عليه من جديد في وجوده المطلق بلا أول ولا آخر ولا جديد ولا قديم وكل ما يناسب كماله فهو السعادة بنعمة نقده التي لا بُعْية وراءها ولا نعمة فوقها ولا دونهما ، ولا تحرج من نطاقها عناية تعينه

والإله الكامل المطلق الكمال لا يعنيه أن يخلق العالم أو يتخلق مصادته الأولى وهي «الهيولى» ، ولكن هذه «الهيولى» قاذلية للوجود يحرجها من القوة إلى العمل شوقها إلى الوجود الذي يعيض عليها من قتل الإله ، فيدفعها هذا الشوق إلى الوجود ثم يدفعها من المقص إلى الكمال المستطاع في حدودها ؛ فتتحرك وتعمل بما فيها من الشوق والقبلية ، ولا يقال عنها ، إنها من خَلْق الله ، لا أن تكون الخلقه على هذا الاعتبار .

كمال مطلق لا يعمل ولا يريد .

أو كمال مطلق يوشك أن يكون هو والعدم المطلق على حد سواء

وليدكر أنه أرسطو صاحب هذا المذهب قبل كل شيء

ولنذكر أنه ذلك العقل الهائل الذي يهابه من يحس قدرته ، فلا يجترئ عليه بالنقد والنسب قبل أن يصرع جهده في التماس ابعادة له من جهل عصره وقصور الأفكار حونه لا من جهله هو أو قصور تفكيره فإنه لم يعودنا في تفكيره احتمالاً فقط لا ينقصه قصارى مداه ، ولا ينوهي مقتضياته ومواضع جهده ما في الطاقة الإنسانية من استيعاء .

لندكر أنه أرسطو ؛ لكي نذكر أن هذا العمل النادر لم يؤت من نقص في تصور الصفات العلوية إلا لأنه عايش في زمان لم تتكشف فيه المعرفة من خصائص هذه الكائنات الأرضية «السفلى» التي يحسها ويعيش بينها ، ولو أنه عرف ما هو لاصق بها من خصائصها وأعراصها لكان له رأى في الكمال لعلوى عبر ذلك الذي ارتأه بمحس الظن والقياس على غير مقياس .

لنفد كان يفهم من كمال الكائنات العلوية - السماوية - أنها خالدة باقية لا نفس ؛ لأنها من نور ، ولنور سيط لا يعرض له الفناء كما يعرض على التركيب ولو أن أرسطو عايش حتى علم أن المادة الأرضية - السفلى - كنه من نور ، وأن عناصر المادة كنهها تتحول إلى الدراب والكهارب ، وأن هذه الدرات والكهارب تشق فتتول إلى شعاع - لما ساقه الظن والقياس إلى ذلك الخطأ في التفرقة بين لوarm النقاء ولوarm الفناء ، أو بين خصائص الساطة وخصائص التركيب

ولعل إدراكه لذلك الخطأ في فهم لوarm الساطة والكمال ، ولوarm النقاء والفناء - كن حليفاً أن يهديه إلى فهم خطئه في تصور لوarm الكمال الإلهي ؛ فلا يتمتع في عقله أن يحتمع الكمال الواحد من صفات علة كالصفات الحسنى التي وصف بها الإله في الإسلام ، ومنها الرحمة والكرم والقدره والصنع والإرادة ، ولا يتمتع في عقله أن يكون لهذه الصفات لوarmها ومقتضياتها ؛ إذ لا يكون قدره بغير مقدور عليه ، ولا يكون كرم بغير إعطاء ، ولا يكون مشيئة بغير اختيار من أمرير ، وإذا

احتار الله أمراً فهو لا يختاره لدانه - سبحانه ونعالى - بل يختاره لمخلوقاته التي تجور عليها حالات شتى لا تجور في حق الإله ، وإذا حقق الله شيئاً في الزمان فلا ينظر إلى الأبدية الإلهية بل ينسعى أن ينظر إلى الشيء الموحود على المخلوق في زمانه ثم لا مانع عقلاً من أن تتعلق به إرادة الله الأبدية على أن يكون حيث كان في زمن من الأزمان

لقد كان مفهوم الساطة في لأبدية السابقة عند أرسطو غير مفهومها الذي لمسه اليوم لمسا في هذه الكائنات الأرضية السفلية ؛ فلا حرم يكون مفهوم الكمال المطلق عندما غير مفهومه الذي جعله أرسطو أشبه شيء بالعدم المطلق غير عامل ولا مرید ولا عالم بسوى النعمة والسعادة ، فبع بأنه معمم سعيد .



وعلى هذا يبقى لنا أن نسأل : هل استطاع أرسطو بتحريره الفلسفي أن يسمو بالكمال الأعلى فوق مرتبته التي يستلهمها للمسم من عقدة دسه ؟

يقول عن يقين . كلا ؛ فإن الله في الإسلام إله صمد لا أول له ولا آخر ، وله المثل الأعلى ؛ فليس كمثله شيء ، وهو محيط بكل شيء .

ثم يبقى بعد ذلك أن نسأل هل تعصر العقيدة الدينية من الفكرة الفلسفة في مذهب التنزيه ؟

والجواب : كلا ؛ بل الدين ها فلسفة أصبح من الفلسفة إذا قيس بالقياس الفلسفي الصحيح ، لأن صفات الإله التي تعددت في عقيدة الإسلام لا تعدو أن تكون ميباً للقائض التي لا تجور في حق الإله ، وليس تعدد القائض بما يقصى بتعدد الكمال مطلق الذي يصرده ولا يتعدد . فإن الكمال المطلق واحد والقائض كثيرة يعيها جميعاً ذلك الكمال الواحد ، وم إيمان المسلم بأن الله عليم قدير فعال لما يريد كريم رحيم ، إلا إيهاً بأنه حل وعلا - قد تراه عن نقائص الخهل والعحر والحد والعشم ؛ فهو كامل مره عن جميع القائض ، ومقتضى قدره أن يعمل ويحق ويريد خلقه ما يشاء ، ومقتضى عمله وحققه أن يتبره عن تلك العزرة السعيدة التي يرميها أرسطو مخطئاً في التحرير والتنزيه ؛ فهو سعيد بعمه كماله

سعيد بنعمة عطائه ، كفايته لداته العبية لا تأتي له أن يعيصر على اخلق كفايتهم من الوجود في الرمد ، أي من ذلك الوجود المحدود الذي لا يعصر من وجود الله في الأبد بلا أول ولا آخر ولا شريك ولا مثيل

ومن صفات الله في الإسلام ما يعتبر رد على فكرة الله في الفلسفة لأرسطية ، كما يعتبر رداً على أصحاب التأويل في الأدب الكسائية وغير الكسائية

قاله عبد أرسطو يعقل داته ولا يعقل ما حوسها ، ويتبره عن الإرادة ؛ لأن الإرادة طلب هي رايه والله كمال لا يطلب شيئاً غير داته ، ويعصر عن عيم الكلبيات واخرثيات ، لأنه يحسها من علم العقول البشريه ، ولا يعنى بالخلق رحمة ولا فسوه ؛ لأن الخلق أخرى أن يعصب الكمال بالسعي إليه ، ولكن الله في الإسلام عالم العيب والشهادة

[ميا ٣٠] ﴿ لَا يَغْرِبُ عَنْهُ مُنْقَالُ ذَرَّةٍ ﴾

[يس ٧٩] ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

[المؤمنون : ١٧] ﴿ وَمَا كُنَّا مِنَ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾

[الأعراف : ٨١] ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾

[الأعراف : ٥٤] ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾

[فاطر : ٣٨] ﴿ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَعْلُونةٌ عَلَتْ أَيْدِيهِمْ وَتُعْزِوْا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾

[المائدة : ٦٤]

وهي هذه الآية رد على يهود العرب بماسبة خاصة تتعلق بالركاة والصدقات - كما جاء في أقوال بعض المفسرين - ونكها رد على كل من يغنون إرادة الله على وحه من الوحوه ، ولا يسعد أن يكون في يهود الحرية من يشير إلى رواية من رويت الفلسفة الأرسطية لذلك انقال

وقد أشار القرآن الكريم إلى الخلاف بين الأدب المتعددة ، فجاء فيه من سورة الحج

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا
إِنَّ اللَّهَ يَقْضِيُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج ١٧]
وأشار إلى الدهريين ، صحاء في سورة الأنعام

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ
مِنْ عِلْمٍ إِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجمانية ٢٤]

فكانت فكرة الله في لإسلام هي الفكرة المتممة لأفكار كثيرة مورعة في هذه
العقائد الديية ، وفي المذاهب الفلسفية التي تدور عليها ؛ ولهذا بلغت المثل الأعلى
في صفات الذات الإلهية ، وتضمنت بصحيحاً للصمائر وتصحيحاً للعقول في
تقرير ما يسعى لكمال الله ، بقسطاس الإحسان وقسطاس النظر والقياس

ومن ثم كان فكر الإنسان من وسائل الوصول إلى معرفة الله في الإسلام ، وإن
كانت الهداية كلها من الله

ومحمل ما يقال عن عقيدة الذات الإلهية التي جاء بها الإسلام - أن الذات
الإلهية غاية ما يتصوره العقل البشري من الكمال في أشرف الصفات ، وقد جاء
الإسلام بالقول المصل في مسألة البقاء والقاء ، والعقل لا يتصور للوجود الدائم
والوجود العاصي صورة أقرب إلى الفهم من صورتيهما هي العقيدة الإسلامية ؛ لأن
العقل لا يتصور وجودين سرمديين ، كلاهما غير محبوق ، أحدهما مجرد والآخر
مادة ، وهذا رداك ليس لهما اسداء وليس لهما انتهاء .

ولكنه يتصور وجوداً أبدياً مخلوق وجوداً زمانياً ، أو ينصور وجوداً يدوم ووجوداً
يتبدل ويسهي في الزمان .

وقد بقى قال أعلاميون وأصاب فيما قل « إن الزمان محاكاة للأبد لأنه
مخلوق ، والأبد غير مخلوق »

فبقاء المحبوقات بقاء في الزمن ، وبقاء الخالق بقاء أبدي سرمدي لا يحده المص
وخاصر والمستقل ، لأنه كلها من حدود الحركة والانتقال في تصور أساء المص ،
ولا تجوز في حق الخالق سرمدي حركة ولا انتقال

فإنه هو: ﴿الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾

[الفرقان : ٥٨]

﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾

[المزمتون : ٨٠]

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾... (١)

[القصص : ٢٨]

وأيا كان المرتقى الذي ارتفع إليه تربية الفكرة الإلهية في منذهب أرسطو كما شرحناه بعض الشرح ، أو مذهب أستاذه أفلاطون كما أومأنا إليه بعض الإيماء فهد التربة الفلسفي قمة مُنَمَّة عن البيئة التي عاش فيها الفيلسوفان ، ويكاد هذا التربة الفلسفي أن يكون حياً حياً حامحاً بالنسبة إلى العقائد الإلهية التي كانت قشية بين الكهان والمتعبدين من أبناء اليونان .

فلا شك أن صورة «ريوس» رب الأرباب عندهم كانت أقرب إلى صورة الشيطان منها إلى صورة الأرباب امريهين ، ولولم ينح وصف التربة عندهم نصيماً ملحوظاً من الكمال

كان «ريوس» حقوداً لدوداً مشعولاً شهوت الطعام والعزم ، لا يالي من شئون لأرباب والمحرفات إلا ما يُعيبه على حفظ سلطانه والتمادى في طعيانه ، وكان يعصب على «أسقولا» إله الطب ؛ لأنه يدرى امريض فيحرمه حماية الضريرة على أرواح الموتى الذين ينقلون من طهر الأرض إلى ناطق الهاوية ، وكان يعصب على «برومثيوس» إله لمعرفة والصناعة ؛ لأنه يعلم لإسكان أن يستخدم النار في الصناعة وأن يتحد من المعرفة قوة تصارع قوة الأرباب ، وقد حكم عليه بالعقاب الدائم فلم يفع موته ولا يقصئه عن حظيرة الآلهة ، بل نفس في احتراع ألوان العذاب له فقيده إلى جبل سحيق ، وأرسل عليه حوارج الطير تنهش كسده طوال النهار حتى إذا حن الليل عادت سليمة في يده تعود الحوارج إلى بهشها بعد مطيع الشمس ولا يرال هكذا دَوَالِيكَ هي العذاب الدائم مردود الشفاعة مرفوض الدعاء . وفي رواء الشاعر الفيوسف «هريود» عن علة عصب الإله عنى «برومثيوس» . أنه قسم له نصيبه من الطعام في وليمة لأرباب فأكثر فيه من العظام ، وأقل فيه من اللحم والشحوم ؛ فاعتقد «ريوس» أنه يتعالَم عليه معرفته

(١) من كتاب «الهدى» للمؤلف

وعطسه ، لأنه اشهر بين الالهة بمعرفة واحدة وقطة واحدة لم يشتهر بها الإله الكبير ولا يعيب عدا ونحو برؤى أحبار الإله الكبير معوله عن «هريود» أن هذا الشاعر الميسوف قد اجتهد قصارى جهته في تزيين «ريوس» وتصويره للناس في صورة من القداسة والعظمة تناسب صورة الإله المعبود بعد ارتقاء العبادة شيئاً ما في ديانة اليونان الأقدمين

وعما رواه الرواة المختلفون عن «زيوس» أنه كان يحادع زوجته «هيرا» ، ويرسل إله العمام لمدارة الشمس في مطلعها ، حذراً من هبوب زوجته العيرى عليه مع مطلع النهار ومعاجاته بن عشيقاته على عرش «الأوليمب» وحدث مرة أنها فاحتته وهو يقبل صافية «حبيبته» راعي الضأن الجميل الذي لحه يوماً في اخلاء فاحتطه وصعد به إلى السماء فلم يتصل «ريوس» من تهمة الشغف بساقيه ، ومضى يسرع مسلكه لزوجته بما جهته من لذة الجمع بين رحيق الكأس ورحيق الشهاء



ومثل الأم القديمة كمثل اليونان في بعد المارق بين صورة الإله في حكمة الفلاسفة وبين صورته في شعائر الكهان والمتعدين

والهند القديمة كانت تطوى هياكلها ومعابدها على طوائف من لأرباب منها ما يلحق بالحيوان وعناصر الطبيعة ، ومنها ما يلحق بالأوثان والأنصاب ، وكثير منها يتطلب سديته أن يتقربوا بالبعاء المقدس وسعت الدماء

وقد نهت هذه الأرباب المنعددة إلى ثلاث الأيدي الذي اشتعل على ثلاث من الصور الإلهية هي الإله «براهم» في صورة الخالق ، والإله «فشر» في صورة الحافظ والإله «سيما» في صورة الهادم . فحعلوا الهدم والفساد من عمل الإله الأعلى الذي يتولاه حين يتشكل لعباده في تلك الصورة

ورادو على ذلك أنهم جعلوا لكل إله قريباً يسمونه «الشاكسي» أو الروحنة أو الصاحبة ، يسبون إليها من الشرور ما ينزفون عنه قريبها أو صاحبها

فهذه الأرباب صور لا تتباعد ادساعة بينها وبين صور الشياطين والعفاريت والأرواح الخبيثة المعهودة في أقدم الديانات .

فإذا رتبعنا في معارج التبرية والتحرير بلعنا منها دروبها العليا في صورتين مختلفتين ، أحدهما صورة «الكارما» karma ، والصورة الأخرى «الرفقا» NIRVAN . وكنتهما تحسب من قبيل المعنى الذهنية ، وقل أن توصف بوصف الذات لإلهيه

فالكارما هي القدر العال على جميع الوجودات ومنها الآلهة وأفلاك السماء ، وهذا القدر هو في الواقع حالة من الحالات العامة يمكن أن نعبر عنها بأنها هي «ما ينبغي» ، أو هي الوضع الحاصل على النحو لأمثل . فليس القدر المسمى بالكارما عندهم ذاتاً إلهية معروفة الصفات ، ولكنه مرادف لكلمة «الانتعاء» أو كلمة «الواجب» كما وجب في الحوادث والموجودات .

والرفقا حالة عامة كحالة الكارما ، إلا أنها إلى العدم أقرب منها إلى الوجود ؛ لأنها الحالة التي تنتهي إليها جميع الأرواح حين تفرغ من عباء الوجود وتجرد من شواغل الأحساد وشواغل الأرواح على السواء ، وتتساوى أرواح الآلهة وأرواح البشر في حالة الرفقا هذه كلما سعدت بسعة الخلود عبر محسوس ولا مشهود



ولسا نريد في هذه الصفحات القليلة أن نتبع انصور الإلهية والربوبية كافة بين أمم الحضارات الأولى ، وإما يجترئ منها بالمصادج الدالة عليها فيما ارتقت إليه من التبرية وفيما هبطت إليه من التحسيس أو التشبه أو التشويه ؛ وهذا يعنينا عن لاسترمال في شرح عادات الأقدمين أن نضيف إلى ما تقدم مثلاً آخر يتم أمثلة اليونان والهند ، وذلك هو مثل الديانة المصرية القديمة من أبعاد جهود الفراعة إلى عهد الديانات الكناينة ، وهي - أي الديانة المصرية القديمة - أرفع الديانات فيما نعلم ترمياً إلى دروه الموحيد والتبرية ، وإن كانت هي عبادتها الشائعة تهبط أحياناً إلى مهبط الديانت العابرة من عبادة الطوطم والأنصاب ، وعادة الأرواح الخبيثة والشرطي

سعدت ديانة مصر القديمة دروبها العليا من التوحيد والتبرية في ديانة «أتون» التي شر بها الصرعون المنسوب إليه «أختاتون»

ويؤخذ من صلوات «أختاتون» لمصوطة من أبدنا . أنه كان يصلى إلى حالف واحد يكاد يحترق في صفاته من الإله الخالي الذي يصلى له العارفون من أسع

الديانات الكتابية ، لولا شائبة من العبادة الوثنية عذقت به من عبادة الشمس ، فكانت هذه الشمس الديوية رمزاً له ومرادفاً لاسمه في معظم الصلوات



هذه الشواهد من التاريخ القديم شواهد تمثل لا شواهد حصر وتفصيل ، وهي معنية في الدلالة على المدى الذى وصل إليه تنزیه الفكرة الإلهية في أم التاريخ القديم جميعها ؛ لأنها تدل على ما وصلت إليه الفكرة الإلهية المزهة في أرفع الحصارات الأولى وهي الحصار المصرية ، والحصار الهندية ، والحصار اليونانية

وحملة الملاحظات على تنزیه الفكرة الإلهية عند الأقدمين أنه كان تنزیهها خاصاً مقصوراً على الفئة القليلة من المفكرين والمطلعين على صفوة لأسرار الدينية .

ثم يلاحظ عليه بعد ذلك أنه تنزیه لم يسلم في كل أونة من ضعف يعيبه عقلاً ويجعله غير صالح للأخذ به في ديانات الجماعة على الخصوص

وفي الديانة المصرية لم تسلم فكرة التوحيد من شائبة الوثنية ، ولم تزل عبادة الشمس طاهرة الأثر في عبادة «أتون» .

ودينة الهند لم تعلم الناس لإيمان «بذات إلهية» معروفة الصفات ، وليس في معبوداتها أشرف من الكارما والرفقا ، وهما بالمعدى الذهبية أشبه منهما بالكائنات الحية ، وإحدهما - وهي الرفقا - إلى الصء أقرب منها إلى البقاء

والتنزيه الفلسفي الذي ارتقت إليه حكمة اليونان في مذهب أرسطو يكاد يبحق الكمال المطلق بالعدم المطلق ، ويحصر لنا صورة للإله لا تصلح للإيمان به ولا للافتناع بها على هدى من المهم الصحيح .

وكل أولئك لا يبلغ بالتنزيه الإلهي مبلغه الذي جاءت به الديانة الإسلامية صالحاً للإيمان به في العقيدة الدينية ، وصالحاً للأخذ به في مذاهب التفكير

والديانة الإسلامية - كما هو معلوم - ثلاثة ديانات مشهورة باسم الديانات الكتابية ، مكانها هي علم المقارنة بين الأديان مرتبط بمكان الديانتين لأحرين وهما الموسوية والمسيحية ، وتجرى المقارنة بين الإسلام وبينهما فعلا في كتابات العرب ، فلا يتوعد أكثرهم من حساب لإسلام سحرة مشهورة أو مخرفة من المسيحية أو الموسوية

والمسألة - بعد - مسألة بصوص محفوظة وشعائر ملحوظة ، لا تخفى على احد
الطويل في ميران المقد و المقدرية ، وإن احتملته في محال الدعوة والخصومة العنسية ،
ولا حاجة في انقاراة بين هذه الديارات إلى أكثر من ذكر العقيدة الإلهية في كل
منها ؛ للعلم الصحيح بمكانها من السرية في حكم الدين وحكم المعرفة النظرية .

إن المراجع التي تنقيا منها عقائد العبريين - كما يدين بها أتباع الديانة الموسوية
إلى يومنا هذا - مبسوبة بين أيدي جميع القاديس على مطالعتها في لغاتها
الأصيلة أو لغاتها المترجمة ، وأشهرها التوراة والتلمود

فصورة الإله في هذه المراجع من أوائلها إلى أواخرها هي صورة «يهو» إله شعب
إسرائيل ، وهي صورة بعيدة عن الوحدة ، يشترك معها آلهة كثيرون تعبدونها الأم
التي جاورت العبريين في أوطان شأتهم وأوطان هجرتهم ، ولكن «يهو» يعارمها
ولا يريد من شعب إسرائيل أن يلتفت إليها ؛ لأنه يريد أن يستأثر بشعب إسرائيل
لنفسه بين سائر الشعوب ، وأن يستأثر شعب إسرائيل به لأنفسهم بين سائر
الآلهة ، وكان إذا غضب منهم لالتفاتهم إلى غيره قال لهم - كما جاء في سفر
أشعيا الثاني - «من تشبهوني ونسوبي وغفلوني لنتشابه؟» وكان السبي أرميا
يقول لهم بلسان الرب إلههم «إن أبناءكم قد تركوس وذهبوا وراء آلهة أخرى
وعبدوها وسجدوا لها ، وإني تركو ، وشريعتي لم يحفظوا .. » ، ثم يقول الرب -
« .. وأعطيهم فنا ليعرفوا أنني أنا الرب ، فيكونوا لي شعبا ، وأن أكون لهم إلهًا »

فلم يكن العبريون يسكرون وحوود ، لآلهة الكثيرين غير إلههم الذي يعبدونه تارة ،
ويتركونه تارة أخرى ، ولكنهم كانوا يحسبون الكفر به صريًا من حيانة الرعية لمدينتها
واعترافهم بالطاعة لغيره من الملوك القائمين بالملك في أرض غير أرضه وبين رعية
غير رعيته ، وإن تركوا «يهو» حينًا من الزمن ثم آثروا الرجعة إلى عبادته فلما
يرجعون إليه ؛ لاعتقادهم بالتحربة المزعومة أنه أقدر على النكاية بهم ، وأن الآلهة
الأخرى عاجزة عن حمايتهم من سحقه وانتقامه .

وقد وصفوه في كتبهم المقدسة فعلوا عنه مرة ؛ إنه يحب ريح الشواء . وقالوا عنه
مرة أخرى ؛ إنه يتمشى في ظلال الحديقة ليسرد يهوئها . وقالوا عنه - غير هذا
وداك ؛ إنه يصارع عباده ويصارعونه ، وأنه يحاف من مركبات الخيال كما يخافها

حجوده ، وعَبَرُوا رَدْحًا من الدهر وهم يَسْؤُونَ بينه وبين عراريل شيطان البرية فيسحبون إليه بدبيحة ، ويسحبون إلى الشيطان بدبيحة مثلها

ومن تتبع دعوت «يهو» من أوائل أيام العبريين في أوطان مشأتهم وأوطان همزتهم ، إلى أواخرها قبل عصر الميلاد المسيحى لم يتبين من تلك الدعوت أنهم وسعوا أفق العادة لهذا الإله ، ولا أنهم وسعوا مجال الخطوة عنده ، بل إنه ليتبين من دعوته السابقة والملاحقة أنهم كانوا يصيرون أهل عبادته ، ويحصرون مجال الخطوة عنده حيلًا بعد حيل فكان شعبه المختار هم مبدأ الأمر عامًا شاملًا شاملًا لقوم إبراهيم ، ثم أصبح بعد بضعة قرون محصورًا مقصورًا على قوم يعقوب بن إسحاق ثم أصبح بعد ذلك محصورًا مقصورًا على قوم موسى ثم على أبناء داود وعلى من يدعون لعرشه بالولاء . ومن دريته كان ينبغي أن يظهر المسيح لمخلص لهم هم هم آخر الزمان .



وحمد العبريون على عقيدتهم لإلهة فطر «يهو» إلهًا عبريًا يستأثر به أبناء يعقوب بن إسحاق ، ولا يوحوا الخلاص بمعونة منه إلا الذين يدعون بالولاء لعرش داود وذريته من بعده ، فلم يتغير هذا الاعتقاد بين العبريين قبل عصر الميلاد المسيحى ، ولم يأت التغيير فيه من قبل أبناء إسرائيل الخاضعين على عقيدتهم الأولى ، بل أتى هذا التعبير من قبل المصلحين المحددين في الدين اليهودى ، وقام به من بينهم رسول معصوم عليه في شرعتهم منهم المروى من زمريتهم ، وهو عيسى ابن مريم ، رضوان الله عليه

وابتدأ عيسى ابن مريم دعوته الأولى محنصًا بها بنى إسرائيل دون سواهم من العلمين ، وذكرنا لما لأناجيل تفصيل الجوار الذى دار بين السيد المسيح وبين المرأة الكنعاية التى توسلت إليه أن يخرج الشيطان من ابنتها ، فروى إنجيل مرقس في الأصحاح السابع

«إن امرأة ناستها روح نجس سمعت به ؛ فأنت وحررت عنه قدميه ، وكنت امرأة أمية - أى من أبناء الأمم غير لإسرائيلية - ومضى حسنها فيقنة سورية ، فسألته أن يخرج الشيطان من ابنتها ، فقال يسوع لها - دعى البنى أولاً يشعون ؛ لأنه ليس

حسباً أن يؤخذ خبر البين ويطرح لنكلا! فأحابت وقالت نعم ، يا سيد ،
والكلاب - أيضاً - تحت المائدة تأكل فترات البين فقال لها لأجل هذه الكلمة
ادهبي قد خرج الشيطان من انتك . »

إن السيد المسيح «خرج من هناك و بصرف إلى تواحي صور وصيدا ، وإذا امرأة
كنعانية حارحة من تلك النحوم صرخت إليه قائلة ارحمني ، يا سيد بن داود ،
ابنى محبوبه جداً فلم يجهز بكلمة ، فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائنين اصرفها ،
لأنها تصيح وراءنا . فأحابت وقال : لم أرسل إلا إلى حراف بيت اسرائيل الصلاة .
فأتت وسجدت له قائلة . يا سيد ، أعني فأحابت وقال : ليس حسباً أن يؤخذ خبر
البين ويطرح لنكلا! فقالت نعم ، يا سيد ، والكلاب أيضاً تأكل من الفتات
الذى يسقط من مائدة أربابهم حينئذ أجاب يسوع وقال لها يا امرأة ، عظيم
إيمانك ، ليكن لك كما تريدن فشفيت ابنتها من تلك الساعة»

ونحن نعلم من هذه القصة ومن حملة أخبار التلاميذ في الأناجيل أن السيد
المسيح قد ثابر على احتصاص بنى اسرائيل بدعوته ، ولم يحول عنهم إلى غيرهم إلا
بعد إصرارهم على رفضه ولجحتهم في إنكار رسالته ، فوجد بعد اليأس منهم أنه في
حل من صرف الدعوة عنهم إلى الأمم المقيمة بينهم ، وصرى لمثل ذلك صاحب الدار
الذى أقام وبمه العرس في داره ، وأرسل الدعوة إلى ذويه وحبرته ، فتعللوا بالمعاديير
والشواغل ولم يستحيوا لدعوته ، فاصق عماله إلى أعطاف الطريق يدعون من
يصادفهم من العراء وعادى السيل ، عنى غير معرفتهم ولا صلة بينه وبينهم ، حتى
امتلات بهم الدار ، ولم يبق عنى الموائد مكان من احتصمهم بالدعوة ، فأعرضوا عنها

ويلاحظ في قصة المرأة الكنعانية أنها كانت تدعو المسيح بالسيد ابن داود ، وأن
عقيدة العبريين لم تزل تعلق آمالهم بالخلاص عنى يد رسول من ذرية داود ومن
سلالة يعقوب بن إسحق بن إبراهيم

ومضى عصر المسيح ، وجاء بعده عصر بولس الرسول ، وعقيدة الخلاص الموقوف
عنى سلالة إبراهيم الخليل باقية مسلمة بين العبريين الخامدين على تقاليدهم وبين
المسيحيين المتحررين من تلك الثقايل ، وإنما أضيف إليها تفسير جديد لهذه السوة ،
وهو أنها بنوة روحية لا تتوقف على نوة اجسد ، ولا تفرق بينها بين من يحيون سوة

إبراهيم الخليل من العبريين أو من الأميين الذين يسميهم العبريون «الخوييم» ،
أي : الأقوام الغرباء

فالعقيدة الإلهية : كما دأبها العبريون ، وحملوا عليها إلى عصر ميلاد : بما
هي عقيدة شعب مختار بين الشعوب في إله مختار بين الألهة ، وليس في هذه
العقيدة إيمان بالتوحيد ، ولا هي مما يتسع لديانة إنسانية أو مما يصح أن يحسبه
الباحث النصف مقدمة للإيمان بالإله الذي يدعو إليه الإسلام

ثم تطورت هذه العقيدة الإلهية بعد ظهور المسيحية ، فاستلقت من لإيمان بالإله
لأبناء إبراهيم في الحسد إلى الإله لأساء إبراهيم في الروح ، ونقصى عصر السيد
المسيح وعصر بولس الرسول ، واتصلت المسيحية بالأمم الأحبية وفي مقدمتها
الأمم المصرية فشاعت فيها على إثر ذلك عقيدة إلهية جديدة في مذهب العبريين ،
وهي عقيدة الثالوث المجمع من الأب والابن والروح القدس ، وفحواها أن المسيح
المخلص هو ابن الله ، وأن الله أرسله فداء لأساء آدم وحواء ، وكفارة عن الخطيئة التي
وفعا فيها عدم أكلا من شجرة المعرفة في الجنة بعد أن بهما عن الاقتراب منها .

وظهر الإسلام وفحوى العقيدة الإلهية كما تطورت بها الديانة المسيحية . أن الله
الإله واحد من أقديم ثلاثة هي الأب والابن والروح القدس ، وأن المسيح هو الابن
من هذه الأقاليم ، وهو ذو طبيعة إلهية واحدة في مذهب فريق من المسيحيين ، و ذو
طبعيتين - إلهية ، وإنسانية - في مذهب فريق آخر .

ومن البديهي أن الباحث الذي يريد تطبيق علم المقارنة بين الأديان على المسيحية
والإسلام مطالب بالرجوع إلى حالة الديانة المسيحية حيث ظهرت دعوة الإسلام في
الجزيرة العربية ؛ فلا يحوز لأحد من هؤلاء الباحثين أن يزعم أن الإسلام نسخة محرفة من
المسيحية إلا إذا اعتقد أن لدى الإسلام قد أحد من المسيحية كما عرفها في بيئته العربية
وفيما اتصل به من البعثات الأخرى حول جزيرة العرب . ومهما يكن من تطور العقائد
المسيحية في سائر البعثات ومختلف العصور ، فالعقيدة المسيحية التي يجوز لصاحب
المقارنة بين الأديان أن يجعلها قدوة للإسلام ، هي عقيدة المسيحيين في الجزيرة العربية
وما حولها ، وقد وصف « جورج سبين » مترجم القرآن إلى اللغة الإنكليزية حالة المسيحيين
في الحجاز وهي سائر الأصحاء القريبة منها فقال ما نقله من مقدمة ترجمته بقرآن :

«فيه من المحقق أن ما أُلِم بالكنيسة الشرقية من الاضطهاد واحتلال الأحوال في صدر المائة الثالثة للميلاد قد اضطّر كثيرين من بصره أن يلجأوا إلى بلاد العرب ؛ طلباً للحرية ، وكان معظمهم يعاقبة ؛ هذا كان معظم بصرى العرب من هذه القرية . وأهم القبائل التي تنصرت : حَمِيرٌ وَعَسَّانٌ وَرَبِيعَةٌ وَتَغْسُ وَبَهْرَاءُ وَتُوحٌ وَبَعْضُ طَيِّينٍ وقضاة وأهل بحران والحيرة . ولما كانت المصرية بهذه المثابة من الامتداد في بلاد العرب برم عن ذلك - ولا بد - أنه كان للبصرى أسامة في مواضع حمة ؛ لتضم بهم سياسة الكنايس وقد تقدم ذكر أسقف طبر و قال بعضهم كانت بحران مقام أسقف ، وكان للبعاقنة أسقفان ؛ يدعى أحدهما أسقف العرب بإطلاق اللفظ ، وكان مقدمه بأكولة ، وهي الكوفة عند ابن العبري أو بلدة أخرى بالقرب من بغداد عند أنى الهند ، وثالثهما يدعى أسقف العرب النعلسين ومقامه بالحيرة . أما الساطرة فلم يكن لهم على هذين الكرسيين سوى أسقف واحد تحت رئاسة بطريركهم» .

والى أن يقول :

«أم الكنيسة الشرقية فإنها أصبحت بعد نمصاص المجمع السقاري مرتكة بمناقشات لا يكاد تفصى ، واشتقص حبلها بمحاكاة الأريوسيين والساطرة واليعقوبية وغيرهم من أهل البدع . عى أن الذى ثبت بعد البحث أن كلاً منهم يدعى الساطرة واليعقوبية كانت بأن تدعى احتلاقاً هي التعبير عن المعتقد أولى من أن تدعى احتلاقاً هي المعتقد نفسه ، وأن تدعى حمة يتعصب بها كل من المتطربين على الآخر أولى من أن تدعى سناً موحياً لالتهام محامع عديدة يتردد إليها جماعة الفسائسة والأساقفة ، ويتمحكون ليعلى كل واحد منهم كدته ، ويحين الفصاي إلى هواه ثم إن ناعدى الكلمة منهم وأصحاب المكانة في قصر الملك كان كل واحد منهم يختص بقرأ من قواد الخش أو من أصحاب الخطب يكون لهم عليهم الولاء ويتقوى بهم ، ويلتص صارت المناصب نال بالرش والنصفة تباع وتشتري جهاراً أم الكنيسة العربية فقد كان فيها من نهالك دماسوس وأرسكينوس في المشاحنة على مصبة الأسقفية - أى أسقفية روما - ما أفصى إلى احتدام نار المنة وسمك اللما بين حزبيهما ، وكان أكثر ما تنشأ المناقشات من الفباصرة أنفسهم ، ولا سيما القيصر قسطنطينوس ؛ فإنه إذ لم يقدر أن يميز بين

صحيح الدين المسيحي وخرافات العجائز ربك الذين بكثير من المسائل الخلافية هذا ما كان عليه حالة النصرانية في بلاد العرب ، أما في بلاد هذه الأمة التي هي موضوع بحثنا فلم تكن حيرة من ذلك فكان في نصارى العرب قوم يعتمدون أن النفس تثبت مع الجسد وتشر معه في اليوم لأحر ، وقيل إن أوريجانوس هو الذي دمر فيهم هذا المذهب ، وكم وكم من بدعة انتشرت في جزيرة العرب حتى لا نقول نشأت فيها فمن ذلك بدعة كان أصحابها يقولون بألوهية العدراء مريم ويعبدونها كما هي الله ، ويقربون لها أقراصا مصفورة من الرقاق يقال لها : كليرس ، وبها سمي أصحاب هذه البدع كليريين . وفضلا عن ذلك فقد اجتمع - أيضا - في جزيرة العرب عدد وافر من الفرق المختلفة الأسماء لحأوا إليها ؛ هربا من اضطهاد القياصرة . . . »

كانت عقائد الفرق المسيحية في جزيرة العرب ، وفي العالم المتروكي حول جزيرة العرب على هذا النحو الذي وصفه رجل متعصب على الإسلام ، لا يهتم بمحاجاته ، ولا يُطعن به أن يتحذف على المسيحية وهو قادر على مداراتها . ومن الواضح البين أن عقائد الفرق المسيحية على ذلك النحو لم تكن بما يعزى بالاعجاب أو بما يدعو إلى الاقتداء . ومن الواضح البين أن موقف الإسلام كان موقف المصحيح المسمم ولم يكن موقف الناقل المستعير بغير فهم ولا دراية .

فقد جاء الإسلام بالدعوة إلى إله منزّه عن لوثة الشرك ، مره عن جهالة العصبية وسلالة النسب ، مره عن التشبيه الذي تسرب من بقايا الوثنية إلى الأديان الكتابية .

هالكة السى يؤمن به المسلمون إله واحد لم يكن له شركاء ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة : ٣١]

وما هو يرب قبيلة ولا سلالة يؤثرها على سواه بغير مآثرة ، ولكنه هو ﴿وَبِالْعَالَمِينَ﴾ (١) ، خلق الناس جميعا ليتعارفوا ويتفاضلوا بالنقوى ؛ فلا فصن بينهم لعربى على أعجمى ولا لقرشى على حبشى إلا بالنقوى .

(١) التكوين ٢٩

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾
[الحجرات: ١٣]

وهو واحد أحد ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾
[الإخلاص: ٣، ٤]

لا يأخذ إنساناً بدب إنسان ، ولا يحاسب أمة خلقت بحريّة أمة سبقت ، ولا يدين العالم كله بغير مدير

﴿وَلَا تَرْرُ وَازِرَةٌ وَزِرَ أُخْرَىٰ﴾
[فاطر: ١٨]

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾
[البقرة: ١٣٤]

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾
[الأنعام: ١٥]



وديه ديس الرحمة والعدل ، نفتتح كل سورة من كتابه ، «بسم الله الرحمن الرحيم»

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾
[فصلت: ٤٦]

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾
[الحديد: ٣]

﴿وَمَعَ رَبِّنا كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾
[الأعراف: ٨٩]

﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾
[يس: ٧٩]

وللبحث في مقاربات الأديان أن يقول ما يشاء عن هذا الإله الواحد ، لأحد ، رب العالمين ، ورب المشركين والمغربين ، إلا أن يقول إنه نسخة مسمدة من عقائد عرب الجاهلية ، أو عقائد الفرق الكثرانية أنتى حالطت عقائد الجاهليين على المحو الذي

وصفه حورح سبيل في مقدمته لترجمة القرآن الكريم ؛ فإن العقيدة الإلهية التي تستمد من تراث الجاهليين من تكون بها صيغة أغلب من صيغة العصبية ، ولا مفرجة أظهر من مفرج الأحساب ، وس تحلو من لومة انشرك ، ولا من عقابيل العبادات التي امتلأت بالحنائت وحلت فيها الرقي والنعاويد محل الشعثر والصلوات

ومعجزة المعجرات أن الإسلام لم يكن كذلك ، من كان يقبض ذلك في صراحة حاسمة جازمة لا تأدل بالهودة ولا بالمساومة ؛ فما من حلة كانت أنعص إليه من حلة العصبية الخاهلية والمفاحرة الخاهلية والتناحر الخاهلي على فوارق الأساب والأحزاب .

ومن صميم بلاد العصبية حرج الدين الذي ينكر العصبية ، ومن خوف بلاد القبائل والعشائر حرج الدين الذي يدعو إلى إله واحد رب العالمين ورب المشرق والمغرب ، ورب الأمم الإسانية جميعًا ، نغير فارق بينهم غير فارق الصلاح والإيمان

على أن الباحثين الذين يصططعون منحت العلم من علماء المقارنة بين الأديان في العرب يطلقون دعوتهم على الإسلام سماعًا فيما يظهر من مقرر نهم أو من مكرراتهم التقيدية التي لا يبدو منها أنهم كنهوا عقولهم حدًا وحقًا أن سم إلمة واحدة بهذا الدين في جملة أو تعصين .

هي كتب من أحدث الكتب عن أدين سى الإنسان ألهه أستاذ للعسفة هي جامعة كبيرة ، يقول المؤلف المتخصص لهذه الدراسات بعد الإشارة إلى السيف والعنف والاقتباس من العصرية والصائبة والمجوسية .

«إن محمدًا أسبع على الله - ربه - ثوبًا من خلق العربى والشخصية العربية» (1)

ويقول المؤلف :

إن « حقيقة » التي قررناها تتحلى للباحث كلما تقدم في دراسة هذا الدين العربى وهذه الشخصية الإلهية العربية » .

بهذا البعت التقيدى بعث المؤلف إله الإسلام بعد أن تقدم في دراسته على حد قوله - فماد كان عساه فائلاً لو أنه لم يسمع باسم الإسلام إلا على لإشاعة من بعد؟!

(1) (Man a Religions) by Professor "John B. Noss Franklin and Marshal College

لعله لم يكن بحاجة إلى التقدم وراء البسملة في سورة الفاتحة ؛ ليعلم أن المسلم يدين برب العالمين وأنه يصف ربه بالرحمة مرتين عند الابتداء بكل سورة من سور كتابه ! ولعله كان يحسب بالمقارنة حداً وحقاً ، لو أنه قنع بهذه الصفة من صفات إله الإسلام وقارن بينها وبين الصفات التي يحتارها غير المسلمين ؛ فلا يدكرون إله مُفْتَنَحْ دعوتهم بعير صفة القوة والحسوت Almighty !؟

فإله رب العالمين ، ملك يوم الدين ، لم يكن نسخة محرفة من صورة إله في عقيدة من العقائد الكتابية ، بل كان هو الأصل الذي يُثَوَّب إليه من يحرف عن العقيدة في الإله كأكمل ما كانت عليه ، وكأكمل ما يسعى أن يكون

ومن ثم كانت هذه العقيدة الإلهية في الإسلام مصححة متممة لكل عقيدة سبقتها في مذاهب الديانات أو مذاهب الفلسفة ومباحث الربوبية .

وهي عقيدة كاملة صححت وثمرت عقيدة الهدى في الكارما والبرقانا ؛ لأنها عقيدة في حواء أو فناء مسبب الذات لا تحارب بينه وبين أساء الحياة .

وهي عقيدة كاملة صححت وثمرت عقيدة المعلم الأول بين فلاسفة العرب الأقدمين ؛ لأنه كان على خطأ في فهم التحريد ولتبريه ، ساقه هذا الخطأ إلى القول بكمال مطلق كالعدم ، المطلق في التحرد من العمل ، والتجرد من الإرادة ، والتجرد من الروح .

ودين يصحح العقائد الإلهية ، ويتممها فيما سبقه من ديانات الأمم وحضاراتها ومذاهب فلاسفتها - تراه من أين أتى ، ومن أي رسول كان مبعثه ومُدَّعاه ؟

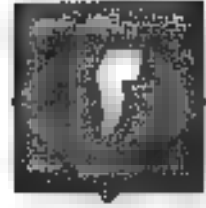
من صحراء العرب

ومن الرسول الأمامي بين الرسل اسعوثين بالكتب والعبادات !

إن لم يكن هذا وحياً من الله فكيف يكون الوحي من الله ؟!

ليكن كيف كان في أحلام المؤمنين بالوحي الإلهي حيث كان ، وما يهتدي رحل «أسي» في أكفاف الصحراء إلى إيمان أكمل من كل إيمان تقدم إلا أن يكون ذلك وحياً من الله ، وإيه لحجراً عسى البصائر والعقول أن تذكر الوحي على هذه المعبرة العليا ؛ لأنه لا يصبق عينيها من صورة من صور الخنفس أو الحيات

النسوة



نمت فى الإسلام فكره النسوة كما نمت فيها الفكره الإلهية ، فبرث هذه الرسالة السماوية من شوائبها العليظة التى لصقت بها فى عقائد الأقدمين من أتباع الديانات الوثنية وانديايات الكتابية ، وحلصت من بقايا السحر والكهانة كما خلصت من شعيرة الإيهام الخيالى وتذوات الحبوب التى كانوا يسمونه قديماً بالحبون المقدس ، لاعتقادهم أن المصابين به يحتضنون هدياتهم بوحى الأرواح العنوية التى تستولى عليهم ، ونمت نسوة الإسلام عدها الأوفى حين خلصت من دعوى الخوارق والمعيبات ، وهى آية النسوة الكبرى هى عرف الأقدمين .

ولم تكن براءة النسوة من هذه الشوائب عرصاً مسروقاً فى أطواء العقيدة بغير قصد ولا بنية ، بل كان وصف النسوة على هذه الصفة المطهرة مربية مكسوة على المسم يعلمها من نصوص كتابه ، ويؤمن بها إيمانه برسالة فيه

فما النسوة بقول ساحر ولا يصح الساحرون - وما السى بكاهن ولا محبون .

﴿ وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون ﴾ (١) كذبك سلكه فى قلوب المجرمين (٢) لا يؤمنون به وقد خلت منة الأزلين (٣) ولو فتحا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون (٤) لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل بخر قوم مسحورون (٥) ﴿ [الحجر ١١ ١٥]

فليست الخوارق بما يعنى السى فى دعوة الكاهن المقبوب . إنه ليرعمها إذن صرناً من السحر أو السكر ، ولو فتح له الأسىء باباً من السماء^١

ولقد جاء الخوارق ضائعة نسي الإسلام فصدقها الناس وأبى لهم أن يصدقوها أو يفهموها على غير حقيقتها ، ولو أنه مكنت عنها لحسبوها له معجزة من المعجزات لم يتحقق مثنها من قبل لأحد من المرسلين

ما ب به إبراهيم ، وانكسفت الشمس ساعة دمه ، وتصايح المسلمون حول

القمر إنها لآية من آيات الله أن تكسف الشمس بموت ابن محمد ، عليه السلام وكسوف الشمس يومئذ حشر من أحبار الغيث الثوات ، أيده حساب الفلكيين في العهد الأخير ، فهو كال - صلوات الله عليه - رسولاً من الرسل الذين يتصيدون الخوارق أو يسكرونها لأنهم لا يستطيعون أن يدعوها لما كلمته هذه الخارقة إلا أن يسكت عنها فلا يدعيها ولا يسكرها ، ولكنه لم ينس في ساعة حربه أمانة الهداية للمؤمنين بدينه ، وبأدركهم لساعتها مدكر لهم بآيات الله « وإن الشمس والقمر آيتان له لا تخضعان لموت أحد ولا لحياته ... »

أما بحسب أن السورة تعظم بكرامة قط أكرم لها من التوكيد بعد التوكيد في القرآن الكريم بتمحيص هذه الرسالة السماوية لهداية الصمائر والعقول ، غير مشروطة بما غير في الأوهام من قيام السورة كلها على دعوى الخوارق والإباء بالمعيبات :

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴾ [يونس : ٢٠]

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبُ لَا تَنْكُرْتُمْ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : ٨٨]

﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام : ٥٠]

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام : ٥٦]

بهذه العبرة الرشيدة عن السورة يهرق الإسلام بين طريقين شاسعتين في تاريخ الأدب طريق موعلة في المدم تنحدر إلى مهد التواتر الوثنية حيث تشتبك العادة بالسحر والكهانة ، ثم تتقدم في خطوات وثيدة يستقى فيها الحس باليقظة ، وتختلط فيها الخرافة بالإلهام الصادق والموعظة الحسنة .

وطريق تليها مرعبة في المستقبل يفتتحها صاحب السورة الأحيرة ، فيعلن أنه يقف السحر والكهانة ، ويتردى نقلاسة الجحور أو حور القداسة ، ويروض بصيرة

الإنسان على قبول الهدية وإن لم نروصها له روعة الخوارق ودهشة العيب مجهول ،
لأنه يروص البصيرة الإنسانية على أن تظرو ونصبر ، ولا يستوى الأعمى والبصير
ومن تأمل هذا الفارق بين الطريقتين الشاسعتين في تاريخ الأديان لا حرم يطين
التأمل ، فلا يرى عجباً أن تكون هذه السوء حاتم السنوات ، إذ كان الإصلاح بعدها
موطاً بدعوات يستطيعها من لا يدعى حارقة تفوق طاقة الإنسان ، ولا يهونُ العقولُ
بالكشف عن غيب من العيوب لا يدره الإنسان .



وأبعد شيء عن البحث الأمين أن تعقد المقارنة بين هذه السوء الإسلامية وسوءات
أخرى تقدمتها غيرهم الباحث أنها سحرة محرفة منها أو مقولة عنها ، فإن الفارق بين
سوءة تقوم ححتها الكبرى على هداية العقل والصميم وسوءات تقوم ححتها الكبرى
على العرائب والأعاجيب - فهو من الفوارق البينة التي لا يمتري فيها سحطان منصفان ،
ودع عتب الفارق بين سوءة تدعو إلى رب العالمين وسوءة تدعو إلى رب سلالة أو رب
قبيلة وربما عسرى الخطأ مقياساً من مقاييس البحث فتساوت لديه الريادة والنقص
وتعدل أمامه الراجح والمرحوح فأب أن يرجح النقص على الريادة فذلك هو الخطأ
الذي لا يجمع ، لا من زبغ في الصيع أو عماد يتعمى عمداً عن الشمس في رائعة النهار
والواقع أن السوء الإسلامية جاءت مصححة متممة لكل ما تقدمها من فكرة
عن السوء كما كانت عقيدة الإسلام الإلهية مصححة متممة لكل ما تقدمها من
عقائد بني الإنسان في الإله

ومن عجيب الاستقصاء أن القرآن الكريم قد أحصى السوءات العابرة بأنواعها
فلم يدع منها نوعاً واحداً يعرفه اليوم أصحاب المقارنات بين الأديان ، ومن تدك
الأنواع سوءة السحر وسوءة الرؤيا والأحلام وسوءة الكهانة وسوءة الخدب أو الحنون
المقدس وسوءة السحيم وطوالع الأفلاك ، وكلها مما يدعيه المنتهشون ويسعون معه العجم
بالعيب والقدرة على تسخير نواويس الطبيعة ولكنها على اتفاقها في هذه الدعوة
تختلف بمصادرها وبظرة الناس إليها أيما اختلاف

فسوءة السحر يحلب عليها أنها موكنة بالأرواح الخبيثة تسحرها للاطلاع على

لمجهول أو السيطرة على الحوادث والأشياء ، وبسوء الكهانة يعلب عليها أنها موكنة بالآرباب لاتطيع الكاهن ولكنها تلبى دعواته وصلواته وتفتح بها معانق لمجهول في يقطنته أو ممامه وترشده بالعلامات ولأحلام ولا تلبى سائر الدعوات والصلوات ولكنهما - بسوء السحر وبسوء الكهانة - تحالفاً بسوء الخدب والخبون المقدس ، لأن الساحر والكاهن بديرين بما يطبدان ويريدان قصد ما يطلبانه بالعرائم والصلوات ، ولكن المصاب بالخدب أو الخنون المقدس مغلوب على أمره يطلق لسانه بالعبارات السهمة وهو لا يعنيه ولعله لا يعيها ، ويكثر من الأثم التي تشع فيها بسوء الخدب أن يكون مع المخدوب مفسر يدعى العلم معرى كلامه ولحن رموزه وإشاراته ، وقد كانوا في اليونان يسمون المخدوب «مانتى» Manti ويسمرون للمفسر «بروفيت» Prophet أى للتكلم بالنبية عن غيره ، ومن هذه الكلمة نقل الأوروبيون كلمة النبوة بجميع معانيها ، وقلمما يتمم الكهنة والمخدوبون إلا أن يكون الكاهن مسؤولياً للتفسير والتعبير عن مقاصد المخدوب ومصممين رموزه وإشاراته . ويحدث في كثير الأحيان أن يحتلما ويتارعا لأههما محتلمان بوظيفتهما الاجتماعية محتلمان بطبيعة الشاة والنبئة والمخدوب نائر لا يتقيد بالرسم والأوصاف المصطلح عليها ، والكاهن محافظ يتلقى علمه الموروث في كثير الأحيان من آبائه وأجداده ، وتتوقف الكهانة على النبئة التي نشأ فيها الهياكل والصوامع المقصودة في الأرحاء القريبة والبعيدة ، ولا يتوقف الخدب على هذه النبئة لأنه قد يعترى صاحبه في البرية كما يعترى في الحاضر المقصود من أطراف البلاد

والمقارنة بين النبوة الإسلامية وبين السوءات التي شاعت في تاريخ العبريين تعبيرا عن تعميم المقارنة في عامة الديانات التي سبقت ظهور الإسلام ؛ لأن العبريين قد أمرو بهذه السوءات جميعا ويسهم ظهرت الديانة الموسوية التي كانت أولى الديانات الكتابية ومرجع لمقارنة في مسائل النبوة وشعائر العقيدة التي تدور عليها المقارنة بين عبادات أهل الكتاب .

وقد عرفت قبائل العبريين بسوءات السحر والكهانة والتنجيم كما عرفت للشعوب البدائية وابتكرت منها ما ابتكرت على سمة الشعوب كافة ، واقتبست منها ما اقتبست بعد اتصالها بحجراتها في المقام من أهل المادية أو أهل الحاصرة ولكنها على خلاف الشائع بين المقلدين من الكتاب العبريين قد تعلمت النبوة لإلهية بلفظها ومعناها من شعوب العرب ولم تكن لهذه الكلمة عند العبريين لفظة تؤذيها

فمن وفودها على أرض كنعان ومحاورتهم للعرب المقيمين في أرض مدس فكانوا يسمون السى بالرائى أو الناظر أو رحل الله ولم يطلقوا عليه اسم السى إلا بعد معرفتهم بأربعة من أسياء العرب المذكورين في التوراة ، وهم ملكى صادق وأيوب وبلعام وشعيب الذى يسمونه «يشرون» معدم موسى الكليم ، ويرجح بعضهم أنه الخضر عليه السلام لدمشابهة بين لفظ يشرون وخشرون وحضر فى محارح الحروف ، ولما ورد من أخبار الكليم مع الخضر عليهما السلام فى تفسير القرآن الكريم

ومن علماء الأديان الغربيين الذين ذهبوا إلى اقتباس العبريين كلمة النبوة من العرب الأستاذ هولشر Holscher والأسناد شميدث Schmidt اللذان يرجحان أن الكلمة دخلت فى اللغة العربية بعد وفود النجوم على فلسطين إلا أن الأمر عسى عن الحبط فيه بالظنون مع المستشرقين ؛ من يفقه منهم اللغة العربية ومن لا يفقه منها غير الأشباح والخيالات ، فإن وفرة الكلمات التى لاتلتصق بمعنى النبوة فى اللغة العربية كالعرفاة ، والكهانة والعبادة ، والرحر ، والرؤية ، بعضها عن اتحاد كلمة واحدة للرائى واللى ، وتاريخ السور العربية التى وردت فى التوراة سابق لاتحاد العبريين كلمة السى بدلا من كلمة الرانى والناظر ، وتلمذة موسى نسي «مدير» مذكورة فى التوراة قبل سائر السور الإسرائيلية ، وموسى الكليم ولا ريب رائد النبوة الكبرى بين بني إسرائيل



والمطعم على الكتب الماثورة بين بني إسرائيل يتبين منها أنهم آمنوا بهذه السور جميعا ، وأنهم بعد ارتقائهم إلى الإيمان بالنبوة الإلهية ما زالوا يحفظون بين مطالب السحر والتنجيم ومطالب الهداية ويحفظون الاطلاع على المعينات امتحانا لصديق السى فى دعواه أصدق وألزم من كل امتحان ، ولم يرتفع بأكثر أسبائهم ورسولهم عن مطلب الانحياز بالكشف عن لغيبات والاشتغال فى التنجيم

ففى أحد صموئيل أنهم كانوا يقصدونه بيدلهم على مكان الماشية الصائفة ويقصدونه أحمره على ردها «أحد معك واحدا من العلماء وقم اذهب فتش عن الأثر فقال شاول للفلام فمادا يقدم للرحل ؟ لأن الخضر قد بعد من أوعيتا وليس من هدية يقدمها للرحل الله فمادا معك ؟ فماد العلام يقوب ؟ هو د يوجد بيدي ربع شافل حصة»

ويؤخذ من النبوءات التي نسبوها إلى النبي يعقوب حد يسى إسرئيل أنهم كانوا يعملون عليه في صناعة التحجيم فإن النبوءات المقررة بأسماء أبناء يعقوب تشير إلى أبراج السماء وما يسب إليها من صواع ، ومن أمثلتها عن شمعون ولاوى أنهما ، «أحوان سيوفهما آلات ظلم في مجلسهما لا تدخل نفسي لأيهما في عضبهما قتلا إسائا وفي رضائهما عرقبا ثورا . . .» .

وهذه إشارة إلى برج التوءمين وهو برج إله الحرب «رحال» عند البابليين . وبصورون أحد السوءمين وفي يده حنجر وبصورون أحاه وفي يده منحل وتشير عرقبة الثور إلى برج الثور الذي يتعقه لتوءمان

ومن الأمثلة في هذه النبوءات المنسوبة إلى يعقوب مثل يهود «جرو أسد حث وربص كأسد وليوة لا يزول قصيب من يهودا ومشترع من بين رجليه حتى يأنى شيلون وله يكون خصوع شعوب»

وهذه إشارة إلى برج الأسد ، وهو عند البابليين برحان يسدو أمام أحدهما برج يشير إلى علامة الملك الذي تخضع له الملوك^(١)

وتجربى النبوءات عن سائر الأسماء - اثني عشر اسما - كل اسم منها يوافق برحا من أبراج السماء على مثال ما قدمناه .

وقد كثر عدد الأسباب في قسائل نبي إسرائيل كثره يصهم منها أنهم كانوا في أزمستهم المتعاقبة يشبهون في العصور الحديثة أصحاب الأدكار ودراويش الطرق الصوفية ؛ لأنهم جاؤوا المكث في بعض العهود واضطجعوا من الرياضة في جماعاتهم ما يضطعه هؤلاء الدراويش من التوسل إلى حالة الجذب تارة تعذيب الحسد ، وتارة بالامتاع إلى آلات الطرب

حاء في كتاب صموئيل الأول .

أن شاول أرسل لأحد داود رسلا «مرأو جماعة لأنبياء بتسألون وشاول واقف مبهم رئيسا عليهم ، فهبط روح الله على رسل شاول فتسألوا هم أيضا وأرسل غيرهم فتنبأ هؤلاء . فتخلع هو أيضا ثيابه وتسا هو أيضا أمام صموئيل وانتزع عاريا ذلك النهار كله وكل الليل» .

The Oracles of Jacob, by Eric Burrows. (١)

وجاء في كتاب صموئيل كذلك .

« . أنت تصادف زمرة من الأنبياء نارلين من الأكمة وأمامهم رباب ودف وبان
وعود وهم يتساون ، فيحل عليهم روح الرب فتسا معهم وتتحول إلى رجل آخر »
وكانت السوة صناعة وراثية يتلقاها الأبناء من الآباء كما جاء في سفر اندوك
الثاني « إذ قال بنو الأنبياء لا ليشع هو ذا الموضع الذي نحن مقيمون فيه أمامك
قد ضاق علينا فلنذهب إلى الأردن »

وكانت لهم خدمة تلحق بالحيش في بعض المواقع كما جاء في سفر الأيم
الأولى حيث قيل إن داود ورؤساء الجيش « أفروو للخدمة بنى أساف وغيرهم من
المتبئين بالعبدان والرباب والصنوح »



وهؤلاء المئات من المحسوبين على السوة نشأ بين قبائل إسرائيل وقر هدا لا يصر
القوم على تكاليمها المرهقة ، لا لمنفعة يتطرونها من مرة للتبئين الذين يثبت بهم
صدقهم ، وليست هذه الممعة إلا الاعتماد حيا بعد حين على بعض استئب في
الكشف عن الحبيب والإمداد بالكوارث المتوقعة ، وأهم ما كان يهمهم من هذه الكوارث
أن يحدروا عصب « يهوا » لأنهم حاربوا أنه أقدر على البقعة من سائر الأرباب

وحدث ما لابد أن يحدث في هذه الحالة من الإسفاف بالكشف الروحي تسجيرو له
في المطالب اليومية على حسب الحاجة إليه في حية فندلا من أن يكون الكشف
الروحي لحظة من لحاب الصفاء ترتفع فيها ححب الهوى والصلالة عن البصيرة فتدرك ما
لا تدركه في عامة أوقاتها . أصبح هذا الكشف صناعة ملازمة لكن من يدعى السوة
نحق أو بعير حق ، ووحب على السبي في عرفهم أن يكون مستعدا بكراماته ومعجراته
كما أرادها أو أريدت منه . وروى القوم من أساء هذا الاستعداد ما ينسبه لاستعداد
للمساراة بين فرق الرياضة من الطرفين المتقابلين ، وقد ثبتت لهم علة أساء يهر على
أنبياء البعل على أثر مساراة من هذه المماريات بينهم في النسو والإندار بالأحدر

جاء في كتاب الملوك الأول

أن « ييرابل » امرأة أحاب ملك إسرائيل قتلت مئات من أنبياء « يهوا » فلم ينج
منهم غير حمسين حناهم أحد الورراء المخلصين للدين ثم ظهر للسبي « إيليا » متحديا
للملك فاندلا كما جاء في الإصحاح الثامن عشر من الكتاب المذكور

« ولما رأى أحاب إيليا قال له أحاب أنت هو مكدر إسرائيل؟ فقال سم أكثر إسرائيل بل أنت وبيت أبيك تترككم وصايا الرب وبسيرك وراء السعيم فالآن أرسن واجمع إلي كل إسرائيل إلى جبل الكرمل وأسياء البعل أربع المئة والخمسين وأسياء السواري أربع امثة الذين يأكلون على مائدة ييرابل فأرسل أحاب إلى جميع سبي إسرائيل وجميع الأسياء إلى جبل الكرمل فتقدم إيليا إلى جميع الشعب وقال حتى تعرحون من المرقتين؛ إن كان الرب هو الله فانسعوه، وإن كان البعل فانسعوه فلم يحبه الشعب بكلمة ثم قال إيليا للشعب أنا بقيت نبيا للرب وحدي وأسياء البعل أربعمئة وحمسون رجلا، فلبعظوا ثورين فبحثروا لأنفسهم ثورا واحدا ويقطعوه ويضعوه على الخطب، ولكن لا يصنعون بارا وأنا أقرب الثور الآخر وأحعه على الخطب، ولكن لا أضع بارا، ثم تدعون باسم آلهتكم وأنا أدعو باسم الرب، وإله الذي بحيت بار فهو الله فأحاب جميع الشعب وقالوا الكلام حسن فقال إيليا لأبياء البعل اختاروا لأنفسكم ثورا واحدا وقرروا أولا لأنكم أنتم الأكثر وادعوا باسم آلهتكم، ولكن لا تصنعوا بارا فأحدوا الثور الذي أعطى لهم وقربوه ودعوا باسم البعل من الصباح إلى الظهر قائلين يا بعل أجبنا فلم يكن صوت ولا مجيب وكانوا يرقعون حول المذبح الذي عمل وعند الظهر سحر بهم إيليا وقال ادعوا بصوت عال لأنه إله لعله مستغرق أو في حلوة أو في سهر أو لعله بائس فينتبه فصرخوا بصوت عال وتقطعوا حسب عادتهم بالسيوف والرمح حتى سال منهم الدم ولما جاء الظهر وتساءوا إلى حين إصعاد التقدمة ولم يكن صوت ولا مجيب ولا شئ، قال إيليا إلى جميع الشعب تقدموا إلي فتقدم جميع الشعب إليه فرم مذبح الرب المتهدم ثم أحد إيليا اثني عشر حجرا بعدد أسباط سبي يعقوب الذي كان كلام الرب إليه، قائلا إسرائيل يكون اسمك، وسى الحجارة مذبحا باسم الرب، وعمل فتاة حول المذبح تسع كبيلين من السدر ثم رتب للخطب وقطع الثور ووضعها على الخطب وقال امشوا أربع حرات ماء وصبيوا على محرقة وعلى الخطب. ثم قال ثنوا. فثنوا، وقال نشوا فثنوا فحسرو الماء حول المذبح وامتلاؤا الفساء أيضا ماء وكان عند إصعاد التقدمة أن إيليا النبي تقدم وقال أبها الرب إله إبراهيم وإسحاق وإسرائيل ليعلم اليوم أنك أنت الله في إسرائيل وأنى أنا عندك وبأمرك قد فعلت كل هذه الأمور سبحسني يا رب سبحسني ليعلم هذا

الشعب أنت أنت الرب الإله وأنت أنت حولت قلوبهم رجوعاً فسقطت نار الرب وأكلت المحرقة والخطيئة والحجارة والنراب ولحست المياه التي في القضاة فيما رأى جميع الشعب ذلك سقطوا على وجوههم وقالوا الرب هو الله الرب هو الله فقال لهم إيليا أمسكو أنبياء البعل ولا يصت منهم رجل . فأمسكهم فزل بهم يلب إلى نهر قيسون ودبحهم هناك وقال إيليا لآخاب اصعد واشرب لأنه حسن دوى مطر فصعد آحاب لياكل ويشرب ، وأما إيليا فصعد إلى رأس الكرمل وحر إلى الأرض وحسن وجهه بين ركبته وقال لعلامة : اصعد نطلع بحو البحر فصعد وتطلع وقال ليس شيء . فقال ارجع سبع مرات وفي المرة السابعة قال هوذا عيمة صغيرة قد كف إنسان صاعد من البحر . فقال اصعد قل لآحاب اشدد زابل لثلاً يبعثك المطر وكان من هنأ إلى هنا أن السماء اسودت من العيم والريح وكان مطر عظيم فركب آحاب ومضى إلى يسرعين وكانت يد الرب على يلبا فشدد حقوبه وركض أمام آحاب حتى نجى إلى بذر عيل .



وقد صاحبت القوم هذه الفكرة عن السوء الحاصرة عند الطلب صد أوائل عهودهم إلى أواخر عهدهم بالأسياء قبل ظهور السيد المسيح . فلم تكن السوء عند القوم في هذه العهود كافة إلا صناعة مرادفة لصناعة التعجيم أو لصناعة المراسمة المسدرة بالكوارث المتوقعة . فهي إما استطلاع للخبايا أو صيحة هرع من بقمة «يهوا» الذي تعودوا أن يعاقبهم بالمصائب الخسية كما احرفوا عن سنته ، وأشركوا بعبادته رب آخر من أرباب الشعوب التي يمارعونها ونسارعهم على المرعى وانقم .

وما يكون لنقوم أن يفهموا من السوء معنى غير معناه هذا ؛ لأنهم قد نعلموا من أحبارهم وكية أسفارهم أن أنبياءهم قد حلوا في محل العرافين العائمين والسحرة والرقاة الذين يبقون أقوال الآلهة في غير بنى إسرائيل فهوؤلاء جميعاً لا يصدقون ؛ لأنهم يبقون المعرفة من أرباب غير «يهوا» رب إسرائيل ، وأما شعب إسرائيل فقد قيل لهم « فيقيم لك الرب إلهك نبيا من وسطك من بحونك مثلى له تسمعون حسب كل ما طلست من الرب إلهك في حوريب يوم الاجتماع قذلاً لا أعود أسمع صوت الرب إلهي ولا أرى هذه النار العظيمة أيضاً لثلاً

أموت . قال لى الرب قد أحسوا فيما تكلمو . أقبل لهم سب من وسط إحتوتهم
 مثلك وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به ، ويكون أن الإنسان
 الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطلبه . وأما السبب الذى يطعنى
 فيتكم باسمى كلاما لم أوصه أن يتكلم به ، أو الذى يتكلم باسم الهة أخرى
 فعموت ذلك السبب . وإن قلت فى قلبك كيف تعرف الكلام الذى يتكلم به الرب
 بما تكلم به السبب باسم الرب ولم يحدث ولم يصرف فهو الكلام الذى سم يتكلم به
 الرب بل بطعنان تكلم به السبب فلا تحف منه - ١٨ سفر الشبة .



وهكذا وقر هى أحلاد الشعب من أحماره وعلمائه إلى عامة جهلائه أن الكشف
 عن الغيب مرادف لمعنى السوء ، وأن وقوع الخير هو امتحان الصدق الوحيد الذى
 يتمتع به الأنبياء الصادقون فيما يحدثون به عن الإله ، وأن الفرق بين أنبيائه وبين
 السحرة والعرافين والرفاه فى الأمم لأخرى إنما هو فرق بين أناس يحسبون الكشف
 عن الغيب ، وأناس يحفظون فى هذه الصناعة ، لأنهم يقولون أنبياءهم عن الله
 كاذبة لا تستحق العبادة

وإنه لمن المتفق عليه بين أتباع الديانات الكتابية أن موسى إسرائيل لم يعرفه السوء
 على مثال آدم وأكمل من سوء موسى الكلام ومع هذا كان أرفع ما تصوروه من معنى
 وحى الله إليه عليه السلام أنه كان يخاطبه فما إلى قم وعيانا يعبر حجاب ، وفى
 ذلك يقول كاتب الإصحاح الثانى عشر من سفر الخروج إن الله «نزل فى عمود
 سحب ووقف فى باب الخيمة ودعا هارون ومريم فخرج كلاهما فقال اسمعا
 كلامى إن كان منكم للرب بالرؤيا استعلم له وفى الحلم أكلمه . وأما عبدى موسى
 فليس هكذا . بل هو آمن فى كل شيء . فما إلى قم وعيانا أكلم معه لا بالألفاظ

وكان اعتقادهم أن موسى عليه السلام يسمع كلام الرب فما إلى قم وعيانا يعبر
 حجاب فى كل قضية من قصايا الشعب يعرضونها عليه ، حتى علمه سبب مدبر أن
 بكل القصص إلى أناس من دوى ثقته وخاصة قومه يلقيهم أحكام الشريعة ويوليهم
 أمر القصايا مكتتب بما يعص علىهم من كسر الفصايا . وفى ذلك يقول كاتب
 الإصحاح الثانى عشر من سفر الخروج :

وقد حدث في العد أن موسى جلس ليخفى لشعب فوق الشعب عند موسى من الصباح إلى مساء ، فبدأ رأى حمو موسى كل ما هو صانع للشعب قال ما هذا الأمر الذي أنت صانع بشعب ؟ ما بالك حالك وحدك وجميع الشعب واقف عندك من الصباح إلى مساء ؟ فقال موسى حميه إن الشعب يأتي إلى ليسأل الله ، إذا كان لهم دعوى يأتون إلى فأخفى بين الرجل وصاحبه وأعرفهم فرائض الله وشرايعه فقد حمو موسى به ليس حيداً هذا الأمر الذي أنت صانع ، إنت نكل أنت وهذا الشعب الذي معك حميف ! لأن الأمر أعظم منك لا تستطيع أن تصعه وحدك ، الآن اسمع لصوتي فأصحت ، فيمكن الله معك ، كن أنت لشعب أمام الله وقدم أنت الدعوى إلى الله وعلمهم الفرائض والشرايع وعرفهم الطريق الذي يسلكونه والعمل الذي يعملونه ، وأنت تنظر من جميع الشعب قوى قدرة حائضين الله أماء معصيين الرشوة وتقيمهم عبيهم رؤساء ألوف ورؤساء مئات ورؤساء حماسين ورؤساء عشرات ، ويفضون للشعب كل حين ويكون أن كل الدعوى الكبيرة يحيتون بها إليك وكل الدعوى الصغيرة يقصون هم فيها وحفف عن نفسك فهم يحملون معك ١



وبعد نحو ستة قرون من السوء الموسوي انتهى عهد لأسياء في سى إسرائيل ، ولم يتغير معنى السوء عندهم في هذه الفترة الطويلة ، بل انحدر إلى ما دون ذلك بكثير ؛ لأن موسى الكليم كان يحاطب الشعب لتنفيذ الشريعة ، وينقل إلى الشعب تحدير الله بخصوص أخطائه ، وأما الأسياء بعده فقد نكاثرو بدشات ليحاطبوا العيب فيهم دون ذلك من الحبايا اليومية ، أو ليتحدوا العلامات والألعار بدير لشعب بالحسائر الخسية التي نصيبه من حراء الخروح على شريعة موسى

ريتمحص تاريخ السوء من سى إسرائيل إذن في كلمات معلودت إيهم قد استعاروا فكرة السوء من حيراهم العرب الذين طهر فيهم ملك صادق على عهد إبراهيم الخليل ، وطهر فيهم بعد ذلك أيوب وبلعام وشعيب ، ففهموا من السوء معنى غير معنى للرؤية والعرافة والسحر والسجيم ، وأنهم ما زالوا يعلمون من حيراهم إلى أن أتى موسى الكليم الذي سلمه على حميه سى مدين فيل جهره بدعونه ، وبعد أن جهر بهذه الدعوة في مصر وحرخ بقومه منها إلى أرض كنعان ، ولكمهم تحذوه وسمموها فقصوا منها ولم يريدوها ، وما كان لهم من حيلة في

ريادتها ؛ لأنها - كما فهموها - غير قاسية لبرودة والارتقاء ، ولا مباح من تدهورها مع الرمس ، وهي موقوفة على قوم دون سواهم لا يشاركون الأقوام في هداية واحده ولا في جامعته إسمائيه ترتفع بمقاييس الأخلاق والعصائل مع ارتفاع نبي الإنسان

كانت قبائل إسرائيل محصورة في نفسها ، وكانت عبادتها محصورة في حدودها ، وكانت ملتها الفصوى من العبادة أن تسلم في عزلتها مع إلهها الذي حكته واحتكرها ، ولم تطلب من النبوة إلا ما تلتزمه من السلامة في تلك العرة صاعدة موقوفة على استطاع العيب لتحذيرها من الصربات التي توحيها ولا تحشدها من إله غير إلهها

وبعد ستة قرون من أحر رسالة في نبي إسرائيل يستمع العالم إلى صوت من حاسب الحرية العربية يدعو إلى رب العالمين . رب العربي والأعجمي ، ورب الأبيض والأسود ، ورب كل عشيرة وكل قبيلة ، لا يستأثر بقوم ولا يؤثر قوم على قوم ، إلا من ضمن صالحه واتقى حدود الله

صوت نبي ينادي كل من بعث إليه أنه لا يعلم العيب ، ولا يملك حرائر الأرض ، ولا يدفع السوء عن نفسه فصلاً عن قومه ، ولا يعلم أن الخوارق والمعجزات تنفع أحداً لا يستفح بعقله ولا يتفكر فيما يسمع من نبي أو رسول !

صوت نبي يقول للناس إنه إنسان كسائر الناس ، وهو يشير يهدي إلى الحق والرشد ، نذير يحذر من الباطل والصلال .

أي مشابهة بين الصوتين ؟

بل أي اختلاف قط بينهما يحاور هذا الاختلاف ؟

يرثى لمن يقول : إن الصوتين سواء فأما من يقول إن البدء باسم رب العالمين مسحة محرقة من البدء برب القبيلة بين شركائه من أرباب القبائل فإنما هو خطأ حقيق أد يسمى عمراً في أحسن ! لأنه أظهر لدخس من أن يحتاج إلى إطالة بحث أو تعمق في تفكير

ونحنم الكلام على السوء كما نحنم الكلام على العقيدة الإلهية سائلين كيف نبنى لبس الإسلام أن يعرّد بهذه الدعوة وحيداً في تزيح الأديان ؟

الإرادة الإلهية هي الجواب الذي لا معدى عنه لمن يسأل ذلك السؤال .

ومن آمن بالإله فلا معدى له عن إرادة الله في تفسير هذه الظاهرة التي لا تظهر لها في أديان الكتابيين وغير الكتابيين نعم لا معدى له عن إرادة الله ولو وصف الرسول بما شاء من نعاذ الصغيرة وسمو الضمير

الإنسان



الإنسان حيوان مطلق

الإنسان حيوان مدني يانصع

الإنسان حيوان راق

الإنسان روح عبوى سقط إلى الأرض من السماء .



هذه التعريفات أشهر ما اشتهر من التعريفات المحيطة بمعنى الإنسان

أولها - محيط به من جانب مزاياه العقلية .

وثانيها - محيط به من جانب علاقته الاجتماعية

وثالثها - ينظر إلى ترسب الإنسان بين أنواع الأحياء على حسب مذهب التطور

ورابعها - ينظر إلى تعريف الإنسان بهذه الصفة إلى قصة الخطيئة التي وقع فيها

آدم حين أكل من شجرة المعرفة بعوية الشيطان .

وكل هذه التعريفات تحيط بمعنى الإنسان من بعض نواحيه ، وأحرها لا يحيط بمعناه

إلا عند من يؤمن بصفة الخطيئة ويؤمن معها بميراث الخطيئة في سى آدم وحواء

وأما تعريف الإنسان بما وصف به في القرآن الكريم وأحاديث السى عليه السلام

فقد اجتمع جملة واحدة في تعريفين جامين :

الإنسان مخلوق مكلف .

والإنسان مخلوق على صورة الخالق

والإسلام لا يعرف الخطيئة الموروثة ، ولا يعرف السقوط من طبيعة إلى ما دونهما ،

فلا يحاسب أحد بذنب أبيه ولا نوره وارثة ورر أخرى ، وليس مما يدين به المسم أن

يعد النوع الإنسانى ما دون طبيعته ، ولكنه مما يؤمن به أن ارتفاع الإنسان وهبوطه

موطان بالتكليف ، وقوامه الحرية والتسعة فهو بأمانة التكليف قابل بالصعود إلى
فمه الخليفة . وهو بالتكليف قابل للهبوط إلى أسفل سافلين ، وهذه هي الأمانة
التي رفعتة مقاماً فوق مقام الملائكة ، وهبطت به مقاماً إلى رمره الشياطين .

﴿ يَا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ
مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ﴾ [الأحزاب : ٧٢]

﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ﴾ [القيامة : ١٤]



وبهذه الأمانة ارتفع الإنسان مكاناً علياً فوق مكان الملائكة ؛ لأنه قادر على الخير
والشر ، فله فصل على من يصنع الخير لأنه لا يقدر على غيره ولا يعرف سواه .

﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾ [الإسراء : ١]



وبهذه الأمانة هبط الإنسان عروراً وسرفاً إلى عداد الشياطين

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَسْرٍ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ
زُحْرَفَ الْقُرْلِ عُرُورًا ... ﴾ [الأنعام : ١١٢]

﴿ إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾ [الإسراء : ٢٧]



وما من نقيصة من نقائص النفس ، لا تعرف الإنسان من نسل هذه الأمانة - أمانة التكليف -

﴿ لَيْتُوسَ كَفُورٌ ﴾ [هود : ٩]

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : ٢٤]

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جُرُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ
مُوعًا (٢١) ﴾ [المعارج : ١٩ - ٢١]

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف : ٥٤]

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ أَن رَّأَهُ اسْتَعْتَى ﴿٧﴾﴾ [العلق : ٧، ٦]

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لَحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [العاديات : ٦ - ٨]

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر : ٢٠]

﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ [القيامة : ٥]

﴿وَكَانَ لِلْإِنْسَانُ كُفُورًا﴾ [الإسراء : ١٧٠]

﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء : ٢٨]

﴿إِنْ يَجْعَلُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِّن رَّبِّهِمْ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿٢٤﴾﴾ [الحجم : ٢٣ - ٢٤]

فهذا، لإنسان يتردى من أحسن تكوين إلى أسفل صافين ، ولا يزال في الخالين
إنسانا مكلفا قابلا للسهو من نفسه بعد العثرة ، قابلا للتوبة بعد الخطيئة ، محاسبا
بما جنت يده غير محاسب بما حناه سواه .

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٢٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٣٠﴾﴾ [الحجم : ٢٩ ، ٣٠]

﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمَانُهُ عَمَلُهُ﴾ [الإسراء : ١٣]

﴿وَلَا تَرُدُّ وَازِرَةً رِّزْقًا أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام : ٦٤]

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين : ٤ - ٥]

هو مخلوق مكلف

دلت جماع ما يوصف به لإنسان تمهيداً من العجماوات ، وتمييزاً من لأرواح العلوية على السواء .

ولهذا كان في أحسن تقويم .

ولهذا يرتد إلى أسهل ساهلين .

وقوام انتقويم ، لحسن الإيمان وعمل الصالحات ، وسبيل الارتداد إلى أسهل ساهلين مصاوعة الهوى والغرور والسرف وطعنين القوة والعنى ومنع الخير والهلع من البلاء والعجلة مع الصعف والإعراء .

وقصة آدم مثل لما يعرض للإنسان من الخطيئة والنجاة

حقيقته لا تدببه أبداً ولا تدبب أبناءه أبداً ، وبحاجته رهبة بتوبته وما ينتفع به من عدم ربه

﴿ رَعَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ جَاءَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۝١٢٢ ﴾ [طه : ١٢١ ، ١٢٢]

﴿ فَخَلَقْنَا آدَمَ مِنْ رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ لَتَوَّابٌ الرَّحِيمُ ۝٢٧ ﴾ [البقرة : ٢٧]

ومن تمام خواص الإنسانية في عقيدة المسلم أن قابلية التكليف في الإنسان متصلة بقابلية العدم ويسرة الانفعال بقوى الجماد والحيوان في مصالحه وشئون معاشه

﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٢ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾

[العلق : ٣ - ٥]

﴿ رَعَىٰ آدَمُ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْثُوبِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝٣ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ

الْحَكِيمُ ۝٣٢ ﴾ [البقرة : ٣١ ، ٣٢]

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ

وَوَصَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كُلِّ مَمَرٍ مَّمْرًا فَخَلَقْنَا تَفْصِيلاً ۝٧ ﴾ [الإسراء : ٧٠]

﴿ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ ﴾ [الحج : ٦٥]

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [لقمان ٢٠]

هذا فعلم الذي أسعده الإنسان هو مصاد التكليف وهو أمام التبعة التي بهض بها هذا المخلوق المفصل على كثير من المخلوقات ، لأمين على نفسه وعليها بما وهب له الله من قدرة ومن ذرية

فإذا قامب الكهارة على الخطيئة الموروثة في المسيحية ، فالأمانة في الإسلام هي التي يقوم عليها الخلاص ويرجع إليها التكليف وتكتب عليها سعة في حياته غير مسئول عما سلف من قبله سعة يجعلها كما كان له من قدرة عليها وعلى سائر مخلوقات الله التي في ولايته

ولابد أن تعرض لنا مسألة القدر مع مسألة التكليف ومسألة القدر . كما لا يحصى . هي معضلة المعضلات في جميع الأديان ومذاهب حكمة والفلسفة ؛ لأنها هي مسألة الحرية الإنسانية والإرادة المختارة ، وهي في الحق مسألة الإنسان الكبرى في علاقته الأبدية بالكون ، فلا نهيه لها إلى آخر الزمان ، ولم تواجها عقيدة عائرة أو حاصرة بأفصل مما واجهها في الإسلام

ونظرة موحدة فيما انتهت إليه العقائد والمذاهب في الأمم العديرة والحاصرة تمهد لوسيلة المقارنة بين مسألة القدر في تلك العقائد والمذاهب جميعا وبين هذه المسألة في الديانة الإسلامية كما سطتها آيات القرآن الكريم

كان اليهود الأقدمون يجعلون للقدر الحكم الذي لا حكم غيره في جميع الموحودات ومنها الآلهة والناس والأحياء والنبات والحيوان ، ولا فكاك من قصة «الكارما» في أدورها التي تتعاقب بين الموحود والفناء إلى غير انتهاء ، ولا اختيار للإنسان في الحالة التي يولد عليها لأنها مقدورة عليه من قبل ميلاده منذ أن الأزل ، ولا تبدل لها إلى أبد الآباد حتى يفصل من دولاب الخلق ، باحتساب الولادة والديار بعالم الفناء أو عالم «البرقاء» المطلق من قيود «الوعى» والسعور بالشقاوة أو السعيم .

وحل الخوس مشكلة القدر بمعقدتهم هي الشوية وانقسام الموحود بين إله النور وإله الظلام ؛ فكل ما علب عليه إله النور فهو خير ، وكل ما غلب عليه إله الظلام فهو شر ، ولا عاصم لإله النور نفسه من علمة الشر عليه في تلك الحرب السحن التي لا تنتهى إلا بنهاية للكون كله تتخط فيها الصور

وأمر اليونان بعلبة العذر على العباد والمعبودين ، وروايتهم عن صرباته ثمته للناس هارثا بهم متحديا لهم يطاردونهم ويتجنى عليهم ويريههم عجزهم عن الفرار من بقمته أو بقمة رسوله «نميس» Nemesis ربة الشر التي تأخذ الحار بذب الحار وتلاحق البعيد بحريرة القريب .

وأمر المصريين الأقدمون بالقدر وبالحرية لإسبانية ، فأقاموا في العالم الآخر محكمة سماوية يقف الميت من يديها ويحاسب على أعماله وتحسب له أو عليه صلوات الكهنة والشعراء .

وأمر الهنود بالصواعق التي تلازم الإنسان بحكم موته تحت نجم من النجوم في عدمهم من نجوم السحود أو نجوم النجوم وحملوا الأيام نجوما تدور معها ولا تخرج هذه الأيام من طائعها ، وحملوا للعقول نجوما تتداولها ولا تعير في محاربتها إلا بما يكون من وساطة المحميين وصحايا أصحاب القرايين .

والديانة الإسرائيلية تؤمن - على ما هو معلوم - باختيار لإله لشعب يؤثره على سائر الشعوب ودربة يؤثرها على سائر الدري ، وأنس يؤثرهم على سائر الناس قبل خروجهم من بطون الأمهات . فورك يعقرب وحق السخط لإلهي بعسو وهما في البطن حينان توءمان ، وأصابت البركة والسخط سيهما إلى أعقاب الأعقاب «ومن أحشائك يهشرق شعبان ، شعب يقوى على شعب وكبير يستعبده صغير .» . ومن يبع القدر عند بني إسرائيل أن يكون نظاما كويبي يحري عليه قصبة له محري النواميس والشرائع الأخلاقية ، بل كان «يهوا» يحري فيه على حكم ثم يندم عليه ويسدله تارة بعد تارة على حسب الحالة التي تطرأ بخير حسان . قال النبي أرميا يتحدث باسم يهوا «لم ازل إلى بيت الفحاري وهناك اسمع كلامي . فزلت إلى بيت الفحاري إذا هو بصنع عملا على الدولاب ففسد النوع الذي كان يصنعه من الطين بيد الفحاري فعاد وعمله وعاء آخر كما حس في عيسى الفحاري أن يصنعه فعاد إلى كلام الرب قائلا : أما أستطيع أن أصنع لكم كهدي بيدى يا بيت إسرائيل ؟ يقول الرب هودا كالصين بين الفحار أنتم كهدي بيدى يا بيت إسرائيل . وتارة نكلم على أمة وعلى مملكة بالقبع والهدم وإهلاك وترجع تلك لأمة التي نكمت عليها عن شرها فأندم على الشر الذي فصدت أن

أصع بها ، وتارة أتكلم على أمه وعلى ممكة بالباء والعرس فتعمل الشر في عيسى
فلا تسمع لصوتي فأسم عيسى الخير الذي قلت إيسى أحسن إليها به»

وقد ذكر في سفر الخروج أن يهوا وصف نفسه فقال

«أنا الرب إلهك إله عبور أعتقد دبوب الأبناء في الأبناء في الحبل الثالث والراح
من مبعضي وأصع إحصاء إلى ألف من محبي وحفظي وصاياي»



ثم جاء المسيحية بعد الإسرائيلية فربطت بين خطيئة آدم وقضاء الموت عليه
وعلى أسائه ، ومن لم يربط بين الخطيئة وقضاء الموت من متأخرين جعل الهلاك
الروحي قضاء محتوما بديلا من موت الجسد وأقدم ما جاء من أقوال الرسل
المسيحيين عن قضاء الموت في الإنسان كلام بولس الرسول من رسالته إلى أهل
روما : فيه في هذه الرسالة يقرر أن الأكل من الشجرة هو أصل الشر في العالم
الإنساني ، كعاقبة الموت الذي نصب الجسد ولا تكون كعاقبة الروح إلا بعداء السيد
المسيح ، وقد عاد بولس إلى مثل الصغار والخرف فقال : «ماذا يقول ؟ أعلل عبد الله
طوبا ؟ حاشا لله لأنه يقول لموسى ارحم من أرحم وأرف من أرف هل ليس
الأمر لمن يشاء أو لمن يسمى ، بل الله الذي يرحم ومن أنت أيها الإنسان حتى
تحدرب الله ؟ أعلل الحجة تقول لحبلها لماذا صعدت هكذا ؟ أليس للمحرف سلطان
عنى الطير أن يصع من كتلة واحدة إباء للكرامة وأحر للهوا ؟ لماذا إن كان الله -
وهو يريد أن يظهر غصه ويبين قوته - احتمل بأناة كثيرة آنية عصب مهياة للهلاك ،
ولكى يبين غنى محده عمل آنية رحمة قد سبق فأعده للمحد .»



وتتباعد آراء العلم الطبيعي والفلسفة النظرية في هذه المسألة كما تتباعد عقائد
الأديان وأقوال المتديس فيها ، وريدة آراء العلماء الطبيعيين إلى أوائل القرن العشرين
أن قوانين المادة تحكم كل شيء في عالم الجسد فهي ضرورات حتمية لا موضع فيها
للحرية الإنسانية إلا أن تجري في محرى تلك القوانين ، ثم حدث في القرن العشرين
نظريات تشكك في هذه الحتمية المفيدة بالنواميس والقوانين يقول بها كبار العلماء

من حصة بيلز بوهر الدنمركي صاحب جائزة نوبل للعلوم سنة ١٩٢٢ وهيرسرح
الأمري صاحب جائزة نوبل للعلوم سنة ١٩٣٢ . والأول يقرر أن الكهارب لا تسبح
فى انتقالها قابوً مطرداً تحرى عليه فى الدرة وهى عىصر المادة ، والثانى يقرر أن
التحرية العدمية لا نأى فى تكرارها بىة واحدة وأن التحارب حىبع نزيد
اللاحتمية ولا تؤيد الحتمية التى اصطلح عليها حمهرة العلماء الطبعيين إلى أوائل
القرن العشرين ، ويرد على هيرسرح علماء آخرون مقوون : إن التحارب تختلف ؛
لأن آلات الصط العدمى لا تحبط حىبع العوامل التى تتكرر فى كل تحرية ، وما
إذا تحفها من وحدة العوامل فى كل تحرية منكرة فالنتيجة لا شك واحدة .

ولا تحصى مذاهب الملاسعة وتهربعاتهم على هذه المذهب فى مسألة القدر
والحرية والحرية والاحتمية واللاحتمية ، إلا أنا سنتصى منها ربة جامعة لمذهب
الواقعيين ومذهب الروحانيين أو المثاليين ؛ فربة مذهب الواقعيين أن الإنسان بفعل
ما يريد ولكه لا يريد ما يريد ، وهم يعون بذلك أن لإرادة تحار ، ولكن هذه
الإرادة نفسها مقيدة بتكوين الإنسان الذى تشترك فيه الورثة وىة الجسم
وصرورات البيئة ، فلا يخلق الإنسان إرادته ، بل توجد فيه هذه الإرادة وتتأ مع
غير اختياره ، فىفعل كما يريد ولكه لا يريد ما يريد .

وربة مذهب الروحانيين أو المثاليين أن الإنسان حسد وروح ، فحسده حاصع
لأحكام المادة كسائر الأحساد ، وروحه طبق محار يحصع لجسده فى أمور ويحصع
هو حسده فى أمور ، وهو المستول إذا انقاد لدواعى حسده ولم يحهد للاتباع بحرته
فى مقاومة تلك الدواعى وموارتها بما يصلحها عند فسادها ويقومها عند عوحاها .



وحىبع هذه المذاهب لا تح مشكلة القدر على الوحه الحاسم الذى تنفق عليه
العقون وترناح إليه الصمائر ، وىس فيها - تنصيلاً لها - عقيدة تفصل عميلة المسم
أو تقترب من حل مسألة القدر لم تقترب منه تلك العقيدة

وقبل أن يحمل أقوال الثقافات فى تفسير آيات القرآن الكريم بعود إلى مشكلة الشر
الذى فسا فى فاتحة هذا الكتاب إنها مشكلة شعورية وليست مسألة عقلية فى
حورها ، ومشكلة القدر هى مشكلة الشر بعينها معاده فى عبارات أخرى ، إذا هى

مشكلة المحاسبه على الشر اندى بفعله الإنسان ويريد أن يعلم مبلغ نصيبه من
التبعة في احتمال حرائه

وبس في الأمر مشكلة عقلية ، لأن العقل لا يستطيع - مع الإيمان بوجود الله -
أن يكر قدرته وحكمته وعدله في إحراء حكمته وقدرته .

والعقل كذلك لا يستطيع أن يعتقد أن الإنسان المكلف والحجر الجامد سواء في
الاحتيار ، ولا يستطيع أن يكر التفاوت بين الناس في الحرية أو التفاوت بين أعمال
الفرد الواحد في الاحتيار على حسب الرغبة والمعرفة .

وإنما تبرز المشكلة عندما نمس الإنسان في شعوره ويحتاج إلى التوفيق بين قدرة
الله وعدله فيما يصيبه من ألم الحراء وعذاب الندم والتبكي

ولا شك عندما في حقيقة واحدة نعتقد أنها تلم شعث الخلاف كثيرا بعد طول
التأمل فيها

تلك الحقيقة أن العدل الإلهي لا تحيط به النظرة الواحدة إلى حالة واحدة ، ولا
مصاص من التعميم والإحاطة بحالات كثيرة قبل استيعاب وحوى العدل في
تصريف الإرادة الإلهية .

إن البقعة السوداء في الصورة الحميلة وصمه مبيح إد، ححسا الصورة ونظرا إلى تلك
البقعة بمنزل عبي ، ولكن هذه البقعة السوداء قد تكون في الصورة كنها لونا من ألوانها
التي لا عى عنها أو التي تصيف إلى جمال الصورة ولا يتحقق لها جمال غيرها

ونحن في حياتنا لقريبة قد سكى حدث بصيضا ثم نعود فنصحك أو نعتط بما
كسبناه منه بعد فواته .

فالنظر إلى الكون في ألف سنة يكشف لنا من دلائل التوفيق بين القدرة الإلهية
والعدل الإلهي ما لا تكشفه النظرة إليه في سنة واحدة ، وبدع القول عن النظرة
للحدث الواحد في الساحة الواحدة من حياة فرد بعينه من أفراد الأمم الإنسانية .

وعلى هذا النحو نقول إنما مفترب من التوفيق بين القدرة الإلهية والعدل الإلهي
ولا نقول أب محط دلائل هذا التوفيق جميعها ، فإن الإحاطة بدلائل الحكمة
الإلهية أمر غير معقول في حكم العقل نفسه ؛ إذ كان العقل المحدود لا يحيط
بالقدرة التي ليست لها حدود

وعلى هذا النحو تتوارد آيات القرآن الكريم عن قدرة الله وعن حرية الإنسان وعن
عبد الله في إجراء قدرته ومحاسبة المخلوق على حريته

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عْلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان : ٢٠]

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة : ٢]

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾

[الأنفال : ٥٣]

﴿كُلُّ أَمْرٍ يُبَىِّمًا كَسَبَ رَهِيْنٌ﴾ [الطور : ٢١]

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت : ٤٦]

﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [عافر : ٢٠]

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ٢٨٠]

ولعل الصعوبة الكبرى إما تساور العصف من فهم قوله تعالى ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا
كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ (١) . . فلم لا يشاء أن تؤتى كل نفس هداها على السواء ؟

وتدليل الصعوبة في الجواب نفسه : فإن الهداية إذا ركبت في طبائع الناس كما
تركب حصائص الأجسام على السواء بين كل جسم وجسم فتلك هي الهداية
الآلية التي لا اختلاف بها بين مدارك الأرواح ولو ارم الأجسام المادية . ومن اختار
ذلك فإما يختار لوع لإسان مرلة دون مرلته التي كرمته وفصلته على سائر
المخلوقات .

فالعذل فيما اختاره الله للإنسان أعم وأكرم مما يختاره الإنسان لنفسه إذ هو أثر
الهداية التي تسوي بينه وبين الحماد .



(١) سورة السجدة آية ١٣

وأيا كان القرار الذى يسكن إليه المسلم بعد تلاوه هذه الآيات فمن الصدق لصميره أنه لابد أن يكون فى ذلك القرار عمل للعصيدة الإيمانية ، وعمل العصيدة الإيمانية هو أن يعالج شعور الفلق بشعور الطمأنينة والثقة ، وبحاصه إذا أيقن العقل أن قدرة الله لن تكون إلا على هذه الصفة ، وأن حرية الإنسان لن تكون ، لا على هذا الوجه ، وأن حرريته على هذا الوجه لا تناقض إمكان العدل الإلهى منى التمساً دلائل هذا العدل فى آيات الكون كله ولم يقصرها على حادث فى حياة مخلوق بتعبير شعوره بالآله وعواقبها من حين إلى حين



وكثيراً ما تمر بنا فى رحلات العربيين إلى الشرق الإسلامى كلمات مقولة عن التركية والعربية مثل كلمة ' «قسمة» وكلمة «مكتوب» وكلمة «مقدر» يرددونها باللفاظ محرفة عن ألسنة العامة فى البلاد التى يرحلون إليها ، ويصهمون منها أن المسم حبرى مستغرق فى تجربة يستسلم للحوادث ولا يرى أن المحاولة تحديه شيء هى إصلاح شأنه أو تعبير نسخته ، ربما لا مرأ فيه أن هذه الحرية مسموعة على أفواه الجهلاء شائعة بينهم فى عصور الجمود ولا صمحلل ، ولكنها إذا نسبت إلى الدين لم يكن لنسبتها إليه سد من الكتاب الكريم ، ولا من الحديث الشريف ؛ فإن حرية المسلم العارف لكاتبه وسنة بيه لن تكون كحرية أحد من الدين أموا قدي بالكاف الهسية أو بالطوالع الباطنية أو بالقدر العاشم فى الأساطير اليونانية ، ولا يستطيع المسلم العارف لكاتبه وسنة بيه أن يدين بحرية كحرية المؤمن باصطفاء الله لسلالة من السلالات وحروج سائر السلالات من حظيرة رحمته ونعمته ، ولا يستطيع أن يدين بحرية كحرية المؤمن بورثة الخطيئة وقول الكفار عنها بعمل غير عمله ، وربما جبريه المسلم على حسب علمه بدينه حرية ينتهى إليها كل من آمن بقدرة الله وعمله ، وأمن بأن الهداية من طريق التكليف أصبح وأدى إلى العمل الإلهى من هدبه آية تتركب فى طبائع الناس جميعاً كما تتركب حصائص المادة فى طبائع الأجسام .



وبعد فنحن نكتب هذا المصل عن الإنسان فى العصر الذى يريد فيه تعريف

محيط الإنسان على التعريفات المحيطة التي شهت من قبل وأحملها في أول هذا الفصل لنصيف إليها التعريف المحيط بحقيقة الإنسان في عقيدة الإسلام

هذا التعريف الجديد الذي زيد في العصر الأخير هو تعريف العلماء الشوثيين القائلين مذهب التطور أو مذهب الشوء والارتقاء ، ومعطهم يعرفون الإنسان بأنه حيوان راق . . فيصعون هذا التعريف مقابلاً لقول القائلين أن لإنسان روح منكوس أو ملك ساقط من السماء .

ما قول للمسلم في هذا المذهب الجديد ؟ أتراه يصدق ؟ أتراه يكذب ؟ وهل في نصوص دينه ما يفسر هذا المذهب تفسير لموافقة والقبول ؟ وهل في نصوص دينه ما يفسره تفسيراً يوجب عليه رفضه والإعراض عنه ؟

نحن لا نحب أن نقحم الكتاب في تفسير المذاهب العلمية والطريات الطبيعية كلما ظهر منها مذهب قابل للمناقشة والتعديل ، أو أظهرت منها نظرية يقول بها أساس ويرفضها آخرون ، ومهما يكن من ثبوت البصريات المسبوبة إلى العلم فهو ثبوت إلى حين لا يلبث أن يتطرق إليه الشك ويتحيفه التعديس والصحيح ، وقريباً رأيت من فصلائنا من يفسر السماوات السبع بالسيارات السبع في اسطومة الشمسية ، ثم تبين أن السيارات أكثر من عشر ، وأن الصغار منها تعد بالآلاف ولا يحصرها الإحصاء ، فليس من الصواب إذن أن نقحم أصول العقيدة في تفسير أقوال وآراء ليست من لأصول في علومها ، ولا يصح أن نوقف عليها الأصول ، وحسب الدين من سلامة المعقد وموافقته للعمل أنه لا يحول بين صاحبه وبين البحث في العلم وقبول الرأي الذي تأتي به فتوح الكشف والاستساط ، وعلى هذه السة يرجع المسم إلى آيت كتابه وأحاديث سبه فلا يرى فيها مانعاً يجمعه أن يدرس التطور ويسنرسل في مباحثه العلمية إلى حيث بلهمه الفكر وتقوده التجربة .

﴿ ذَلِكَ عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ لَعَزِيزُ الرَّحِيمِ ﴾ (٦) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ ﴿

[السجدة ٦ - ٩]

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ﴾ [المزمتون : ١٢]

وإد اعقد المسلم أن خلق للإنسان الأول مبدوء من الأرض وأنه مخلوق من سلالة أرضية فلا عليه بعد ذلك أن يسفر مذهب التطور عن بنيته المقررة كيف كانت على الوجه القاطع انتفى عليه ، فف يكون في هذه النتيجة نقص بعقيدة المسلم في أصل الإنسان ، به حسد من الأرض وروح من عبد الله ، وليس في وسع العالم الشرقي أن يدحض هذه العقيدة برأى قاطع 'حق' منها بالتصديق والإيمان



يقول يبتشه في إحدى كلماته التي لا ندرى أي حد أم مراح إن الإنسان قطرة بين القرد والسورمان .

وكاد يرح من يقول هذه الكلمة وإن لم يقصد إلى المراح ؛ فإن القنطرة التي فصراها أن تنقل الإنسان من قرد إلى سورمان لا توجد ولا يمكن أن توجد . فتدق قطرة لا يبينها القرد ولا يسيها السورمان ولا تنسى نفسها بيديها ولا تسيها الطبيعة التي قد تحطو من خالق إلى الهاوية ، وقد تحطو من الهاوية بيمه ويسره إلى غير وجهة .

إنما الأحصى أن يقال : إن الإنسان قطرة من الأرض إلى السماء يسيها الله

قطرة قرارها أسفل سافين ودرونها أعلى عليين

معراج من التراب المحول إلى أفق الأرواح والعقول

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾ [الاشقاق : ٦٠]

وإنه لملاقيه لأنه محبوب على صورته كما جاء في الحديث النبوي الشريف

محبوب على صورة الخالق .

يرتفع من التراب إلى السماء أوحًا فوق أوح في طريق عسر طويل هو طريق

النهوض بأمانة التكليف .

وما من مسلم يدين بصورة حسدية للإله الواحد الأحد الذي «ليس كمثله شيء» وله المثل الأعلى

صورته هي حدد المسلم كوجهه وبه امدكوريس هي القرآن الكريم صورة تناسب كماله ، ووجه ويد تناسبان ذلك الكمال .

و للإنسان مخلوق على صورته الخالق لأن صورته حن وعلا هي صررة كاملة من الصفات الحسنى هي مثلها الأعلى

رحمة وكرم وعدم وعمل ومشينة ومحد وعظمه وفتح وبداع وشاء
وكل صفة من هذه الصفات مطلوبة من الإنسان على عاية ما يستطيع
لا يرقى ذلك المرقى الذي لا يدرك بالأبصار ولا بالعقول ، ولكنه يرقى قادرا
على الارتقاء من التراب إلى السماء .

مخلوق على صورة الخالق

محبون تهبط به أمامه التكليف إلى أسفل مافلين وترتفع به إلى أعلى عيسى
ذلك هو لإنسان في عقيدة الإله الواحد الأحد الذي لا أول له ولا آخر
ذلك هو لإنسان في عقيدة النبي الصادق الأمين نبي يدعو إلى رب العالمين

الشيطان



فى الكلمة التمهيدية التى قدمها بها لكتابتها عن «إبليس» فلما إن معرفة الإنسان للشيطان كانت فتحة خير لأنه لم يعرف الشيطان إلا بعد أن عرف الخير والشر ، وعرف انفرق بين الشر والخير ، فعرف أن الشر لا يحور وكان كل ما يعرفه منه أنه لا يسر ولا يوافق مآربه وشهواته ، وعرف أن محالمة المآرب والشهوات لا تكون شراً على الدوام بل هى خير فى كثير من الأحيان ، ومن ثم عرف كيف يكبح مآربه وشهواته وهوراصي مطمئن ؛ لأنه يعلم أنه عامل لدعير مستقيم على بهج الصلاح

وقارب فى فصول الكتب بين أسلوب الدين فى تعليم الأخلاق وأساليب التلقين والتعقيم الذى سميهاه بالأسلوب الأكاديمى ، وأساليب المطالعة والدراسة ، وأن بين الأسلوبين فى أعماق النفس وفى ميادين العمل لثوباً جيد بعيد ، لأن حدود الخير والشر فى أحدهما حبوية فمترح بالشعور والوجدان وتسمو إلى تقديس الخير أو تحدر إلى البصر من محاسة الشرور ، وما الأسلوب الآخر أسلوب التيقين والمطالعة إلا أسلوب أوراق وأدواى تقسم فيه معانى الخير والشر فى الصميم والفكر كأنها أقسام فى صفحات أو تصنيفات فى الودئع والمحرويات .

وحتمنا كتاب إبليس بكمه عن مفاييس الحقائق التى تعددت وتنوعت فلا تقاس كلها بمقياس الحساب أو مقياس المعمل أو مقياس التجربة لمسوسه ، وبخاصه ما كان منها متصلاً بالصميم والوجدان

ولا نحال أن السريرة الإنسانية تكشف عن أعماقها بعم من العلوم كهذ العلم - علم المقربة بين الأديان - وعلم الدراسات النفسية وهو فى حصواته الأولى أو عى أبواب الشائع التى لا نصح إلا بين التردد ولا تتطار

بكر الفائدة المبكرة التى خلصت للعقل الإنسانى من بواكير البحث فى العلمين أن مقاييس الحقائق تختلف وتتعدد ، وأن الحقائق كلها لا تقاس بأرقام الحساب وأبائىب دعاص ومحارب العلميين ومباطير المفكرين

فهاهنا حشد من العقائد والأحبية غملي به سيرة النوع الإنساني في نحو مائة قرن يدركها التاريخ .

ما هي أرقام الحساب أو أناسب المعامل أو تحارب الطبيعة أو مظاهر الملكيين
«سهل على أدياء العلم أن يعرفوها بكلمتين حديث خرافة» !

وحديث الخرافة يحب أن ينعى فتعالوا سمعه ونعهد لأدياء العلم جميعاً أن
يسأوا بالنوع الإنساني في تعلم الخير والشر والقداسة واللعة على برنامج غير هذا
البرنامج وتربية غير هذه التربية وليتسلم أدياء العلم هذا النوع الإنساني قبل مائة
قرن وليأحدوا في تعديمه الأسجدية من هذه الدروس

ولنحرص أولاً فرضاً مستحيلاً أنهم مسكونون قبل مائة قرن على معرفة بما
سمونه اليوم خرافة وما يسمونه تحقيقاً وما يسمونه دراسة منطقية أو عدمية .

وليسداً النوع الإنساني هي هذه المدرسة بفلسفتها الأخلاق على مذهبها
ومفروضها واحتمالاتها وروحها ومناقشتها .

وليحفظ فلسفات لأكاديمية كنها ويتحرج عليها

ولقد حفظها ولقد حرج منها بما شاء له أدياء العلم من آراء !

ولقد وصلنا بعد الرحلة الطويلة إلى القرن العشرين فمادام نقول ؟

نقول إن هذا في الحق هو حديث الخرافة الذي لا يعدو الألفاظ والعاديين وأسماء
المدارس والمريدين .

لكن النوع الإنساني ترك هذه لأكاديمية قبل مائة قرن وأمعن في طريقه الذي هداه
إليه القدر وأعدته له المفطرة ، ونتيجة هذا الطريق أنه أعطى الحياة الناضجة لكل خلق
من أخلاق الخير والشر والقداسة واللعة ، وأن علم العلماء اليوم لا يستطيع أن يقيم
من الفوارق الحية المحسوسة بين خلق وخلق فرقاً واحداً كالقارق الذي نفهمه ونحسه
ونحياه حين نتكلم على الخلائق الإلهية والخلائق الملكية أو الخلائق الشيطانية أو عما
يجعلها من الخلائق السماوية أو اخلائق لأرضية أو الخلائق الجهمية .

إن العلماء الذين يستعمرون تعبيراتهم المجارية من هذه الفوارق لا يفعلون ذلك لعبا

بالأنباط أو تطرف بالتمثيل والتشبيه ، ولكنهم يستعيرون ذلك التعبير لأنه أوسى وأوضح وأقوى من كل تعبير يستعيرونه من المدرسة النفعية أو المدرسة السلوكية أو مدرسة الانفعالية ومدارس روح الجماعة أو تخصص الهيئات والبيئات وما إليها من ألفاظ باصلة ومعان حائلة وأسماء لم تخلق من مسميتها شيئاً وهيئات أن تحلله ولو تسمت بها مئات القرون وعاية ما تبلغه أنها تأتي إلى محصول القرون بعد زرعه وبقائه واستوائه وحصله ، فتكتب العناوين على علانه وبيادره ولا تأمن بعد ذلك أن تصل بين تلك العناوين التي كتبتها يديها

فهذه الحقائق الوجدانية والقيم الروحية لا تقاس بمقياس الأرقام وأسابيع المعامل ، ومن أراد أن يقيسها بهذا المقياس فهو الذي سيخطئ لا محالة ، كما يخطئ كل واضع لأمر من الأمور في غير موضعه ، وكل من يقيس شيئاً وهو يحفل كيف يقاس .



إن الإيمان شوق عميق من أشواق النفس الإنسانية يساق إليه الإنسان يباعث من فطرته .

أما الشيء الذي يحتج إلى أداة العكرة ورحابة الصدر ومقياس كل حقيقة بما يأسسها من مقاييسها وخصائصها فذلك هو السفاد إلى أسرار الإيمان .

وكل العقائد الإيمانية سواء في حاجة إلى أداة الفكر ورحابة الصدر وحسن القياس لسفاد إلى أسرارها ، ولكن العقيدة في عمل الشيطان أحوج هذه العقائد جميعاً إلى التسليم سعة الحقائق وتعدد المقاييس التي تكشف عن يواطئها وتنمذ إلى كنه مدلولاتها .

ومن حصرت في ذهنه سعة الحقائق وجد بين يديه صعوبة لا صعوبة مثلاً في رفض فكر الشيطان كما يرفضها أدياء العلم الذين لو جروا على سننهم في إثبات الأشياء لرفضوا وجود المادة الملموسة عجزاً منهم عن إدراك أصولها ، وما أصولها إلا العناصر التي تنشئ شعاعاً متحركاً هي أثير لا وزن ولا حجم ولا حركة ولا لون ولا طعم ولا تعرف له صفة واحدة من صفات الأجسام بله الأرواح

وما نعلم من شيء كهذه العمائد هي بواعث الخير والشر قد تراءت فيه يد
العناية الإلهية أخذة بيمين هذا الإنسان الضعيف - بل هذا حيوان الجاهل - تقوده
من عماية الجهالة إلى هداية التمييز بين الفصيلة والرذيلة وبين الحلال والحرام وبين
المفروض والمخطور .

ومن ثم نرى أن المراحل الانتقال هي تصور روح الشر - أو تصور الشيطان - قد
تكون من أوضح المعالم لتابعة الصمير الإنساني في ارتقائه وتعميره ، وإنه من السهل
أن تعرف الإنسان بمقدار ما يشعر به نحو الشر من العور أو الخوف ، وليست بهذه
السهولة معرفتنا للإنسان بمقدار ما يتمثله من مثل العليا للخير والفصيلة ؛ لأن المثل
العليا بطبيعتها تبتعد عن الوقوع وتغترح بالآمال والمفروض ، ويشبه هذا في علم
الحس أن قياس الانحطاط بالنسبة إلى تخصيص سهل محدود انفعالات ولكن
قياس الصعود والارتفاع بالنسبة إلى الآفاق العيب أصعب من ذلك بكثير

ونحن - بالمقارنة بين هذه المراحل في تصور فكره الشيطان ومسطبان الشر على
النفوس البشرية - نستطيع أن نرى مرحلة العقيدة الإسلامية من هذه المراحل وأن
نعرف منها مدى قوة الصمير الإنساني في مواجهة الشر كما طرأت على العقائد
لأول مرة في تاريخ الأديان .

بدأ الإنسان خطواته المتعسرة في طريق الخير والشر حيواناً ضعيفاً يفهم الضرر
ولا يفهم الشر ولا يسريه ، وإذا فهم الضرر فإنما هو الضرر في جسده أو فيم يظنه
اجسد من مطالب الطعام والشراب ولأمن والراحة ، وكنت الأرواح كلها صبرة
تلاحقه بالأذى والإساءة ما لم يتوصل إلى مرصاتها بوسائل الشفاعة والمصراة أو
بوسائل الصحايا والنقرايين .

ثم بقسمت الأرواح عنده إلى صارة وعبر صارة ، وما لم يكن صاراً منها فليس
امتداعه عن الضرر لأنه يحب الخير أو يكره الشر ، بل هو يتبع عن الإصرار به لأنه
روح من أرواح أسلافه ودوى قرابته يصادقه كما يصادق لأب دريته والنقريب دوى
قرباه

ثم طالب مرحله في هذه الطريق حتى مسح له نصيص من التمييز بين الضرر
الذي يحور والضرر الذي لا يحور ، وقد مسح له هذا النصيص من عادة الارتباط

بالعهود وأبوابه بينه وبين أربابه وبينه وبين عشيرته وحلفائه ، هما كان محالفاً للعهود والميثاق فهو صرر مستعرب لا يجور ، وما كان صرراً لا يحوز فهو لون من ألوان الشر الذي كان محجولاً قبل الارتباط بعهود الصلاة والعبادة أو عهود المحالفة والولاء .

وربما عسر الإنسان في هذه المرحلة عشت القرون حتى وصل إلى عهد الحصارات العلب ووصل من ثم إلى الديانات التي تلائم عقده وصميره في كل حصاراً منها

هناك عرف الشر والخير وعرف التمييز بين ما يحوز وما لا يحوز ، وهالك ظهرت بين أعمه المتقدمة قوى الشر الكونية التي تتصرف في الوجود كله وتقصى فيه فضاء يندثره وراء عمر لإنسان الواحد وراء أعمال الأحيال والأقوام وأرفع ما ارتفع إليه لإنسان في هذه المرحلة عقيدة الهدى لعقيدة الثنوية فعقيدة مصر الفرعونية .

فكانت عقيدة الهدى أن المادة كلها شر أصيل فيها فلا خلاص منه إلا بالخلاص من الجسد ، وكان الشر عندهم مرادفاً للهدم والمسد ، تتولاه الإله الواحد في صورة من صوره الثلاث - صورة الخلق وصورة الحافظ وصورة الهدم الذي يهدم بيديه ما بناء وما حفظه في صورتيه الأخرين .

وكانت عقيدة الثنوية من محوس فدرس أن الشر من عند إله الظلام وأن الخير من عند إله النور ، وأن العبة أحياناً لإله النور بعد صراع طويل .

وكانت عقيدة مصر الفرعونية أن الإله «سيت» شرير مع أعدائه ومحالفيه ، وربما كان منه الخير لأتباعه ومؤيديه ، ولم يكن خلاص الروح عندهم مفصلاً عن خلال الجسد ، ولا العالم الآخر عندهم مخلوقاً على مثال أرفع من مال الحياة في وادي النيل

ويعمل علماء المقارنة بين الأديان إلى تفصيل العقيدة الهندية على العقيدتين الفارسية والمصرية ، وبكده تفضيل لا يقوم على أساس صحيح ، لأن إلهاء الخير في عالم المادة سحافيره لا يفسح فيه مجالاً للخير ولا يحمل الخلاص منه إلا كإخلاص من مكان موهوب ، حدوده كمحدد الأبعاد والمسافات ، وليس في هذه العقيدة الهندية

ما يجعل للهدم لارمة غير لارمة الخس والحطط ، فكلها من لوازم عمل لإله بعير
تفرقة بين هذه الأطوار تأتي من الإله أو تأتي من العباد .

وربما كانت عقيدة مصر المرعوية أقرب هذه العقائد الثلاث إلى تنزيه الصمير
الإنسانى من لوثات الوثنية ؛ لأنها جعلت للشر برعة مفردة بين نظم الأكوان ، كأنما
هى برعة التمرد فى عالم يقوم على الشريعة والنظام



ثم تميزت من بين عقائد القبائل البدائية والخصارات العليا عقائد الديانات
الكتبية التى يدين بها اليوم أكثر من نصف الأمم الإنسانية ، ويتغلغل أثرها فى الأمم
الأخرى شيئاً فشيئاً ولولم تتحول عن عقائدها لأولى

تميزت بين ديانات الأولين الديانة العبرية والديانة المسيحية والديانة الإسلامية ،
وكانت الديانة العبرية جسر بين عدوتين ' إحداهما عدوة الوثنية والأخرى عدوة
التوحيد والتنزيه

ولهذا لم تتميز قوة الخير وقوة الشر بفصل حاسم فى الديانة العبرية ، فكان الشر
أحياناً من عمل الشيطان وأحياناً من عمل الخيه ، وكان الشر بهذه المثابة ناره صرراً
لا يحور ، وتارة أخرى صرراً مادياً يأتى من حيوان كربه إلى الناس لما ينفثه من سموم
قاتلة ، ولم يكن الشيطان مفصلاً من زمرة الملائكة بل كان من زمرة الحاشية
الإلهية التى تنفث سموم الوشاية والدميسة .

وقد كانوا ينسبون العمل الواحد مرة إلى المعبود «يهوا» ومرة إلى الشيطان فحاء
فى كتاب صموئيل الثانى أن الرب عصب على إسرائيل فأهاج عليهم الملك داود
وأمره بإحصائهم وإحصاء يهودا معهم ، وحاء فى كتاب الأيام أن الشيطان هو الذى
وسوس لداود بإحراق هذا الإحصاء ولم يرد اسم الشيطان قبل ذلك فى كتب التوراة
مقروناً بأداة التعريف التى تدل على الأعلام كأنه كان واحداً من أرواح كثيرة تعمل
هذه الأعمال التى انحصرت بعد ذلك فى روح واحد سمي الشيطان ، ويستعين
بمن على شاكلته من الأرواح .



ثم تنقلت فكرة الشيطان مرحلة واسعة بعد ظهور المسيحية وتم الاتصال
 من الصفات الإلهية والصفات الشيطانية ، وأصبح للإله عمل وللشيطان
 عمل ، ولكنه عمل حسين يوشك على أن يصارع عمل «أهرمان» إنه الطلام ،
 لأنه سمى في الأناجيل باسم رئيس هذا العالم واسم إله هذا الدهر ، وكنت
 له بمنحة الدنيا ولله ملكوت السموات ، وسنتعل بشطر كبير من قصة الخليفة
 في السماء والأرض ، فلولا لما وقعت الخطيئة ولا سقط لجس البشرى ولا
 وحيث الكفارة بالهداء

وانتقدت فكرة الشيطان أبعاد مراحلها بعد ظهور الإسلام ، فهو قوة الشر لا مرء ،
 ولكنها قوة لا سلطان لها على ضمير الإنسان ما لم ينسلب لها بهواه أو يصفه
 عن مقاومة الإغراء .

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الحجر : ٤٢]

﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [نساء : ٧٦]

﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلْهُمُونِي
 وَتُؤْمُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٢٢]

فمن أطاع الشيطان فقد أطاع نفسه فظلمها ولم يظلمها الشيطان

﴿ فَلَا رَبَّآ ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

[الأعراف : ٢٣]

وما يكون للشيطان أن يطلع على العيب أو يبعد إلى أسرار العالم المجهول

﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ [سبا : ١٤]

وما يكون للشيطان أن يصر أحداً بسحره

﴿ وَمَا هُمْ بِصَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا يَادُنُ اللَّهُ ﴾ [البقرة : ١٠٢]

وما كان لهم من سحر إلا أن تصل الأنصار والنصار كأص صلال لمسحور صرب
من ضلال المحمور .

﴿ إِنَّمَا سَكَّرْتُ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴾ [الحجر : ١٥]

﴿ يُحِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُمَا تُعْنَى ﴾ [طه : ٦٦]

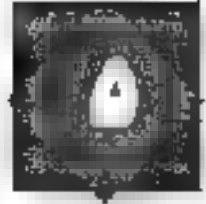
وما كان سحر الشيطان إلا صرباً من الخيال أو الخيال ، وما كان له بقوة من قوى
السحر أو قوى العدم أن يهرم صمير الإنسان ، وكل هذه القوة الخفية بجميع
حصائصها التي تركمت حولها هي العقائد الغائرة منتهية إلى وجود كأنه العدم أو
كأنه الوهم الذي يمدت الصمير الإنساني أن يتحاهه ويحصى على سوائه غير مسمت
إليه لو شاء ، وإنه ليشاء فلا يكون له عليه من سلطان لمشيئة الشيطان ، إذ لا مشيئة
له في أمر يوسوس به إلا أن يشاءه الإنسان .



هذه العقيدة الوجدانية الفكرية أقام لإسلام عرش الصمير ، وثل عرش
الشيطان

ومن حق البحث الأمين على الباحث المصنف أن يصيغها إلى عقائد الإسلام
في الله وهي السبي وهي الإنسان ، فإذا عرف الإنصاف وما هو بقادر على أن يرغم أن
الإسلام ديانة محرفة من ديانة محرفة من ديانة سقفت ، وإذا عرف الصواب وما هو
بقادر على أن يجعل مرتقاه في أطوار الإيمان وأنه عاية ما رتمع إليه ضمير المؤمن في
ديانات الأقدمين والمحدثين .

العبادات



يعرف الدين بمبادئه بين الناس كثيرين لا يعرفونه بعقائده ، ورعا استعملوا على العمائد بالعبادات ؛ لأن العبادة فرع من العقيدة يشاهد عبداً في حير السعيد أو انتصيق ولكنها - على هذا - من فروع العقائد التي يفل فيها الخلاف وبصيق حوبها موضع اخلل في الخصومات المذهبية ؛ إذ كان الغالب على العبادة أنها شعائر توفيقية توحيد بأوصاعها وأشكالها ، ولا يتحج لا اعتراض إلى وضع من أوصاعها إلا أمكر أن يتحج إلى الوضع الآخر لو استدل منها ما يفترحه ، المقترح به جرى عليه العمل وقامت عليه الفريضة من نشأتها

إذا كان يكون الصوم شهراً ولا يكون ثلاثة أسابيع أو خمسة ؟

إذا تكون حصص الركاة حرماً من عشرة أحرأ ولا تكون جرماً من تسعة أو من خمسة عشر ؟

إذا ركع وسجد ولا يصلي قياماً أو قياماً وركوعاً بغير سجود ؟

من اعترض بأمثال هذه الاعتراضات فيس ما معه أن يعود إلى الاعتراض لو فرض الصيام ثلاثة أسابيع ، أو فرضت الركاة فوق مقدرها أو دون هذا المقدار ، أو فرضت الصلاة على وضع غير وضعها الذي اتفق عليه أتباع الدين .

وليس معنى ذلك أن هذه الأوصاع لا تعرف لها أسباب تدعو إليها وتفسر لها تساعها دون غيرها ، ولكنها في نهاية الأمر أوصاع «توفيقية» لا موح من العقل للتحكم فيها بالافراح والعديل ؛ لأن المقترح العدل لا يستند إلى حجة أقوى من الحجة التي يرفضها ويميل إلى صوابها .

ويسرى هذا على كل تنظيم في أمور الدنيا ولا يسرى على أمور الدين وحده ، فلماذا يكون عدد الكتبة في جيش هذه الأمة ٥٠ - مثلاً - ويكون في جيش أمة غيرها ٤٠ أو مائة ؟ وبماذا يجعل اللون الأحمر رمزاً لهذا المعنى في ألوان العلم القومي عند قوم من الأقوم ، وهو محمول لغير هذا المعنى عند أقوم آخرين ؟

لا ماضٍ في النهاية من أسباب توفيقية يكون التسليم بها أقرب إلى العقل من
المجادلة فيها ، لهذا يقل الخلاف بين أصحاب الأديان في شعائر العبادة حيث يكثر
في كل كبيرة وصغيرة من شئون العقائد الفكرية أو عقائد الصميم

إلا أن هذا كله لا يقصى علما بقول كل عبادة على كل وضع يحظر على الناس . ولا
يمعنا أن نفاضل بين العبادات فترى منها عبادة أفضل من عبادة وفريضة أولى بالاتباع
من فريضة . إذ لا شك أن العبادة التي تؤدي غرضها أفضل من العبادة التي لا تؤدي
هذا الغرض ولا تؤدي غرضاً من الأغراض ، ولا شك في وجود المربا التي تتعارض بها
العبادات وإن لم تكن هذه المربا داخلة في الغرض المقصود بشعائر العبادات

والغرض من عبادات الأديان ينحصر على أغراض متشعبة يصيق بها الحصر
لأنها تقابل أغراض الدين جميعاً بأغراض الدين ، ولكسافه نجمعها جهده المستطاع
في نسيه المدين على الدوام إلى حقيقتين لا يساهم الإنسان في حياته الخاصة أو
العامة إلا هط به السيان إلى ترك البهيمية واستغرق في هموم مبدلة لا فرق
بينها وبين هموم الحيوان الأعجم ، إن صح التعبير عن شواغل الحيوان الأعجم
بكلمة الهموم .

إحدى الحقيقتين التي يراد من العبادة المثلى أن تنبه إليها ضمير الإنسان على
الدوام هي وجوده الروحي الذي ينسعى أن يشعه على الدوام بمطالب غير مطالبه
الجسدية وغير شهواته الحيوانية

والحقيقة الأخرى التي يراد من العبادة المثلى أن تنبه إليها ضميره هي الوجود
الخالد الباقي إلى جانب وجوده الرائل المحدود في حياته الفردية ، ولا ماضٍ من
تذكير الفرد لهذا الوجود الخالد الباقي إذا أراد فيه أن يحيا حياة بآثارها إلى ما وراء
معيشته اليومية ووراء معيشة قومه بن معيشة أباء نوحه ، وعبثاً يترقى الإنسان من
مرتبة البهيمية إلى مرتبة تعوها إن حار أن يعيش أبامه يوماً بعد يوم وهو لا يذكر
أنه مطالب بواجب أكبر من واجب الساعة أو واجب العمر كله ؛ فإن الترقى في كل
صورة من صورته يفصى إلى عابة واحدة هي خلاص الإنسان من رقة الانحصار
في مطالب اليوم والساعة أو مطالب العمر المحدود بحياته الفردية

عبادة المسلم هي جميع فرائضها تتكامل له بالتنسيب الدائم إلى هاتين الحقيقتين .

فه في صلاته يستقبل النهار ويتوسطه مرتين ثم يختتمه ويستقبل الليل بالوقوف بين يدي الله كأنه يستهديه في عمله ويؤدي إليه الحساب عن هذا العمل من ساعة اليقظة إلى الساعة التي يستسلم فيها للرقاد أو ينطوى فيها تحت جحجح الظلام

وإن المسلم في صيامه ليدكر حق الروح من سرائره وطعامه ، ويدكر أنه ذو إرادة تأخذ بيديها رمام حسدها ولا تترك لهذا الحسد أن يأخذ برمامها وينصرف بها على هواه ، وأصبح ما يكون الصيام الذي يسه الصمير إلى هذه الخفيفة أن يعذر المرء على ترك الشراب والطعام فترة من الزمن ، ولا يكون فصاره منها أن يستبدل شراباً شراب وطعاماً بطعام .

أما الزكاة هي فرائض الإسلام فهي المذكور له بحصة الجماعة من ماله الذي يكسبه بكده وكدحه ، وهي لمذكر له بأن يعمل لعبه ولا يعمل بنفسه وكفى ، وهي الامتحان له فيما تهوى النفس من المال واستاع ، حيث كان الصيام امتحاناً به فيما تهوى النفس من الشراب والطعام

وإذا كان الإسلام ديناً يدعو الناس كافة إلى عبادة رب العالمين فالجح هو العريضة التي تتمثل فيها هذه الأحوال الإنسانية على تباعد الديار واختلاف الشعوب والأحاساس ، وهي في اصطلاح العرف الشائع بين الناس بمثابة صلة الرحم وتبادل الزيارة بين أساء الأسرة الواحدة يجمعها المسمى في المكان الذي صدرت منه الدعوة إليها ، وهو أحدر مكان في بقاع الأرض أن يسم فيه هذا البقاء

ولا حاجة إلى بيان حكمة الركن الأول من أركان الإسلام وهو ركن الشهادتين شهادة أن لا إله إلا الله ، وشهادة أن محمداً رسول الله

فهاتان الشهادتان هما الركن الذي تقوم عليه أركان العبادات الإسلامية ، وبعبيره لا يكون المسلم مسلماً يعقائده وعباداته .

والشهادتان أسهل العبادات بلعظهما لأنه لا يعدو أن يكون بطلاً بكلمات

معدودات ، ولكيهما بمعاهده أصعب الأركان فى الأديان لأيهما انتقل من دين إلى دين بل مرحلة واسعة بين تاريخ وتاريخ



وعلى هذه الرتبة وما شابهها فى الفرائض الإسلامية يتاح للمسلم أن يوفق من عاداته السوقيية وبين أدائها للعرض من العبادة ، وهو تذكيره بوحوده الروحى وتذكيره بوحود أسمى من وحوده وأبقى ، وإذا كان تحقيق العرض من العبادة هو مبرر التفاضل بين الشعائر التوفيقية فحسب الإسلام من مزية فى شعائره أن يوفق بين أوصاعها وأعراصها هذه التوفيق ، لو لم تكن له مزية أخرى .

على أن عبادات الإسلام قد امتازت بين عادات الأديان عمرة لا بطير لها فى أرفعها وأرقها بالنظر إلى حقيقتها أو بالنظر إلى حماهير المتدربين بها ، وتلك مزيته النية التى يرعى بها استقلال الفرد فى مسائل الضمير حير رعاية تتحقق لها فى نظام حياة

فالعبادات الإسلامية بأجمعها تكييف لضمير الإنسان وحده ، لا يتوقف على توسيط هيكل أو تقرب كهانة .

يصلى حيث أدركه موعد الصلاة « وأيم تكتبوا فثم وجه الله »

وبصوم ويعطر فى داره أو فى موطن عمله ، ويحج فيذهب إلى بيت لا سلطان فيه لأصحاب سداة ولا حق عنده لأحد فى قربانه غير حق المساكين والمعوزين .

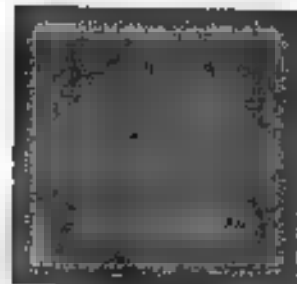
ويذهب إلى صلاة الجماعة فلا تنقيد صلاته الجماعة مراسم كهانة أو أدوة محراب ، ويؤممه فى هذه الصلاة الجماعة من هو أهل للإمامة بين الحاضرين باختيارهم ساعتهم إن لم يكن معروف عنهم قبل ذلك .

إنه الدين الذى نتعلم منه أن الإنسان مخلوق مكلف .

لا حرم تقوم عبادته على رعاية حق الضمير المستول واستقلاله بمشئته أكرم رعاية ومرة أخرى يعود فى حرم هذا الفصل عن العقائد فسأل أهنا هو الدين الذى يستبج من يدري ما يقول أن يرغم أنه سعة معرفة من دين قديم ؟

الفصل
الثاني

المعاملات



من العلماء المشتغلين بالمقارنة بين الأديان من يسم لعقائد الدين سموها ونزاهتها ، ولكنه مع هذا يعيب الدين بفسه بشرائعه وأحكام معاملاته ، إما لأنه يرى أن الأديان ينبغي أن تكون مقصورة على العقائد والوصايا ولا تتعرض للتشريع وأحكام المعاملة التي تصطدم بالحوادث العممية وتحرق مع تقلبات الأحوال في السنين المختلفة والأزمة للتعافى على سس شتى ، ولا تحصص لنص الواحد في جميع أطوارها وملاساتها .

هذا ، أو لأنه يعيب المعاملات لماتها ويرى فيها نقصا يتجافى بها عن مبادئ العدل وأصول الآداب المرعية بين أم الحضارة .

وقد تعمدنا - من أجل هذا - أن نتبع الكلام على العقائد الإسلامية بالكلام على المعاملات الإسلامية ، ونحري في الكلام على هذه المعاملات أن نقصرها على أبواب المعاملة التي وردت فيها أشد الشبهات على الشريعة الإسلامية في العصر الحاضر ، من جانب علماء المقارنة بين الأديان أو من جانب المشررين العاملين على تحويل المسلمين في بلادهم عن عقائدهم وأحكام دينهم ، وتقديم القول - على التخصيص - تلك المعاملات التي قيل إنها علة تأخر المسلمين وعجزهم عن الأخذ بأسباب الحضارة ومجاعة الأمم في ميدان الأعمال الاقتصادية والشرع العملية . ومعنى بها معاملات الشركات والمصارف ومعاملات الخراء والعقاب في القوانين ؛ فلس من عرضنا في هذا الكتاب أن نسط القول في المعاملات بمعناه المعروف بين الفقهاء من معاملات البيوع أو معاملات الأحوال الشخصية وما إليها من أبواب الأحكام التي لا نرد الشبهة عليها من خصوم الإسلام وعر يفترون لأباطل عليه ، وربما تداولنا بعض هذه الأبواب في موضعه من الكلام على الحقوق الاجتماعية ، ولكننا لا نحسبها من مواطن الشبهة التي يقال من أجلها أنها قد حالت بين المسلمين فعلا وبين النهوض بأعباء الأعمال الاقتصادية وأعمال الشريعة في العصر الحديث

والذى نراه من مراجعة النقد الدينى أن المسكرين لتعريض الأديان لشئون المعاملات محطون لا يحشمون عقولهم مؤونة الرخوع إلى شاة أنشائع الديسة فى أوقتها وماسبئها ، وإلا لعرفوا أن هذه الشرائع لارمة للعاملين بها لروم العقائد والوصايا الأخلاقية ، وأن العقائد تصطدم بالواقع كما تصطدم به أحكام الشرائع ، فلا معنى لاحتصاص أحكام الشرائع وحدها بالنقد إذا كانت العقائد معها عرصة للامتحان مع نقلات الأحوال وتجدد الطوارئ والضرورات

والواحب فى رأينا أن يكون النقد كنه موجهاً إلى المعاملات لداتها إذا كان هياها ما يحامى مبادئ العدل وأصول الأخلاق ويحول دون مجارة الأحدين بها لسر التطور والتقدم وضرورات الحياة العلمية جيلاً بعد جيل

ولو أن النقد الديينى كنهوا أنفسهم أن يتتبعوا أسباب التشريع فى الأديان الكتابية الكبرى لعلموا أنها قامت بقيام تلك الأديان فى ظروف تحتم النظر فى التشريع كما تحتم النظر فى الاعتقاد ، ولعلموا أن أديان الحضارات الأولى التى استعنت عن وضع نصوص القويين لم تكن لتستعنى عنها لولا أنها شأت فى دول عريقة الحكومات والأحكام ، ومن أعرق تلك الحضارات الأولى حضارة مصر وحضارة بابل وحضارة الهند وحضارة الصين ، فهذه جميعها قد ظهرت فيها الكهانة مجورة للدولة صاحبة القوايين والأحكام ، ولم تحلص العقائد فيها مع ذلك من الامتراح بالقويين فى مصادرها وأماييدها يوم كان كل أمر مقدس واحب الطاعة مستمداً من الأوامر الإلهية ، ولكن رسالة الدين هب لم تكن معولة عن رسالة الدولة فى عقائدها ولا فى شرائعها ، فلما قامت رسالة الأسياء من دعة الأديان الكتابية قامت بمعزل عن الدولة بل قامت نائرة على الدول من حولها فوجب لها مع العقائد تشريع يتناول أحوال المعاش وأحكام المعاملات .

ويصدق هذا القول على لأديان الكتابية الثلاثة بغير استثناء للمسيحية التى يحظر ببعضهم أنها نعمدت أن تقصر الدين على العقائد والوصايا دون القوايين والمعاملات فالواقع أن السيد المسيح قد جاء مؤيداً لشرائع العهد القديم ولم يحى منطلأ بها أو معطلأ لأحكامها جاء متممًا لسانموس وبم يحى هادماً لسانموس ، وكان العالم من حوله مكتنطاً بالشرائع الديسية الديبوية ليهيكن شرائعه من راد أن يتبعها ويعمل

بها فذلك إليه ، وللدولة شرائعها من أراد أن يشعها ويعمل بها فذلك إليه ، ومن هنا استطاع المسيح أن يقول للدين تعموا أن يحرقوه في مسألة الضرائب « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » . فلم يجد من لودوم رسالته أن يثور على شرائع الدولة ولا على شرائع الدين . ولما حاده المكبرون من اليهود بالمرّة الرابية ليأمر بترجمها ويصطدم من ثم سلطان الهيكل رد عليهم كيدهم بإحراجهم كما أحرحوه ، فقال لهم « من لم يخطئ منكم فليرمها أولاً بحجر » . فلم يقل أن حكم الرحم باطل ، ولم يأمر به فيقسم المحنة عليه لأصحاب السلطان في هكل العبادة والشرعية . وكنت ثورته في لبائها ثورة على الرياء في دعوى الأماء على الشريعة الدينية ، ولم تكن ثورة على الأحكام والنصوص كما وردت في كتب العهد القديم



أما الديانة الكتابية الأولى فمهما يكن الرأي في نصوص شرائعها اليوم فقد كان التشريع فيها يوم الدعوه إلهي لارما كل يوم الدعوة إلى العقيدة أو الوصايا الأخلاقية كان موسى عليه السلام يقود شعباً يعبر دولة إلى أرض يقيمون فيها حكماً عبر الحكم الذي حصعواله في موطئهم الذي تركوه من أرض الدولة المصرية ، فلم تكن رسالته رسالة عقيدة وحسب ، ولم يكن قيام العقيدة ميسوراً بغير قيام القامون

وكل نقد يوجه إلى أحكام المعاملات يمكن أن يوجه مثله إلى العقائد والوصايا ، لأن التحجر وسوء الفهم غير مقصودين على الأعمال والتطبيقات ، أو سيديهما إلى العقائد النظرية أيسر من سيديهما إلى الوقائع العملية ؛ إذ كانت الوقائع العملية مما يصطر المخطئ إلى الشعور بخطئه ، وليس في العقائد النظرية ما يصطر المعتقد إلى الشعور بالخطأ من أول وهلة ، إلا إذا تعبير شعوره وتعير وجدانه فترتفع بنفسه وبأحوال معيشتة من الخطأ إلى الصواب .

ولم شاء أن يشير إلى المعاملات في كتب الشرائع السماوية كما يشاء ، ولكنه يجهد من حادة الإنصاف إذا احتص لشرعية الإسلامية بنقده كأنها الشريعة الكتابية الوحيدة التي تعرضت للمعاملات فإن الشريعة المنسوبة إلى موسى عليه السلام قد تناولت من أمور المعيشة ما هو اليوم من شئون الأصبلاء ، وتناولت من تشريع الخبز والعقاب أحكام لا يقرها اليوم أحد من المؤمنين بها ، وإن كان من المؤمنين بإحياء الشريعة من الله إلى كليم الله

فمن الشئون التى كان يتولاها الكاهن محيىض أعراس العلل والأدراء وعزل المصابين بها وإعلان محاستهم على الملأ لاعتقادهم أن المرحض الخبيث تعدى بحاسة مافية للطهارة الدينية أو صرية من الصربات الإلهية ، ويشرح كتاب اللاويين فى الإصحاح الثالث عشر منه مثلاً من ذلك فيقول فى بيان المعاملة الواحدة للمصابين بالمرض

«إد كان إسان قد ذهب شعر رأسه فهو أقرع . إنه طاهر . وإن ذهب شعر رأسه من حبهة وجهه فهو أصلع . إنه طاهر لكن إذا كان فى القرعة أو الصلعة صرية بيضاء صاربة إلى الحمرة فهو مرض مفرح فى قرعنه أو فى صلعته كمطر المرض فى حلد . حسد فهو إسان أمرض . إنه نجس ، فيحكم الكاهن بحاسته . أن صرته فى رأسه . والأمرض الذى فيه الصرية تكون ثمانية مشقوقة ورأسه يكون مشقوقاً ويغطى شاربيه ويسدى عيس نجس كل الأيام السى تكون الصرية فيها يكون نجساً . إنه نجس يكون وحده خارج الخلة . . . »

وكان الكاهن يتولى من شئون الطعام والشراب ما هو ألصق بالمعيشة اليومية من شئون الطب ومعاملة المصابين بالعلل والسقاء ، والكاهن هو الذى يركى الطعام المباح ويستولى على نصيب المعد منه ، وإليه المرحع فى التمييز بين الأطعمة المظهرة والأطعمة المحسة من لحوم الحيوان

وتناولت الشريعة معاملات الحراء والعقاب فى الجرائم التى تقع من الناس وهى الإصابات التى تقع من الحيوان ويحرق بها الحيوان كما يجرى بها صاحبه فى بعض الأحيان : ومن أمثلة ذلك عقاب الثور الذى يسطع إساناً كما جاء فى الإصحاح الحادى والعشرين من سفر الخروج .

«إنه إذا طح ثور رجلاً فمات يرجم الثور ولا يؤكل لحمه ، وأما صاحب الثور فيكون بريئ . ولكن إذا كان ثوراً بطاحاً وقد أشهد على صاحبه وسم يصبطه فقتل رجلاً أو امرأة فالثور يرجم وصاحبه أيضاً يقتل . . . »

وتقرر الشريعة كيف تكتب على الألواح وكيف تكون الألواح التى تكتب عليها كما جاء فى سفر الخروج ، بل تقرر ملابس لهيكل وأنواع لأسجة التى تحاط منها ثياب الكهنة والخدم بأمر من الله لموسى تكرر ذكره فى الكتب الخمسة المسونة إليه

هذه الأوامر المفصلة في معاملات المعيشة ومعاملات أخراء والعقوبات مسعرة على السواء في رأى الناصرين إليها من وجهة نظر غير وجهة المتدبيين لمنشئين بها إلى اليوم ، ونكسما - بعد الإنعام بها - يعود فمكرر أنها لا تسرع العول بمصر الدين على العقائد والوصايا دون الشرائع والمعاملات ، فإن الخطأ يعتري العقيدة كما يعتري الشريعة ، ومرجع الأمر إذن إلى الصلاح والفساد لا إلى العمل أو الاعتقاد ، وما كانت عقائد بني إسرائيل بأثبت على الرمن من معاملاتهم وشرائعهم التي تدولوها بعد عصر موسى الكليم ، ولعل حاجتهم إلى معاملات تشبه تلك المعاملات في الحمدة كانت أشد من حاجتهم إلى عقائدهم كما تدولوها بعد عهودهم المهجورة .

وكن ما يحور لنا أن نستخلصه من دراسة الشريعة لمسونة إلى موسى أن بني إسرائيل لم تكن لهم رسالة عملية إنسانية ، وأنهم قد وافقتهم عقائدهم ومعاملاتهم في عزلتهم بين أبناء خصارات الأولى ، فم انتهت رسالتهم محدودة بما يوافقهم تعرفوا بين الأمم من غير دولة ولا سادة على أحد ، فلم يقم لهم سلطان يتولى فرض عقائدهم ومعاملاتهم على الأمم ولا على أنفسهم ، وانقضى دورهم التاريخي في أمر العقائد وأمر المعاملات .

وكذلك سبق النظران إلى هذا الساريح المشحون بدلالاه ومعاريه : نظرة المؤس بحكمة العيب العحية في سبيير مقادير الشعوب ، ونظرة المؤس بعبرة التاريخ دون سواء

وعلى هذه السسة من المساواة بين حق الدين في بشر العقائد وحقه في فرض الشرائع والمعاملات سطر إلى معاملات الدين الإسلامي كما نظر إلى عقائده فلا يرى فيها ما يعوقه عن أداء رسالته العالمية الإنسانية التي توافرت له بدعوته إلى إله واحد هو رب العالمين أجمعين وحائق للأمم بلاميمير بيها في الخطوة عمنه غير عزة التقوى والصلاح - رب المسرفين والمعرين بصى له المرء حيث شاء ، وأينما نكوبوا فثم وجه الله

فم مع لإسلام قط معمنه بين الناس تنصعهم وتخلو من الصبر بهم والعن على فريق منهم ، وأساس التحريم كنه في الإسلام أن يكون في العمل المحرم صبر ، أو إحفاف ، أو حصة في العقل واخلاق ، ما فرض الإسلام من حرء قط إلا وهو

«حدود» بشروطها وفيودها ، صالحة على موجب تلك الشروط والقيود للزمان الذي شرعت فيه ، ولكل زمان يأتي من بعده ؛ لأنها لا تحمد ولا تتحجر ولا تتحرى شيئاً غير مصبحة الفرد والجماعة ، وكفى باسم «الحدود» تبيهاً إلى حقائق الحراء والعقاب في الإسلام ، فإنها «حدود» بينة واضحة تقوم حيث قامت أركانها ومقاصدها وتحقق حكمتها ومرحاتها ، وإلا فهي حدود لا يقرها حاكم ولا محكوم إلا حاقت به لعنة الله

والشبهة المتوافرة في العصر الحاضر إنما ترد على المعاملات الإسلامية من قبل الناقدين والمبشرين ؛ لأنها تمس ضرورات المعيشة المحددة في كل يوم ، وترصد للمسلم في طريقه حيث سار وأيما اضطربت به صفوف الرق والكسب ومرافق العمل والتدبير ، ويتحرى الناقد الموطن احساس من نفس المسلم حين يلقى في روعه أن شيئاً من دينه يعمل يديه عن العمل في عصر المصارف والشركات ، وأن شيئاً من دينه يتمهقر به إلى الوراء ولا يصلح للتطبيق في عصر النظم الحكومية التي تجري القصاء والجزاء على أصوب العلم والتهذيب

وليس في المصارف والشركات شيء نافع برىء من الضرر والعن يحرمه الإسلام وليس في أصول العلم والتهذيب شيء يناقض حدود الحراء في شريعة الإسلام تتدحس شبهة المعاملات الاقتصادية في مسألة واحدة هي مسألة الربا الذي يقول الناقدون أنه قوام المصارف والشركات



وتتلخص شبهة القصاء والجزاء في حدود السرفة والربا والخمر والمقاربة من عقوبتها في الإسلام وعقوبتها في الشرائع الموضوعة التي تسمى بالشرائع العصرية . ولا يسي القارئ لمسئمة - قبل أن يصع نفسه موضع جهم المطالب بالدفاع عن دينه - أن الناقدين والمبشرين يعالطونه ويعالطون أنفسهم حين يحتصون الإسلام بالفقد في مسألة الربا - على التحصيل - فإن الربا محرم أشد التحريم في اليهودية والمسيحية من شرائع العهد القديم إلى شرائع الكنيسة في القرون الوسطى إلى شرائع اللوثرين وأتباعهم بعد عصر الإصلاح ، وقد كان تحريم الربا في اليهودية

والمسيحية عما محملاً بغير بيان للعارق سه وبين المعاملات المخلتة من صفقات
اليوع والمبادلات ، وأما في الإسلام فع من تحريم قط ورد فيه إلا وهو مشعوع بحدود
تقيم العاصل بيه وبين الكسب والحلال .

حرم الربا تحريماً ماناً في الكتب المنسوبة إلى موسى عليه السلام فجاء في
الإصحاح الثاني والعشرين من سفر الخروج .

«إن أقرصت قصة الفقير الذي عندك فلا تكن له كالمداس»

وقيه بعد ذلك .

«إن ارتهنت ثوب صاحبك فبالى عروب الشمس ترده إليه .. لانه وحده عطفوه هو
ثوب جلده في مادايام» .

وجاء في الإصحاح الثالث والعشرين من سفر التثية

«لا تقرض أحادها رب فصة أو رب طعام أو ريا شيء مامم يقرض برها .

وسرى هذا التحريم إلى عهد النبي حزقيان والنبي يحميا . فقال النبي يحميا في
الإصحاح الخامس من كتبه

«أس بكت العظماء والولة وقلت لهم إنكم تأحدون الربا كل واحد من أخيه . .

والمقصود بإشارة يحميا أن الربا المحرم إلى هو الرب الذي يأخذ لإسرائيليين من
أخيه ، لأن الربا المأخوذ من أبناء الأمم الأخرى مباح كيف كان ، والإصحاح الثالث
والعشرون من سفر التثية المنسوب إلى موسى عليه السلام صريح في إياحة أحد
الربا من الأحسى حيث يقول متعاطياً شعب إسرائيل

«لأجنبي تقرض برها ولكن لأخيك لا تقرض برها لكي يبارك لك الرب إلهك في كل ما

تصتد إليه يدين» .

فليس هذا تحريماً إنسانياً مبعثاً من شعور بالرحمة والعدل في المعاملة ، ولكنه
تحريم عصية يسبح من الفسوة على أبناء الأمم الإنسانية كافة ما يحرمه في معاملة
الإسرائيليين لأخيه

وقد سرى تحريم الربا في شعب إسرائيل دون غيره إلى ما بعد قيام المسيحية

وإعلانها الدعوة إلى جميع الأمم لأنهم أبناء إبراهيم بالروح . فحرمت الربا في
عبر شعب إسرائيل ولم يفيد تحريمه يهود من المؤمنين دون آخرين

ثم سرى تحريم الربا من أوائل عهد المسيحية إلى قيام حركة الإصلاح و«شقاق
الكنائس عن كنيسة روما الدنوية» فانفقت الكنائس جميعاً على تحريم الربا واشتد
«لوثر» في هذا التحريم حتى وضع رسالة عن النجاسة والربا حرم فيها كثيراً من البيوع
الربوية كالبيع المعروف في الفقه الإسلامي باسم بيع «السحش» أو المعروف باسم
بيع السلم ، والسحش هو التواطؤ على رفع السعر لإكراه الآخرين على قبول الشراء
برمادة على سعر السوق ، والسلم هو بيع الآجل بالعاجل برمادة في سعر المبيع .

قال لوثر في شرح أنواع الربا التي ترواح باسم التجارة ما ملخصه فيما يلي

«إن هناك أناساً لا تنال صمغهم أن يبيعوا بضائعهم بالنسيئة في مقابل أثمان
عالية تريد على أثمانها التي تناع بها بعداً ، بل هناك أناس لا يحبون أن يبيعوا شيئاً
بال نقد ويؤثرون أن يبيعوا سلعهم جميعاً على النسيئة» . ثم قال

«إن هذا التصرف مخالف لأوامر الله مخالفة للعقل والصواب ، ومثله في
مخالفة الأوامر الإلهية والأوامر العقلية أن يرفع الساع السعر بعلمه بقلة البضاعة
لمعروضة أو لاحتكاره القليل الموجود من هذه البضاعة ، ومثل ذلك وذاك أن يعمد
التاجر إلى شراء البضاعة كلها ليحتكر بيعها ويتحكم في رفع أسعارها»

وبادر لوثر على إثر ذلك إلى دفع الاعتراض الذي قد يعترض به من يحتج
بتصرف يوسف عليه السلام من أعوم الجماعه فقال : «إنه إذا شاء أحد أن يحتج
سلوك يوسف كما ورد في سفر التكوين حين جمع كل الخبث التي كانت في
البلاد ثم يشتري بها في وقت المجاعة لملك مصر كل ما فيها من أموال وماشية وأرض
بما يسدو حقاً كأنه احتكار . فالجواب على ذلك أن صفقة يوسف هذه لم تكن
احتكاراً بل مبايعة شريفة كما حرت عادة البلاد ، فإنه لم يبع أحداً أن يشتري
خلال سنوات الرخاء وإنما كان عمله من وحي الحكمة التي يسرت له أن يجمع
خبث الملك في سنوات الرخاء بينما كان الآخرون يعربون منها القليل أو الكثير

قل لوثر ، إنه من التصرفات التي تدحل في باب المراقبة ولا تدحل في باب

التجارة أن يعتمد أحدهم إلى لاحتكار من طريق المعالة ، فيبيع ما عنده بالسعر
الرخيص ليكره غيره على البيع بهذا السعر فيحل بهم الخراب

وقال إنه من قبيل الغش والاحتيال أن يبيع أحد ما ليس في يده لأنه يعلم
موضع شراؤه فيستطيع أن يعرض على مالكه ثمنًا دون الثمن الذي يعرضه على
طالب الشراء

وعند لوثر من الربح المحرم أن يتأمر التجار الكبار في أوقات الحروب على إشاعة
الأكاذيب لدفع الناس إلى بيع ما عندهم واحتكاره بين أيديهم ، ثم تقدير أثمانه
على هواهم ، وقال إن بعض الممالك الأوروبية - كالمملكة الإنجليزية - تعقد في
عاصمتها مجلسًا يراقب الأسواق ويدير الوسائل لاحتجاز السلع المربوبة فيها
لاحتكارها ومقاسمة الدولة في أرباحها .

وقال ' إنه من الخيل المعهودة بترويح الربا باسم التجارة أن تناع السلعة إلى أحل
ويعلم البائع أن شاربها لا بد أن يبيعها في هذا الأحل بأقل من ثمنها ليسلد ما عليه
من الدين ويشتريها بالثمن الذي يصطره إليه .

قال ' وهناك تصرف آخر مألوف بين الشركات وهو أن يودع أحد مبيعًا عند
تاجر ألف قطعة من الذهب أو الفين على أن يؤدي له التاجر مائة أو مائتين كن
سنة سواء ربح أو خسر . ويسوع هذه الصفقة بأنها تصرف يفع التاجر لأنه يغير
هذا القرض بطل معطلًا بغير عمل ، ويمسح صاحب المال لأنه يغير هذا القرض
ببقي ماله معطلًا بغير فائدة

وبما أحرجه لوثر من أبواب التجارة المشروعة وأحققه بالربا المحرم أن يحزن البائع
عذله في الأماكن الرطبة ليريد في ربحها ، وأن يزوق السلعة ليعرى الشاري بدل
الثمن الذي يرى على ثمنها ، وأن يتحد من وسائل الاحتكار أو الإغراء ما يمكنه
من جمع الثروة الصالحة ؛ لأنه - أي لوثر - يقرر في رسالته أن التجارة المخللة لم تكن
فقط وسيلة لجمع الثروات الصالحات ، وأنه إذ وجدت ثروة صالحة فلا بد هلاك من
وسيلة غير مشروعة .

ولعل لوثر قد بلغ في تحريم السبوع الربوية وإحقاقها بالمال الممنوع أو المدعون ما لم

يلعبه أحد قبله ولا بعده من رؤساء الدين المسيحي في العصور المتأخرة ، وبما لا ريب فيه أن الحالة النفسية التي تساور انصلاح الاحتماعى أو الوعظ الدينى باعث قوى على التشدد فى حظر المحرمات ودرائعها واثقاء الشبه التى توقع الأبرياء فى حبائلها ، وهذه الحالة النفسية قد كانت على أشدها فى انقارة الأوروبية بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر فى إبان الدعوة إلى حركة الإصلاح ، فقد كان لوثر يرحو أن يعمل الملوك والأمراء ورؤساء الدين على كف أدنى المربين والمعالين بالسع والشراء ، فحاجب أملة فيهم أجمعين ، وثبت له من معرفته بهم ومن إشاعات الناس عنهم أنهم يشجعون الربا والمعالجة بالأرباح لمفاسمة أربابها وشرر القروص والإتوات منهم وتسخيرهم فى محاربة بعضهم بحسن البصائع وحتكار الأسواق وقد دفعته هذه الحالة النفسية إلى صروب من التحريم لو أحدث بها أوروبا الاستعمارية بعده لما قام لها قائمة ولا جمعت ثروتها الصحام التى كان يحق إنها لا تجمع من تجارة بريئة ولا من ربح حلال

وبما يشير إلى حالة النفسية التى دفعت لوثر إلى التشدد فى حظر المحرمات ودرائعها لكى يلم بالحالة النفسية التى تلقى بها المسمون بحف المصارف والشركات الأوروبية على بلادهم وسيطرتها على حكوماتهم وشعوبهم ، فما بيع من صرر المرابين بالشعوب الأوروبية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر أن يفقدهم كرامة أوطانهم وأن يدل رؤسهم وموسسهم كما فعلت المصارف والشركات الأجنبية بالشعوب الإسلامية مد أعارت عليها مؤبده بحيوش الدول من ورائها . فهذه المصارف والشركات هى التى مهدت للامتياز الأخصيه سبيلها وهى التى نصت شباك الديون لتسريع العرو والاحتلال باسم محافظه على الحقوق وصمان سدادها ، وهى التى تدرع بها الساسة لحق النهصاب الوطنية فى إيديها وإتقالها بالقيود والأعباء التى تعجزها عن محاربة العرب فى صباعته وتجربه وبكف للاستعمار أن يشب أطعاره أبداً فى أيدىها

فإذا حق للمصالح الكبير «لوثر» أن يتشاءم من المصارف والشركات وأن يحسب ثروتها الصحام فى عدد السرقات المدعونة ، وهى لا تحصى على استقلال الأمم ولا يملها للواعين عليها ، فحقق بالمسمين - ولا ريب - أن يتشاءموا من تلك المصارف

والشركات مرات وأن يستريحوا بها ولا يروا فيها لأرل وهذه ما يعريهم بالتشبه بها والتسابق بينهم على مهاجتها ؛ فهي نلاء تعودو منه وأحصدو من قدوته ، ولهم العذر كل العذر إذا أعرفوا في الخوف منها حتى أوحسوا حيلة من حيرها الذي لم يعرفوه ؛ لأنهم عرفوا شرها ولم يسلموا من ثلاثه أعوامًا طولًا قد طالبت بحساب المصائب بأصعاف ما طالبت بحساب الأيام .



عنى أن الإسلام بمسه قد ظهر في إبان حالة نفسية تشبه الحالة التي أصابت العرب بين القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر ، وتشبه الحالة التي أصابت المسلمين على أيدي المستعربين وقد كان ما حرمه الإسلام من الربا ودرائمه نلاء كهذه النلاء الذي شقت به شعوب الغرب وشقيت به الشعوب الشرقية والإسلامية ؛ فقد كان الرب الذي وحده في الجاهلية مهي عنه وحرمه حقيقةً بالتحريم في كل شرع وكل مكان ، ومن اطلع على وصفه كما كان يوم حكم الإسلام بتحريمه لم يستطع أن يقل فيه قولين ، ولا أن يجعل بدشرائع موقفاً منه غير موقف المحريم الشديد بغير هوادة سيح للمحذول أن يسبل إليه بدرائعه ودواعيه

فسر الإمام الطبري قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَتَقَرُّوا اللَّهَ تَعَالَى لَعَلَّكُمْ تَفْهَمُونَ ﴾

[آل عمران : ١٣٠]

فقال في أسباب نزول الآية ، «إنما كان الربا في الجاهلية في التصعيف وفي السر يكون للرحل فصل ديس هيأته إذا حل لأجل فيقول له : نقصي أو تريدي فإن كان عنده شيء يقضيه قضى وإلا حوله إلى السر التي فوق ذلك ، إن كانت امته متخاص يجمعها امته لبون في السنة الثانية ثم حقة ثم حذعة ثم رابعيًا ثم هكذا إلى فوق وفي العين يأتيه فإن لم يكن عنده أصعبه في العام القابل ، فإن لم يكن عنده أصعبه أيضا فتكون مائة فيجعلها إلى قابلي مائتين ، وإن لم يكن عنده جعلها أربعمائة ، يصعفها له كل سنة أو يقضيه . . .»



كان هذا هو الربا الذي تعاطاه اखाهيون وبعاطاه معهم أهل الكتاب من بلاد يثرب ، وكانت الآيات المتقدمة أولى الآيات التي نزلت بالنهي عنه وتحريمه ، فمعه الإسلام كما يمنعه اليوم كل قانون معمول به في بلاد المصارف والشركات وكل ما استحدثه من صروب المعاملات التي تسمى بالمعاملات العصرية ، وما من قانون يستظم عليه أمر لجماعة لا يحرم هذه المعاملة المذكورة ولا يشدد العقاب عليها

وكأن أحرم ما نزل من القرآن لكرام آيات في تحريم الربا نزلت قبل وفاة النبي عليه السلام بأقل من ثلاثة أشهر وهي من قوله تعالى في سورة البقرة

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَحَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَامْتَنِهِ فُلَا مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ قُتِلْتُمْ فَلََكُمْ رِيعُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١) ﴾ [البقرة ٢٧٥ - ٢٨١]

ولا خلاف بين المسلمين على موضوع الربا الذي وردت فيه جميع هذه الآيات ، فهو ربا الحاهلية المعروف بربا النسيئة ، وأحاديث النبي عليه السلام في ذلك وأقوال المسررين لا موضع فيها لخلاف .

نصى الصحيحين أن النبي عليه السلام قال « إنما الربا في النسيئة »

وسئل الإمام أحمد عن الربا الذي لا يشك فيه فقال هو أن يكون له دين فيقول له أئقضى أم تربى؟ فإن لم يقضه رآده في المال وزاده هذا في الأصل .

روى لإمام ابن القيم ذلك في أعلام الموقعين وقسم الربا إلى نوعين حتى ، وحصى ، فتحريم لأول قصدٍ وعزمٍ انثاني وسيلة فأما الخلى فربا السيئة ، وهو الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية ، مثل أن يؤخر دينه ويزيده في المال كلما أخره راد في المال حتى تصير المائة عنده آلاف مؤلفة ، وفي الغالب لا يفعل ذلك إلا مع من محتاج وأما الربا الخفى فهو دريعة للربا الخلى وهو ما استحدث بعد الجاهلية من بيع الخمس والخمس على غير سوء ؛ فبباع الدرهم بدرهم وزيادته وتضاع الكيلة بكيلة وريادة ، من غير مطالب أو تأخير حسابا للحكم القاطع في ربا النسبة ، ويسمى هذا الربا ربها الفصل لريادة أحد المتبعين على الآخر ، ويقول ابن القيم به من البيع الذي يتخذ دريعة لربا المصوع ، وهو حرام حيث يكون دريعة لحرام ، ولا اتفاق على القطع بتحريمه لاختلاف بعض الصحابة فيه كعبد الله بن عمر وابن عباس ، وابن الزبير ، وزيد بن أرقم ، وسعيد بن المسيب ، وعروة ابن الزبير ، وما يحرم سدا للدراغ يباح للمصالح كما قال الإمام ابن القيم في الجزء الأول من أعلام الموقعين^(١)

والحكم الفصل في هذا البيع الذي كانوا يتحدونه دريعة للربا قول النبي عليه السلام : «الذهب بالذهب والفضة بالفضة والتمر بالتمر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلاً بمثل سوء يسوء يداً بيد ، فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إن كان يداً بيد . . .» .

وواضح من هذا الحكم أنه يحرم الربا الذي ستروه باسم البيع والشراء ، مما يكون لأحد أن يشتري صفاً بصفة مثله على غير سوء إلا أن يكون سفيهاً أو مضطراً والسفه والاضطرار كلاهما مطلق للبيع المشروع ، فإذا اختلف الصنفان قبيحة فلا حرج هي المديعة لأنهما يختلفان بالمقايضة ، فلا وجه لتحريمها ولا التماس بين البيع المحلل والربا المصوع .



وبالمقارنة بين الأديان الكتابية بعد تلخيص الحكم الإسلامى فى مسألة الربا . نعم أن السابقين لا حجة لهم فى اختصاص الإسلام بالسفد لما يرفعونه من تعويقه أصل الاختصاص بتحريمه هذه المعاملات ؛ لأنه لم ينفرد بتحريم الربا بين هذه الأديان ،

(١) راجع الجزء الثالث من تفسير المنار

حتى ما كان من قبيل اليسوع التي تدعى لربنا وراء ستار من البيع والشراء ، فهذه أيضا قد حرمتها المسيحية على ما تقدم في رسالة «لوثر» التي أحدث بها جميع المذاهب مع مذهب الكنيسة البروتستانتية؟

وبعبارة أخرى إلى المقدرة بين الأديان الكتاسية يعلم أن هؤلاء الباقدين لا حاجة لهم أصلا على لإسلام فيما حرمه من ربا السبئة أو ربا الفصيل بأنواعه - كما حرم الإسلام من هذه المعاملات كل تصرف فيه ظلم واضطرار وأكل للحقوق بالباطل وابتزاز للأموال في غير عمل ولا طائر - وازدهار الخسارة مرهون بالعناء كل تصرف من هذا القبيل ، غير مرهون على دعمهم بحمايته والإعصاء عنه وعن ذرائعه ، وفي وسع المصارف والشركات أن تتجنبه وتقصى في عملها حيث كانت في البلاد الإسلامية ، فليس في الإسلام نص ولا تأويل يحرم التصرف السافع الذي لا اضطرار فيه ولا اعتصاب للحقوق ، وما كان من قبيل الاضطرار والاعتصاب في أعمال المصارف والشركات فقد حرمته القوانين الوضعية بما اشترعته من قيود الرقابة وحدود الربح والفائدة ، مما استطاعت حكومة من حكومات المنحصرة أن تقب مكتوفة اليدين لتطلق أيدي المراهبين في تشمير الديون بغير ثمره لمسدين ، وبعبارة أخرى غير ربح الدائن ، تتحكم في فرائس الصك والاضطرار

ولا يجب أن ندع هذا الموضوع قبل الإنعاج في هذه العجالة إلى مذهب العلاسفة والعنفاء في الربا بعد الإنعاج إلى مذهب الأديان فيه

فمن أقدم النحوت الفلسفية عن الربا بحث المعلم الأول أرسطو - في كتابه عن السياسة - ومذهبه فيه أنه ربح مصطعب لا يدخل في باب التجارة المشروعة ، وعنده أن المعاملة على أنواع ثلاثة - معاملة طبيعية وهي استبدال حاجة من حاجات المعيشة بحاجة أخرى كاستبدال الثوب بالطعام ، ومعاملة صناعية وهي استبدال النقد بحاجة من حاجات المعيشة وهي التجارة التي لا حرج فيها ، ومعاملة مصطعبة مبنية وهي اتحاد النقد بنفسه سعة تباع ، فإما حق النقد أن يكون وسيلة للمبايعة ومعيارا نعرف به أسعار السلع المختلفة ، وأما اتحاده سعة تباع وتشترى فهو خروج به من عرصه وابتدال للتجارة في غير مصلحتها

واعتمد الخبير الفيلسوف توما الأكويسي - حجة المسيحية في القرون الوسطى -

رأى أرسطو هذا في النقد فأوجب به تحريم الربا من الوجهة الفلسفية وأخرج من تعريف الربا كل تصرف لا يحدث فيه تبادل النقد فعلاً ، وإنما يؤخر فيه إعطاء النقد لسداد ربح أو أجرة أو ثمن بضاعة . . وعقب توما الأكويسي أتباع نظروا في تعريف الربا من الوجهة الفلسفية العلمية فلم يحسموا منه ما هو بمثابة تعويض الدائن عن فوات ربح كان في وسعه Lucrum Cessans أو تعويضه عن خسارة أصابته من جراء ديبه Damnum Emergens أو عن خسارة أصابته من جراء المماطلة في الوفاء بحقه في موعد السداد المحدود .

ودرج الملاسفة على اعتماد رأي أرسطو ونوما الأكويسي في النقد إلى هاتحة عصر الفسفة الحديثة ، فقال دافيد هيوم Hume في كتاب المحاصرات السياسية الذي طبع سنة ١٧٥٢ « أن النقد ليس مادة ولكنه أدواتها . » وأنه ليس دولاباً من دواليب التجارة ولكنه الزيت الذي يلين مدارها »

وبدأ فلسفة الاقتصاد الحديث بدراسات «أبي الاقتصاد» آدم سميث Adam Smith (١٧٢٣ - ١٧٩٠) وهو معاصر للميدسوف دافيد هيوم ، ورأيه في ربح الأرض أنه إذا نكاثر في حساب الثروة العامة كان من قبيل الكسب بغير عمل ، وهو لا يجمع الربح من الديون ولكنه يحده ويستحسن الإفلاس من قيمته ، وعلى هذا الرأي درج الاقتصاديون المحدثون إلى عهد المذهب الاقتصادي الجديد الذي هدم كثيراً أو بدل كثيراً من آراء الاقتصاديين السابقين ، ولكنه حفظ على رأيهم في استحسان الإفلاس من ربح الديون ورغم أن الصيل منه يشجع المقرضين على الانتفاع بالأموال المدخرة ولا يرهقهم بأعباء السداد أو يحرمهم ثمره العمل الذي يحتدبون الأموال المدخرة إلى أسواقه بدلا من تعطيلها في حرائر الشركات وودائع الصناديق .



وتعتبر قضية الربا في القرون العشرين من القضايا المؤجلة أو المعجلة ، إلى حين ؛ لأن الانقلابات التي تجمعت من حوادث هذه القرون قد نقلت القضية من البحث في الثمرة إلى البحث في حدود الشجرة من أصولها . كانوا يسألون من قبل عن ثمرات الأموال المخيلة أو المحرمة ولمن تكون ؟ فأصبحوا اليوم يسألون عن الأموال من مصادرها إلى مواردها لمن تكون كلها ومن هو صاحب الحق لأول في ثمراتها ؟

فالاقتصاديون الماديون يسكرون مدث رؤوس الأموال أصلا ، ويرفضون السماح للفرد بمث شيء يمكن أن يسمى مالا أو رأس مال ، ولا معيار عندهم لحق الفرد في أحوز العمل ، لا ما تفرصه له الجماعة من بقعة على قدر الحاجة إليها ، ولا موضع للكلام عن الأرباح المحيطة أو المحرمة حيث لا يكون رأس مال ولا يكون أصل معترف به تفرع عنه الفواصل من المكاسب والأجور .

وعير الاقتصاديين الماديين يعترفون للفرد بحق الملك وحق حيازة لأموال ولكمهم ينتفون في توزيع المرافق الكبرى شئنا فثشا إلى الملكية العامة أو الملكية على المشاع باسم التأميم أو الاستيلاء ووضع خطط التعمير

والمدهبان معا يتفقان على ضرورة اخذ من الثروات الكبيرة بعد استيفاء جميع الضرائب والرسوم ، فإذا بقيت لصاحب المال حصة من الربح تريد على مقدار معلوم أحدثها الدولة باسم الأمة ، وماقا لمبدأ من مبادئ التشريع مصططح عنه بين أم الحاصرة التي تكثر فيها الثروات الصنخام وتكثر فيها البقبات العامة للعمير والمعونة أو للحبيطة والدفاع .



ونحن لا نريد أن نقرر هنا بين الإسلام والديانات الكتابية في قضية الربا بأواعه ولكننا نريد أن نقرر بينه وبين المذاهب الاقتصادية التي يظن أصحابها أنهم يحيطون بحكمة التشريع عامة في جميع العصور ، لأنهم حسبوا أن فترة من فترات الزمن تستوعب هذه الحكمة وتفرع منها على نحو لا يقل المراجعة والتعديل ، فإذا حيل إليهم في وقت من لأوقات أن الحاصرة مرهونة بنظام معلوم في المصارف والشركات خطر لهم أن يفرضوا هذا النظام بعجزه وعجزه على الماضي والحاضر والمستقبل في المشرق والمغرب وبين جميع الملل والأقوام ، وطلبوا إلى أصحاب العقائد أن يسحبوها وإلى أصحاب الشرائع أن ينقصوها ، وإلى أصحاب المبادئ الخلقية والعكرية أن يقتنعوها من حدودها ، واحترأوا على من يناقصهم ويظهر إلى ما فوق أبوههم فأنهموه باجمود والكسة وألقوا عليه تبعة الفساد والمحنة بالعقول إلى الورداء .

وها هي دى قواعد الحاصرة التي يتعلون بها تتطلب اليوم من نظم الاقتصاد ما

لم يكر تتطلبه قبل خمسين سنة ، وسوف تتطلب بعد خمسين سنة ما لم تتطلبه اليوم ، فما هو الميزان العادل الذي تصح فيه امورية بين المذهب وبين الدين ؟ هل نبيع لهذه المذاهب المتقلبة أن تعرض سلطانها على الدين الذي لا مزية له إن لم تركس منه صمائر الأمم إلى قرار مكين ثابت على تعلب الرعارع والأحوال ؟ هل ننتظر من الدين أن يعرقل هذه المذاهب ويأخذ الصواب منها يذب الخطأ فيحرم الصواب والخطأ على السواء ؟

لا هذا ولا ذاك

بل يخصص كل مذهب إلى مداه المقدور ، ويسع الدين لأحداث الرمس فلا يتصدى لها في محارها ولا يمنعها أن تذهب إلى مداها ، وأن تصطرب اضطربها لتستقر لها تمحصه الأيام :

﴿ فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيدُهْبُ حُفَاءٌ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الرعد ١٧]

وتلك هي مريه الإسلام بين المذاهب والأديان ، لا يقف في طريق رأى صالح ولا يحول بينه وبين التحارب تبعد منه ما لا سبيل إلى قبوله وتبقى منه ما هو صالح لسفاه

وتلك الرعارع التي تمخضت عن حوادث القرون العشرين ينظر إليها الإسلام وهو ثابت على قرره لمكن ، فلا يمنع صالح منها أن بثت صلاحه ، ولا يدع لفساد منها أن يطفئ بفساده طغياناً لا رجعة فيه

إنه لا يجمع الملكية العامة ، بل يأمر بها في مرافق الجماعة ، ولا يبيع لأحد أن يملك موارد الماء والبار والكلأ ، كما جاء في الحديث الشريف^(١) ، ومن فقهاؤه في مذهب الطاهرية من يشترط العمل لاستحقاق الكسب حتى في تأجير الأرض وورراعة الشجر وحسب الشمرات

ولا يبطل الإسلام ملكية الأحاد ، ولكنه يحول الجماعة أن يعتسب لها نصيباً منها بقلده الإمام تفويض من الأمة ، وتريد حصصة الجماعة كيف رادب فلا يكر الإسلام هذه الريادة ، لأنه يحرم كبر الذهب والعصبة ويأمر بسوريع الثروة بين الناس

(١) روى ابن ماجه بإسناد صحيح عن أبي هريره قال قال رسول الله ﷺ ثلاث لا يجمع الكلأ والماء والبار وروى أحمد وأبو داود والناس شركاء في ثلاثة الكلأ والماء والبار

﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ [الحشر: ٧٠]

وقوام الأمر كنهه فيما يسبح ويمع مرجع واحد ثابت على الرمن ثوب الجماعة الشريفة ، وهو المصلحة العليا التي تتقدم فيها مصلحة الكثير على مصلحة القليل ، ويتقدم فيها حساب الرمن الطويل على حساب الرمن القصير

ولتكن المصلحة ملكاً أو ربحاً أو تجارة أو مرفقاً تتداوله لأيدي ماسم من الأسماء حياً بعد حين ، فم كان فيه ظلم وكره وأكل للأموال بالباطل فهو حرام ، وم برئ من هذه الآفات جميعاً فهو حلال لا يمسعه أحد ، ومن معه من رعية أو إمام فهو المخلف بعقيدة الإسلام .



ويقال عن حدود الخراء إجمالاً ما يقال عن الرما بأنواعه ، فلا حجة لمن يحتص للإسلام بالنقد في مسائل الحدود ، لأنه لم يصرص على حرية من الخرائم عقاباً أقسى ، فرصته لأديان الكتابية قبله ، وم فرضته الشرائع لموضوعة في أوامه

ولا حجة لمن ينقد العقوبات ؛ لأنه يقارن بينها وبين عقوبات العصر الحديث ، فإن الحدود في الإسلام بية لا تناقص مصدحة الجماعة في رمن من الأركان

ولقد كانت الشريعة الإسلامية ضرورة لا محيد عنها في إبان الدعوة الإسلامية ، فلم يكن من الميسور ولا من المنقول أن تلت الأمة الإسلامية حقبة من الرمن على شريعة الجاهلية أو تحصى في حياتها العامة مهلاً بعير شريعة يدين بها المحاكم والمحكوم ، وبرت شريعتها في حبيها على مثال لا تعصمه شريعة عاصرتها في حميتها ولا في تفصيلها ، ونعاقبت بعدها العصور وما في عارض من عوصها حالة لم تقدر لها الشريعة كمايتها من التصرف والتوفيق .

ولس في هذ الكتاب بحاجة إلى أن بصيف شيئاً في موضوع الحدود إلى ما أحملناه عنه في رسالتنا عن الشيوعية والإسلام ؛ فإن الإقصة في النحوث المفهية ليسب من أعراص كتاب هذ ولم تكن من أعراص ذلك الكتاب ، وبحسبنا من مسأله الحدود أن نخلو الشبهة عن قواعدها ونذع بالمسريد أن نوسع في شروحهها وبفريعاتها حيث يطيب به المرء منها ، فربما استقرب حكمة الإسلام على حلاء الصوعد وتوطيد القاعده مسلمه بقام عليها ما بقام من ناء سديم

تتل الشريعة الإسلامية في الحرية العربية على عهد الجاهلية ، يوم كانت شريعتها العالمة بين جميع القبائل العربية شريعة العارات التي تستباح فيها دماء المملوب وأمراله وسأؤه وكل مملوك له في حرة الفرد أو حرة القبيلة ، وكان أهل الكتاب يديون شريعة موسى التي لم يطلها السيد المسيح ، ولها حدود مفصلة في التوراة وقصاص تؤحد فيه لعين بالعين والسن بالسن ، كما ذكرها القرآن الكريم

«إذا جاء الإسلام يعقوبات لا تصلح لعهد الدعوة لم يعط التشريع حقه في ذلك العهد ولا في العصور التالية ، ولكنه يعطى التشريع حقوقه جميعا إذا صلح لزمانه ولم يقطع صلاحه لما بعده ولم يمتنع فيه باب الاحتشاد عند اختلاف لأحوال ، فيشتمل حرائره على جنابات الحدود والقصاص وعلى الجنابات التي تستحدثها أحوال المجتمعات ويأخذها الشارع بما يلائمها من موحد الخراء»

«وهذا ما صنعه الإسلام في جنابات الحدود والقصاص وهي غيرها من الجنابات التي تدخل عند العقهاء في باب التعرير ، وعينا أن يذكر

أولا - أن الحدود مفصلة بشروط وأركان لا بد من بواقرها جميعا بالية القاطعه ولا سقط الحد أو انتقل إلى عقوبات التعرير إذا كان ثبوته لم يبلغ من اليقين مدع الثبوت الواجب لإقامة الحدود .

وأن يذكر - ثانيا - أن القصاص مشروط فيه العمد وإرادة الأذى بعينه ، فإن لم يثبت العمد فالخراء الدية أو التعرير ، وقد يحتمد أو يكتفى بالدية دون التعرير أو بالتعرير دون الدية .

ولتذكر أن حرائم التعرير تشمل جميع الخرائم التي يعاقب عليها بالسحر أو بالعمامة أو بالعقوبات البدنية .

ولتذكر في جمع هذه الأحوال أن الشريعة الإسلامية توجب درء الحدود بالشبهات لذلك هي ركن من أركان الجاية أو ركن من أركان الشهادة ، فلا يقام الحد ، ويطرولى الأمر في التأديب بعقوبة من عقوبات التعرير

ولتصرب لمن بأكر جنابات الحدود وأشيعها في الجاهلية العربية وجاهليات الأمم في عفوانها ، وهي حاية قطع الطريق والعيث في لأرض بالفساد ، وهي هذه الجاية يقول القرآن الكريم

﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُقْفُوا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٤) ﴾ [المائدة ٣٣، ٣٤]

مهده حماية لها عقوبات متعددة على حسب الأضرار والخرثر ، ومنها القتل والصلب وقطع الأطراف والنفى وهو معنى السب من الجماعة إما بالسحر أو بالإقصاء ، ويلزم العقاب من لرمه أحكام الدين ، فإذا كانت حمايته قد انتهت بالتوبة قبل أن يلزمه قصاء الإسلام فهذا هو لباب الذي فتحه الإسلام لا ابتداء عهد وانتهاء عهد عبر بأوراره وعادانه وانطوى حساب الحماية والعقاب فيه بانتهائه

وأشد هذه العقوبات لم يكن شديداً في عرف أمة من الأمم عوقب فيها من يقطعون الطريق ويعيثون في الأرض بالفساد مع حضور الخدر وكثرة معرباته وقلة الرواجر لاجتماعية التي تحمي المجتمع من أضراره وخرثره ، وقد كانت عقوبات القتل والتمثيل قائمة في جميع الأمم مع قيام لحرمة وقيام أسباب خدر منها ، وظلت كذلك إلى القرن السابع عشر في البلاد الأوروبية التي استقر فيها الأمن بعد المزع و،نظمت فيها حراسة الطريق بعد الموصى التي طعت عليها من حراء فوضى الحوار بين الحكومات .

وتلحق بحماية قطع الطريق حماية السرقة التي لا عصب فيها ، وشروطها أن يكون السارق عاقلاً مكلفاً وأن يكون المال المسروق محرراً علوكاً لمن يحرره يعبر شهة ، بالعأ نصاب السرقة كما يتفق عليه الفقهاء ، وكل جريمة من قبيل السرقة لم تثبت فيها هذه الأركان المشروطة فلا يؤخذ فيها الحاسر بحد السرقة ويؤخذ فيها بعقوبات التعرير ، وعند الضرورة التي يقدرها الإمام يجوز العفو كما عفا عمر بن الخطاب رسول الله عليه عن العلامين السارقين في عام لجماعة .

ولا بد أن نمد نظر الباحث على مدى مئات السنين قبل أن يسأل عن صلاح الشريعة بعصر من العصور ، ولا محل لسؤاله إذ أراد أن يحصر هذه الشريعة في زمن واحد وبيئة واحدة ، ولكنه يحسن السؤال إذا عرض أمامه أحوال لألأم فيها القديم

و الحديث وفيها الهمحى والمتحصر وفيها المسالم المأمون والشرير المحذور ثم سأل هل
فى الشريعة قصور عن حالة من الخالاب التى تعرض لذلك الأمم فى جميع أطوارها؟
وهل هناك عقوبة نصت عليها الشريعة لم تكن صاحبة من تلك الحالات؟

وهكذا اتورد الشرائع التى تحيط بالمجتمعات فى مئات السنين ، وبعبارة الورى
تكثر مافذ الخطأ أو يطل السؤال فلا محل للسؤال (١)



وعى عن القول بعد هذه الاعتبار أن فهم الشريعة بتصوصها لا يغنى عن
فهمها بروحها وحكمتها

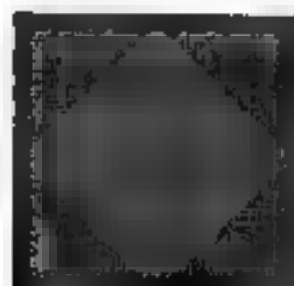
وروح التشريع الإسلامى كما ظهرت فى بصوص الأحكام وأركان الثبوت روح
سمحة حانية إلى العذر وتمهيد الطريق للتوبة والصلاح ، فبست العقوبة عرصاً
مطلوباً لدائه يبادر إليها ولئى الأمر حفيف الصمير معنى من الحرح والمراحة ،
ولكنها ضرورة يدفعها ما دفعتها الشبهة والأمل فى التوبة والصلاح ، وليس الإمام
الذى يتحرج من إقامة الحد فى غير موقعه من الثبوت وتوافق الأركان مخالفاً
للإسلام مقصراً فى إقامة حدوده ، بل المخالف للإسلام المقصر فى إقامة الحدود من
يهجم على العقوبة قبل أن يستوفى أركانها ويدرا كل شبهة فيها تأتى لمصلحة الملتهم
أو لمصلحة الجماعة ، وإما لإمام الحق فى لإسلام بذكر أن إطلاق المدب حير من
إدانة السرى ، وأن التحرح أولى ما يكون عن تعاقب على الحرح فى أمور الدنيا
والدين .

وسياتى البيان عن مهمة الإمام فى تطبيق الحدود والأحكام وتقدير المصالح
والمصروفات فى أمور الخراء وأمر السياسة الشرعية على التعميم ، ولكننا سبهى
بهذه العجالة عن المعاملات إلى عابها إذ عرهما أن الإسلام لا يوجب على الناس
معاملة تضر ولا يهاهم عن معاملة تصيد ، وأنه يؤدى للمؤمنين به حير ما تؤديه
العقيدة الثابتة على تعاقب الأحيال لا تمنع التجربة الصالحة أن تثبت صلاحها
ولا تفرط فى الدائم اللازم دهانا مع العاجل المشكوك فيه .

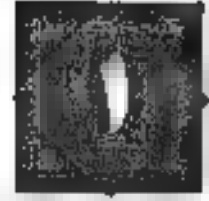
(١) كتاب الشيوعية والإسابة للمؤلف

الفصل
الثالث

الحقوق



الحرية الإسلامية



أصدق ما قيل في الأديان العادية أنها ثورات واسعة ، ولا تقاس السعة في هذه الثورات بامتداد المكان ولا بكثرة العدد ؛ لأنها أوسع ما تكون إذا نشبت في داخل النفس الإنسانية وكنت القوة الثائرة والقوة المتعصبة فيها مملكة واحدة هي مملكة الصمير

ولا نهاية يومئذ لمظاهر التبديل والسخير التي تتكشف بها الثورة في تلك المملكة الصغيرة الكبيرة ؛ لأنها تلحق بكل ما تراوله النفس من شئونها الباطنة والمظاهرة تلحق بالأفكار والهواش الحسية ، وتلحق بالعادات أو لأخلاق ، وتلحق بالعرف والقبول ، وتلحق بالنظم الاجتماعية والسياسية الحكومية ، وتلحق بالحاكمين والمحكومين ، وتلحق بكل مملكة لأنها لحقت قبل ذلك بنلك المملكة الصغيرة الكبيرة ؛ مملكة الصمير !

وأوسع ما تكون ثورة الصمير إذا جاءت من قبل الثورة في تقدير الحقوق إن الثائر لصيق برى به يهدأ إذا انصرج ذلك الصيق ، وبه ليثير كما تثير الريح المحورة والحيوان الخمس ، ما هو إلا أن يرتفع الحاجر ويفتح الباب حتى تهدأ الثورة ويسكن الثائر واشير ، ولكنه إذا وثب وثنه في سبيل حق يؤمن به لا يرجع عنه أو يظفر به كما يطلبه ، وإذا ظفر به لنفسه لم يكف عن الطلب وهو يراه مصعباً عند غيره ، ويكاد يدمس في كل شيء بديراً له بصياغ الحق وحافراً له على حمايته أن يصيح ؛ فربما الثورة الباطنة هي محصاً الثورة الظاهرة ، وطالب الحق هو المطلوب الذي لا يسام عن طلبه ، وهو الرقيب على سريره قبل كل رقيب

ولم تعلن في ثورات العالم الحديثة حقوق عامة للإنسان قبل ثورة الإسلام في القرن السادس للميلاد ؛ لأن الإنسان نفسه لم يكر عاماً فيوليه الدين حقوقاً عامة ، وإنما ولد هذا الإنسان - العام - يوم آمن الناس بأنه يساوي لديه كل إنسان وكل إنسان ، ويوم يطلب حقوقه بواجباته بغير مفرقة بين قبيل وقبيل .

ومن تحصيل الحاصل أن يقال إن حقوق الإنسان لم تكن مطبوعة من ثورة ديمية قبل ثورة الدين الذي دعا الناس إلى عبادة رب العدين ، وإنما توحيد الحقوق العامة إذا وحد صاحبها الذي يستحقها ويؤدى لها فرائضها ، ولم يوجد لهذه الحقوق صاحب مصطلع بها فى ثورة ديمية قبل ثورة الإسلام ؛ إذ لم يكن هناك الإنسان الذى يتساوى فى كل قسيل وكل مكان .

على أن يرجع إلى تاريخ الثورات الاجتماعية أو السياسية قبل الإسلام فلا رها تحالف الثورات الدينية المعاصرة لها هي كبير طائل ، ولا يرى بينها حركة يصدق عليها أنها حركة « حقوق إنسانية » بمعنى من معاني هذه العبارات كما يفهمها هي العصر الحاضر ؛ فربما كان بينها ما يسمونه بحركات الديمقراطية في بلاد اليونان ، ورى بدا لهم من كلمة الديمقراطية أنها من حركات الشعب فهي على هذا حقيقة أن تحسب من حركات الحقوق الإنسانية ، وليس هي كذلك حتى في دلالتها اللفظية التي نشأ منها العلق في فهم حقيقتها ؛ لأن كلمة « ديموس » اليونانية كانت تطلق على الأمة التي تسكنها القبية ، ثم أطلق النظام الديمقراطي عدهم على الحكومة التي تشترك القبائل في انتخابها ، ولم يكن اشتراكها في الانتخاب اعترافاً بحق إنساني يتساوى فيه أحاد الناس ، وإنما كان اعترافاً بالقبيلة وبقاء معارضها واضرابها عن العمل في الجيش وتلبية بغير الدفاع

ومثل هذا الحق في رومة « التربيون » الذي تنحى القبيلة ويشق من اسمها Tribe ، ولا شك لانتخابه بما سمي به اليوم حقوق الإنسان

وقد توالى على اليونان والرومان أنواع من الحكومات الديمقراطية لم يكن لها من مبدأ تقوم عليه غير أنها خطط عملية لأمن الفتنة واستحلاب الولاء من الجندى للجيش ولأسطول من أساء القبائل وأصحاب الصاعقات ، وأية ذلك أن الحكومة الديمقراطية نشأت من الأسبرطيين أصحاب النظم وإجراءات الإدارية ولم تنشأ بين لأثينيين أصحاب الفلسفات والبحوث النظرية ، وليس هذا بالمستغرب من اليونان الأقدمين إذا نظرنا إلى حقوق الانتخاب هي الديمقراطية العربية إلى أواسط القرن العشرين فإن هذا الحق كان يتدرج في المعمم على حسب الحاجة إلى الساجين في مصانع الحرب وفي جيوش مقاتلين ، فباله

العمال في السلاسل الصناعية قبل أن يناله الرأب ، وبالله المنة بعد أن أصبحت عمامة في المصانع تنوب فيها عن الحند المقاتلين ، وناله السود في الولايات المتحدة بعد اضطرار الدولة إلى خدمتهم في المصانع وفي الحيوش على التدرج بين الحربين العالميتين .

غير هذا ولا ريب هو المقصود بالديمقراطية الإنسانية ، فإنها حقوق معترف بها للإنسان وليست حطفاً عمدية يوحسها تكافؤ القوى بين الطوائف وحماهير الناحيين . وليست الديمقراطية الإنسانية بما يتصور بعير عناصره الثلاثة التي لا انفصال بينها وهي مساواة والمسئولية الفردية وقيام الحكم على الشورى وعلى دستور معلوم من الحدود والتباعدات ، وهذه هي العناصر الثلاثة التي نادى بها الإسلام لأول مرة في تاريخ الإنسان

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات . ١٣]

﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [طور . ٢١]

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى ٣٨]

ونبي الإسلام هو القائل صلوات الله عليه .

« لا فضل لعربي على عجمي ولا لقرشي على حشّي إلا بالتقوى »

وهو القائل صلوات الله عليه في خطبة الوداع :

« أيها الناس ، إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كنكم لأدم ، وأدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أبيض فصل إلا بالتقوى » .

وهو القائل صلوات الله عليه :

« يا معشر قريش ، اشترروا أنفسكم ، لا أبيعكم من الله شيئاً ، وإياي عبيد مناف ، لا أبيعكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب ، ما أبيعك من

«الله شبيئاً . يا فاطمة بنت محمد . سبي ما شئت من مالي ، لا أعى عليك من
الله شبيئاً» .

والمال قليل عن هذه الديمقراطية الإسلامية إنها هي الديمقراطية العربية بقها
الإسلام من بيئة الصحراء التي نشأ فيها

وهي كمنة من كدمات العشور التي تخور على الأسماع بغير عناء لأن الطلاقة
شبيهة بالعهود من الصحراء في الحس والخيال

إلا أن الطلاقة الحسية - فيما وراء الفشور - لا تنه حرية الحقوق في أصل من
أصولها التي تقوم عنها . . إنها كصلاقة الريح في الفضاء وطلاقة العصور في الهواء
وطلاقة الأوبد بعيداً من المطاردين والأعداء ، وشتان لحرية الإنسانية - حرية
الحقوق المرعية - وهذه الطلاقة التي يتمتع بها الحيوان والإنسان على السواء بمعدل
عن العوارض والرقباء .

فإذا تركنا هذه الطلاقة في بيئاتها العافلة عنها وبحسنا عن حرية الحقوق في
حكومة من حكومات الجاهلية لم نجد ثمة إلا استبداداً بالأمر كأشد ما عرف
الاستبداد في دولة من دول الطغمة دوات الصولة والصولجان . فقد كانت القدرة
على الظلم قريبة بمعنى العرة واجزاء في عرف السيد والمسود من أمرء الحرية من
أقصاه في الجنوب إلى أقصاه في الشمال . وما كان الشاعر الحاشي إلا قاذحاً
مبالغاً في القذح حين استصغف مهجوه لأن

قبيلته لا يعدرون بدمه ولا يظلمون الناس حبة حردل
وما كان ححر بن الحارث إلا ملكاً عربياً حين سام بني أسد أن يستعبدهم
بالعص وبنس إليه شاعرهم عبيد بن الأبرص حيث يقول

أنت المملك فـوهمهم وهم العبيس يد إلى القيامة
ذل لسوطك مشمداً ذل الأشميقر ذو الحراممة

وكان عمرو بن هند ملكاً عربياً حين عود للناس أن يخاطبهم من وراء ستر ،
وحين استكثر على سادة القبائل أن تذهب أمهاتهم من خدمته في دهره .

وكان النعمان بن المنذر ملكاً عربياً حين بلغ به العصف أن يتحد لنفسه يوماً للرمي يعدق فيه النعم على كل قدم إليه حنط عشو ، ويوماً لعصب يقتل فيه كل طالع عليه من الصباح إلى المساء .

وقد قيل عن عرة كليب وائل أنه سمى بذلك لأنه كان يرمى الكليب حيث يعجبه الصيد فلا يجسر أحد على الدنو من مكان يسمع فيه نباحه ، وقيل « لا حر بوادي عوف » لأنه من عرته كان لا يأوى بواديه من يملك حرية في جواره ، فكيفهم أحرر في حكم العبيد

ومن القصص المشهورة قصة عميق ملك طسم وحديس الذي كان ستيح كل عروس قبل أن توف إلى عريسها ، وفيه تقول فئاتهم عميرة :

فإن أنتم لم تعصبوا بعد هذه فكونوا ساء لا تعاب على الكحل
ودوكم طيب العروس فإني خلقتم لأثواب العروس وللسل

يستوى أن تصح هذه القصة على علائها أو لا تصح منها إلا الرواية والنظم الموضوع فإنها لصحيحة بحورها كل الصحة إذا وهر في أذهب الرواة والسمعين أن الظلم حق للقادر المعتر بقدرته ، وأن إدلال الأعراء علامه العرة هو كل عير . وهو لم يكن هذا دأب الملوك في معهود العرب الأويين لما قالت إحدى النكبات فيما رواه القرآن الكريم على سادها

﴿ إِنْ الْمُلُوكُ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (١)



فالديمقراطية الإسلامية إذن لم تكن سابقاً عما في الجاهلية وورثه الإسلام منها لأن الديمقراطية لم يكن لها وجود في الجاهلية لوجود الإمارة والرئاسة الحكومية ، وما كان منها غير ذلك من قبيل الطلافة المرسلة في الصحراء الواسعة فإنما هو طلاقة مادية كطلاقة الطائر في جوه أو كطلاقة الهواء الذي لا حائق به في فصائه

(١) سورة النمل آية ٢٤

والماء الذى لا عائق له فى محراه وتلك المظلمة المادية - إن حار أن يسميها حرية
فإنما هى الحرية التى يستمتع بها المرء لأنها شئ مرهود فيه لا يجد من يصادفه
أو يزعج فيه .

ولم تكن الديمقراطية الإسلامية كذلك نباتاً منقولاً من تربة أحبية لأن
الديمقراطية الإسلامية ديمقراطية حقوق تلازم الإنسان ، وم نبت قبها من
الديمقراطيات فهو على أحسنه خطط عملية تخليها الضرورة على حسب الحاجة
إليها ، وليس هناك « إنسان » يحق له أن يطلبه إذا فقد القدرة عليه ، لأن هـ
« الإنسان » صاحب الحق فى الديمقراطية باعتباره « إنساناً » مساوياً لسائر أبناء آدم
وحواء لم يكن له وجود مفهوم قبل الدعوة الإسلامية

ثم نبت الديمقراطية الإسلامية فى تربة الصحراء ولا هى تربة الحصاره ، ولكنها
كانت معجرة إلهية مثنها فى الظهور بين الخاهليين كمثل الإيمان بالإله الواحد
الأحد الذى لا يحابى قوماً لأهم قومه دون سائر الأهوام ، ولا يلعب قوماً لأهم
ورثا اللعبة من الأبناء والأجداد .

حق لإنسان والإيمان بالله رب العالمين - كلاهما معجرة إلهية تجلت بها قدرة الله
على غير مثال سابق مسلسل من أسانه فى بيئته ولا فيما حاورها من اليناث .
فإن السوابق التى سلعت قبل الدعوة الإسلامية كانت كسوابق المراض الذى يتطلب
الدواء ولم تكن كسوابق العلاج الذى ينتهى بالشفاء ، وتلك هى السوابق التى
تتحلى فيها قدرة الله على يد رسول من رسله يسعث بالهداية مبهمة موفقة نوحى
من الله ، فيصنع المعجزة التى لم يمهدها أسسها ودواعيها ، لأن أسبابها الخفية
ودواعيها الكمية فى السرية الإنسانية تقوت درع العقول ولا تدخلى فى الحساب

ولسا نحب أن يفهم القارئ من كلامنا أن المعجزة الإلهية تقلب أوصاع الأمور
وتأتى فى أوانها بغير سبب مقنور ، وإمى يريد أن يقول - إن الأسباب لا تنكشف
كلها لعلم الإنسان وإن علم الله هو الذى يحيط بالخوارق التى لا تدخل فى
الحسبان .

فالمرض الذى يؤدى إلى الموت سبب ، والمرض الذى يؤدى إلى العلاج المنقذ
سبب ، فإذا اختلط عليهما السببان وحاء الشفاء من حيث نتوقع الهلاك والفاء

فتلك معجزة من المعجزات الإلهية علمها عند الله ، وأسبابها غير لأسباب التي
تعدرها لها قبل وقوعها .

نشأت الدعوة الإسلامية في بيئة مريضة بأدواء العصبيات وصروب الضلال
في احتلاط من العبادات وخرافات فلو جرت الأسباب التي يدركها في
مجراها المعهود والدعوة التي تأتي من قبل هذه البيئة لن تدعو إلى إله واحد
يتساوى لديه جميع الناس ، ولن تمح الإنسان حقاً واحداً يتساوى فيه جميع
الناس

ولكن هذه الدعوة جاءت بهذا وذاك جاءت بالدعوة إلى رب العالمين وإلى الحق
الذي يتساوى فيه أبناء آدم وحواء ، وحاءت بذلك لأن إنساناً واحداً خلق الله فيه
من قوة الروح ما يكافئ تلك العصبيات جميعاً وتلك الضلالات جميعاً وينعلب
عليها ويحربها في غير مجراها .

ذلك هو رسول الله ،

وبك هي المعجزة الإلهية

وأسباب نفهمها الآن ، بعد أن هدينا إليها ، ولكن لم نكن لفهمها لو رقبناها
قبل وقوعها و تطربناها من حيث ستطر الأسباب العاملة في حياتنا ، ولا سبب
الأسباب التي نحسبها اليوم من الأسباب « الطبيعية » دون سواها معجزة من
المعجزات الإلهية أن تجيء الدعوة إلى رب العالمين من صحراء لا تعرف غير الفوارق
بين العصبيات والأسباب .

ومعجزة مثلها أن يجيء من تلك الدعوة حق الإنسان الذي يرفعه عمله ولا
يرفعه نسه ، أي كان هذا التسبب بين الأعراق والأقوام

ولا انفصال بين المعجزتين بعد الروية في السبب الذي تنبعثان منه والنهاية التي
تؤديان إليها .

كلنا المعجزتين صادرة من يسوع واحد . فمن آمن برب العالمين لم يؤمن برب
فريق دون فريق من الناس ، ومن آمن بالمساواة بين أعمال الناس وحقوقهم فمن
يؤمن برب غير ربهم أجمعين .

ويقال بحق إن الإنسان يتطلب المثل الأعلى في الصفات الإلهية ، وإنه من أجل هذا لا يتره حاكمه عن صفة يقل الاتصاف بها في حق الله

ومن الهدى أنه لا يتخير حاكمه منرها عن المحابة بين رعاياه إذا جاز عنده أن الله لا يتره عن المحابة بين خلقه في غير عمل ولا مربة

ملا حرم كان الإيمان برب العالمين بيماناً بحق العدل والمساواة . وإيماناً بالديمقراطية التي تقوم على هذا الحق في الأرض وفي السماء .

والله المثل الأعلى .

والله في عقيدة المسلم هو أحكم الحاكمين .

فهو الحاكم الذي لا يظلم أحداً ولا يحاسب أحداً بغير تكليف ، ولا يغير ما بالعبد حتى يغير ما بنفسه ، ولا يأمر الحاكم بأمر لا كان هذا الأمر من شريعته في عباده ، ومن نواياه في قصائه وقدره

﴿ وَلَا يَظْهَرُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ١٩]

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْهَرُ مُنْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَةً يُصَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١٠]

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعْتَمِرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُعِيرُوا مَا أَنْفُسَهُمْ ﴾ [الأفان : ٥٣]

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُعِيرُ مَا يَقَوْمُ حَتَّى يُعِيرُوا مَا أَنْفُسَهُمْ ﴾ [الرعد : ١١]

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥]

﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : ٢٤]

ودا كان هذا عهد الله على نفسه أمام خلقه والثورة لى جاء بها الإسلام فى عالم الحقوق أرفع وأوسع من أن تحسب من تلك الثورات التي سددت ونتهى فى نطاق الحركات الاجتماعية أو السياسية . إنها ثورة كوية برنح بالحقوق والقيم فى

نظر الإنسان إلى أعلى فأعلى وإلى أكمل فأكمل فلا تبقى له من علاقة بيسى
بوعه أو بالكون اندى يحتويه ، لا ارتفعت بمقدار ما ارتفع عبده من حق ومن قيمة



ومن أجمل ما فى الإسلام أن هذه الحقوق العلي فيه لا تحرم الإنسان حقه فى
الحياة ولا ترهده فى طيئانه ومحاسنها ، فحق الصمير لا يحور على حقه فى الحياة
الدنيا وهو مأمور بالسعى والعمل والاستمتاع بما يكسبه بسعيه وعمله من نعمتها
ورببتها ، أمره بذلك كأمره برعيه حقه من العدل والحرية والكرامة .



﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ [البقرة : ٦٨]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ [البقرة : ٢٦٧]

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِدَّ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾

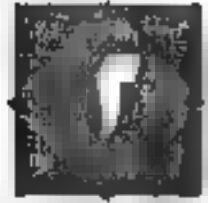
[الأعراف : ٣١]

﴿ لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ ﴾ [المائدة : ٨٧]



ونقول إن الأمر بحق الحياة من أحمل ما جاء به الإسلام لأن الإنسان لم يتعود
من الدين قبله أن يأمره بهذا الحق ، وإما تعود من أديان كثيرة أن تنهاه عنه ، وأن
تعمل زهده فى الأرض شرطاً لخطوته فى السماء .

الأمة



أمر مسلمون بالحق الإلهي فجمعوا الأمة مصدرًا لجميع السلطان ومرجعًا لجميع المسئوليات وهذا هو الحق الإلهي إذا فهم على سوائه ولم تحرف به الأهواء إلى غير معناه ، خدمة للمطامع وترحية لسمارب عدد دوى السطان

لا مصدر للسلطة العامة في الإسلام غير الأمة

ولا مرجع فيه للمسئولية العامة غير الأمة .

ولا تعارض بين هذا وبينصوص الكتاب وسنة الرسول

فإن النصوص والسنة لا تقوم بدورها ، من يقوم بفهمها ويعلمها ويعمل بها ويزديها على وجوهها ، وكل أولئك تشتمل الأمة بما انطوت عليه من حصنها وعامتها ، وجمدة ذوى الحن والعقد والعاملين من علمتها وسوادها

فهى التى تأمر بنصوص الكتاب والسنة ، وهى المسئولة عن صوابها وحفظها حيث ائتمرت به واتفقت عليه أو اختلفت فيه

وأول ما نكرر من ذلك الحق كان في حياة النبي ﷺ ، فيه كان مأمورًا بمشاورة أمته ، وكان الأمر بينهم شورى في كل شأن من الشؤون غير التبعية الذى حصه الله به ولولاه لم تكن الدعوة إلى هذا الدين .

[شاورهم في الأمر] [آل عمران ١٥٩]

[وأمرهم شورى بينهم] [الشورى ٣٨]

ولقبص عليه السلام إلى الرفيق الأعلى كانت ولاية الأمر بعده لم تولى لأمة وتبايعه على خلافة ، وتولاها من تولاه من الخلفاء الراشدين بالبيعة العامة ، ولم يلع أحد بعدهم حقًا فى ولايتها بغير هذه البيعة

ولا يوجد فى الإسلام حق بغير بيعة فحق الأمة فيه وسعها متكافئ مساوياً

حقها تام وتبعته تامة .

حقها تام لا يصدده صه ذو سلطان بعير رصاه ، وتبعته تامة لا يعصها من جرائره عنر من الأعداء

وهي متكافلة متصامة في حقوقها وتبعاتها ، لأنها متكافلة متصامة فيما يصيبها من عواقب أعمالها . ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لِّأُتْصِبَ الدِّينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾^(١)

ولا عنر لها في ضلال تساق إليه متبعة لأسلافها ، ولا عنر لها في ضلال تساق إليه متبعة لأحبارها وكبرائها ، فإن اللائمة لتعود عليها في ذلك كله كما عادت على الدين من قبلها . .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَتَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة ١٧٠]

﴿ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَمْرٌ يُؤَفِّكُونَ ﴾^(٢) اتحدوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴿ [التوبة ٣٠ ، ٣١]

قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴿ [النساء ٩٧]



هذه المسئولية التامة المتناسقة بين طوائف الأمة وطبقاتها - تمهيداً شريعة تامة متناسقة في عقائدها وتكاليفها ، ولولا هذا التناسق في الدين لإسلامي لكان اصطلاح الأمة بمسئولياتها العامة من البقائص التي لا تعقل في قسطاس العدل أو في مطلق الواقع ، لأنها تسوم الناس من حاسب ما تبطله من الحجاب الآخر

والأحبار والكهان في الأمم الخالية كانوا يقومون بينها هيئة معروضة عليها مرسومة بمراسمها الموروثة وأريائها المقررة وإتاواتها المصروبة عليها كأنها صرائب

(١) سورة الأنفال الآية (٢٥)

الدولة ، وكانت هذه الهيئة قائمة في الطبيعة تهتدي فيهندي من يليها ، وتصل فلا يملك أحد سبل الهداية من ورائها . وكان سبل الهداية الوحيد أن يتصدى سى من الأنبياء لهذا الأسد المغنق فيحطمه ويهتج فيه الشفرة التى يسلكها من يتطلع إلى بصيص من النور بطالعه من لدنه

ولو فرض الإسلام على الأمم هيئة كهذه الهيئة لما استقام للأمة حقها العام ولا سسى لها أن تصطلع بتبعاتها العامة . إلا أنه أعفاها من طعيان الكهانة وفتح أمامها مباح للفكر الإنسانى لم تكن مفتوحة من قبله ، فجعل الصريحة حقاً لكل قادر عليه من أولى الفهم والدراية ، وجعل العلم وطبعه عامة يطلها من يشاء ويتولاها من يشاء ولا سلطان له على الناس غير سلطان القدوة الحسنة والإقناع بالحجة والبيبة الصادقة ، وهو المسئول إن حان هذه الأمانة ، والمستمعون له هم المسئولون إن سمعوها فلم يستجيبوا لتدائنها

﴿ رَتَكُنْ مِنْكُمْ مَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾
[آل عمران : ١٠٤]

وما هتكت الأمم من قلوبهم إلا لأنهم ﴿ كانوا لا يتناهون عن منكرهم فَعَلُوهُ ﴾
[المائدة : ٧٩]

وإن كلمة « المنكر » وحدها لكافية فى الدلالة على هذه الفريضة العامة . فإنها من الإنكار الذى يشيع بين الناس فلا يحرى بينهم أمر من الأمور أنكره ولم يتعارفوا عليه . فإذا اصططحوا على المنكر وحملوا الأمر بالمعروف فتت أيضاً حريرتهم يحاسبون عليها عادم من حقهم أن يتجسوها ، ولا ظلم ولا حيف فى هذه المسئوليات العامة بين الأمم من الظلم والحيف أن يتساوى المعاهون والعرفون ، أو تتساوى جماعة الجهلاء الذين نفعتهم ريلات الجهل وبلاياه فجهلوا جهلهم للخلاص منه ، وجماعة الجهلاء الذين سدرو مع الجهل ولم يشعروا بويلاته وبلاياه . ولا يحسن فى قسطر العدل على كل حال أن تكون الأمة مصدرًا لجميع السلطات إلا إذا كانت مع هذا مرجعًا لجميع السعات والمسئوليات

﴿ ذِكْرٌ بِمَا قَدْ مَتَّ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [آل عمران ١٨٢]



ولا يحسب على الإسلام أن المسمين لم يحفظوا حقهم ولم يصطدعوا
سبعهم ، وإنما يحسب عليه أنهم حفظوا الحق ثم بدموا على حفظه واضطلحوا
بالسعة ثم بدموا على الاصطلاح بها ، أو يحسب عليه أنهم صيغوا الحق فلم
يصبهم بلاء من بصيغتهم إياه ، وأنهم تكصروا عن التسعة فلم يصبهم بلاء من
الكوثر عنه . ولم يحدث من هذا ما يدعوا المسلم إلى الندم على إيمانه بدينه ،
ولكنه قد حدث منه مراراً ما يدعوه إلى الندم على التفريط في أوامر الهدى الدين
القرين وبواحيه



ولعله من علامات الخير أن تدول الدول وأن يذهب ما أفسدت من أمور الدين
والدنيا وتبقى للمسلم عقيدته في حقوق أمته مصونة في قلوب المحافظين والمجددين
محمولة في آراء الوادعين والشائرين ، يقول أشدهم محافظة ما يقويه أشدهم قلقاً
وثورة ، ويتلاقى الماصي والمستقل لديهم أحميم على كلمة سوء يسمعها من شيء
بعد أربعة عشر قرناً كما سمعها أسلافه قبل أربعة عشر قرناً في صدر الإسلام
وابان الدعوة الحميدة

يقول إمام من أشهر الأئمة المتأخرين بالمحافظة على القديم

إن كتب الكلام (كلها مطبقة متفقة على أن منصب الخليفة والإمام إنما
يكون بمباينة أهل الحل والعقد وأن الإمام إنما هو وكيل الأمة وأنهم هم الذين يولونه
ملك السلطة وأنهم يملكون حلعه وعزله وشرطوا لثلاث شروط أحسنوها من
لأحاديث الصحيحة وليس لهم مذهب سوى هذا المذهب . » (١) .

ولا يفوتني في ختام هذه الكلمة عن حقوق الأمة أن سبه إلى حقيقة النسبة إلى
أمة حيث وردت في القرآن الكريم فإن كتاب الله يعنى بهذه الكلمة أن الخطاب
الإلهي موجه إلى الأم عامة لا تستأثر به أمة ولا تحجب عنه أم خلافاً لمن قال من

(١) الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتابه عن حقيقة الإسلام وأصول الحكم

بى اسرائيل . ن لأم ١ لا تتلقى خطاباً من الله وإيهم وحدهم أمة إسرائيل . قد استأثروا بهذا الخطاب دون خلق الله .

ويذكر عيسى ذلك أن كلمة « الأميين » قد وردت في القرآن الكريم مقابلة لأهل الكتاب أو لأهل الكتاب من بى إسرائيل خاصة في غير موضع ، فالأميون قد وردت في سورة آل عمران مرتين منسوبة إلى كل أمة غير بى إسرائيل

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ [آل عمران : ٧٥]

﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ﴾ [آل عمران : ٧٠]



وقد وردت بهذا المعنى حيث جاء في القرآن الكريم أن الله ﴿ بعث في الأميين رسولاً ﴾ . . . تكديماً لدعوة الذين يرعمون أن الله تعالى لا يخاطب الأمم ، وتذكيراً لهم بأن الأمة هي موضع الخطاب من الله كما بعث إليها برسول .

﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : ٢٠]



الأسرة



لأسرة هي الأمة الصعبة ، ومنها تعلم النوع الإنساني أفضل أخلاقه الاجتماعية ، وهي في الوقت نفسه أحمل أخلاقه وأفعها

من لأسره تعلم النوع الإنساني الرحمة والكرم ، ومنه في أخلاقه جميعاً ما هو أحمل منهما وأفع له في مجتمعاته .

فالرحمة في اللغة العربية من الرحم أو القرابة ، وهي كسك في النحاح الهدية الحرمية لأن كلمة « كاسد Kind مأخوذة كسك من الرحم ، وكلمة الطفل التي تتمثل الرحمة كلها في العطف عليه مأخوذة منها

والكرم في اللغة العربية مأخوذ من السب الصريح الذي لا هجته فيه ، وهو في اللغات الهدية الحرمية مأخوذة كذلك من « الحار Genre والمنسوب إليها هو الكرم .

وإذا تتبع سنن الفصائل والمسابح الخلفية الممودة بلعابها في أصل من أصولها على الأقل مصدرًا من مصادر الحياة في الأسرة فالعيرة والحرمة والوفاء ورعاية الحرمات كلها قريبة السب من فصائل الأسرة لأولى ، ولا تزل من فصائلها بعد تطور الأسرة في أطوارها العديدة منذ عشرات القرون

ولا عاء لما كسه الإنسان من أخلاق المروءة ولا يثر إذا هجر لأسره وفكك روابطها ووشائجها .

فمن عادي الأسره فهو عدو للنوع الإنساني في ماضيه ومستقبله ولا يعادي الأسرة أحد ، لا بسبب عدونه للنوع الإنساني من نظرتة إلى تاريخ لأحيال الماضية كأنه سطر إلى عدو يصمر به النقص ويهدم كل ما أقامه من ساء

وما من سيئة تحسب على لأسرة بالغة ما نعت سيئاتها من الكثرة والصرر هي مسوعة تحسب على لإنسان أن يهدم لأسرة من أحبا ويعصى على أنارها

فحب الأسرة - حقاً - قد سول لسان كثيراً من الحشع والأثرة ، ومن الحبس والبخل ، ومن الكيد والإحرام .

وكذلك حب الإنسان نفسه قد فعل هذا في العالم الإنساني ورمادة

ولكن لا نغمر الإنسان ولا نغمر الأسرة من أجل الأثرة وأصرارها . وإنما نغمر الأثرة ما استطعنا ربوق بيها وبين الإيثار عاية ما يستطع التوفيق بين الخليقتين ، ونصيح في ذلك مع الرمن لأساً أفلح كثيراً في تعميم روابط الأسرة الصغيرة بين أساء الأسرة الكبيرة ، وهي الأمة ، ولأساً أفلح كثيراً في تعميم المنافع ومراقب من هذه المشبه فضلاً عن المناقب ومكارم الأخلاق . فلولا الأسرة لم نخط صناعة نافعة توارثها الأبناء عن الآباء ثم نوارثها أساء الأمة جمعاء ، ولولا الأسرة ما احتضمت الثروات التي تفرقت شيئاً فشيئاً بين الورثين وغير الورثين من الأعقاب ، ولولا الأسرة لاستجاب لدعوة الهدم والتحريب كل من لا حلاق له من حشلات الخلق ونعائياتهم في كل جماعة بشرية . فالأسرة هي التي تمسك اليوم ما ساء السور الإنساني في ماضيه ، وهي التي تثول به غداً إلى أعقابه وتراربه حقه بعد حقه وحيلاً بعد حيل

لا أمة حيث لا أسرة .

بل لا أدمية ، حيث لا أسرة

ولن يسي الناس أنهم أبناء آدم وحواء إلا سوا أنهم أبناء رحم واحد وأسرة واحدة ، كأننا ما كان تأويلهم لقصة آدم وحواء .

ومنى عندما أن واحب الإنسان لسي بوعه في الإسلام ، بما هو واحب الأسرة الكبرى التي جمعب أحوه الشعوب والقبائل لسعارف بيها ، فقد عندما شأن الأسره في هذا الدين وعندما أن قرانه الرحم والرحمة حجة القرانة بين الأحوه من أساء آدم وحواء ، وأنها هي شفاعه كل إنسان عند كل إنسان



تقوم الأسرة في الإسلام على أنها كيان دائم برده السعة والامتداد والوثام وسحق سعة الأسرة وامتدادها ووثامها بظامين من النظم التي شرعها لها الإسلام ، وهما نظام المحارم في الزواج ونظام الميراث .

فالإسلام يحرم الرواح بالأقربين ولا يسيح من دوى القرابة إلا من أوشكوا أن يكونوا غرباء ، فالرواح يجمع منهم فى الأسرة من أوشكو أن يتصرفوا كأبناء العمومة والختولة .

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ سَائِكُمْ وَبَنَاتِكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ سَائِكُمْ اللَّائِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دُخْلَتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء - ٢٣]

والمقاصد من هذا التحريم موعة لا تحصيها فى هذا المقام ، أحلها وأجداها توسعة الأسرة ووقايتها من شو حر لخصومة والعصاء ، وأن يتحقق بالروح من أسباب المودة والنسب ما لم يتحقق بالقرابة ، فيرجع إلى الأسرة من أوشك أن يفصل عنها ، ويحرم الرواح بدوى القرابة الحميمة التى لاحاجة بها إلى توثيق النسب والمصاهرة ، وهما فى القرآن الكريم من آيات خلق الإنسان كما جاء فى سورة الفرقان

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾

[الفرقان ٥٤]

ويشرع الإسلام بنظام الميراث لأن الأسرة كيان يعيش ويتصل عمره بعد نقضاء أعمار أعضائه ولا اعتراض على نظام الميراث من وجهة النظر إلى طائع الأحياء ولا من وجهة النظر إلى المصلحة الاجتماعية ، فإن لأساء يرثون من آبائهم ما أرادوه وما لم يريدوه ، وحق لهم أن يرثوا ما حلّموه من عروس كما ورثوا عنهم ما حلّموه من حليقة لا فكر منها ، ولا عن على المجتمع فى احصااص الأساء بثمره العمل الذى توفر عنه الآباء ، لأن هذه الثمرة لا بقيت فى المجتمع كان للريثة أخى بها من سوهم ، وكان العن فى النهاية أن يتساوى العامل بعده والعامل الذى لا ينظر إلى غير يومه وساعته ، أو يتساوى من يعمل ويسى للدوام ومن لا يعمل ولا يسالى ما يصب المجتمع بعد يومه الذى يعيش فيه

ويتحقق وثام الأسرة وامتدادها بما فرضه الإسلام من حقوق لكل عضو من أعضائها ، فلا حق لإنسان على إنسان أعظم من حق الأبناء والأمهات في الإسلام على لأساء والدرية . وحسبك أنه كاد أن يكون السر بهم مقروناً بالإيمان بوحداية الله .

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْهِ أَنْ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾
[الأعراف: ١٥١]

وكادت الطاعة لهم ألا يسبقها واحب غير الطاعة لإله المعبود .

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ١٤ ﴾ وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم
فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴿ [لقمان: ١٤، ١٥]

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا فِئًّا وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ٢٣ ﴾ واخفص لهما جناح الدُّل من الرُّحمة وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿ [الإسراء: ٢٣، ٢٤]

وفي القرآن الكريم غير الوصايا في هذه الآيات وصايا مثلها تذكر كلما ذكر الوالدان ، وفيه من الآيات ما يتصل به شكر الإنسان لنعمة الله على أئوه بدعائه إلى الله أن يصلح له ذريته وأن يهيمه العمل الذي يصلح به حياته الساقية .

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِإِحْسَانٍ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبِّتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ... ﴾ [الأحقاف: ١٥، ١٦]



وربما سبق إلى الخاطر في عصرنا هذا أن السر بالأبناء لا يحتاج إلى وصية دينية

كوصية الأساء بالآساء لما ركب في طماع الأحياء من حب السير والرقعة لصغار الأطفال على العموم . إلا أن أحوال الأمم وأحكام شرائعها قبل الإسلام تنبئ عن مسيس الحاجة إلى هذه الوصية ، لأن أخطاء العرف الشائع فيها كانت أشد من أخطاء العرف الشائع في معاملة الأساء للآساء . فكان الولد في شريعة الرومان بمثابة العبد الذي يملكه والده ويتصرف فيه برأيه في كل ما يرتضيه له قبل بلوغ رشده ، وكانت شريعة حمورابي توجب على الأب الذي يقتل وبنًا لغيره أن يقدم ولده لأسي القتل يقتص منه بقتله ، وكان اليهود يقتلون الآباء والبنات مع أبيهم إذا جنى الأب حنابة لم يشتركوا فيها ولم يعلموها ، ومن ذلك ما في الأصحاح السابع من كتاب يشوع حين اعترف عتشان بن زارح بسرقة الرداء النعيس والفصة .

« فأرسل يشوع رسلاً فركبوا إلى الخيمة وإذا هي مطمورة في نخيمته والمصعة تحتها . فأحدوها من وسط الخيمة وأتوا بها إلى يشوع وإلى جميع بني إسرائيل وبسطوها أمام الرب . فأحد يشوع عتشان بن زارح والمصعة والرداء ولسان الذهب وسبه وسبائه ونقره وحميره وعمه وخيمته وكل ماله وجميع إسرائيل معه وصعدوا بهم إلى وادي عحور ، فقال يشوع كيف كدرنا بكدرك الرب في هذا اليوم؟ فرجمه جميع بني إسرائيل بالحجارة وأحرقوهم بالنار ورجموهم بالحجارة وأقاموا فوقه رجمة حجارة عظيمة إلى هذا اليوم . فرجع الرب عن حمور عصه . ولدت دعى اسم ذلك المكان وادي عحور إلى هذا اليوم . »



أما عرب الجاهلية الذين رل فيهم القرآن الكريم فقد أبيع بيهم قتل الأولاد وجرت بينهم شريعة الشار من الآبى بدس نيه مجرى العرف المحمود فلما جاء الإسلام أثبت بلولد حقاً في الحياة وملك كحق أبويه وشرع له من مولده حقوق الرضاع والحصانة ، وكان أبر بالآباء من آبائهم وأمهاتهم ، لأنه كان يأخذ العهد عليهم ألا يقتلوا أساءهم وبحميهم ، لا يحتمون من سحاك الأبوة والأمومة

﴿ يَا أَيُّهَا الشَّيْءُ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمَنَاتُ يُبَايِعُكَ عَلَى أَنْ لَا يَشْرُكَنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾
[المتحة . ١٢]

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام ١٤]

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَقِيَهُنَّ زَوَاجُهُمْ وَأَيُّكُمْ ﴾ [الإسراء ٣١]

أما حقوق الأسرة من حيث الروابط الزوجية فقد جاء الإسلام فيها بالحديد الصالح وأقام حقوق الزوجين على أساس العدل بينهما ، وأقام العدل على أساس المساواة بين حقوق والواجبات ، وهي المساواة العادلة حقاً هي هذا الموضوع إذ كانت المساواة بين الدين لا يتساوون بأعمالهم وكمايتهم ظلماً لا عدل فيه .

ولم يهبط الإسلام بمحلة المرأة في جانب من جوانب حياتها العامة أو حياتها الستة التي وحدها عنها ، ولكنه ارتفع بها من الدرك الذي هبطت إليه في الحصار الغابرة وعقائد الأم التي تأثرت بتلك خصارات قبل ظهوره ، وكلها لم تكن على حالة مرضية في بلاد العالم المعمور .

كانت المرأة في الحصار الرومانية تائب له حقوق المقاصر أو ليست له حقوق مستقلة على الإطلاق .

وكانت في الحصار الهندية عائقاً للحلاص من دولاب الحياة الخسدية ، وحلاص انراء مرهون « نابوكش » أي دلافصان عنها ، وكان حقها في الحياة مسهياً بستهاء أحل الروح ، تحرق على حدثه عند وفاته ولا تعيش بعده ، لا حقت بها اللعبة الأبدية وتحامها لال والأقربون .

وكان للمرأة في الحصار المصرية القديمة حظ من الكرامة يحير لها الخلوس على العرش وبسوثها مكان الرعاية في الأسرة ، ولكن الأمة المصرية كانت من الأمم التي شاعت فيها عقيدة الخطيئة بعد الميلاد وشاع فيها مع اعتقاد الخطيئة الأبدية أن المرأة هي علة تلك الخطيئة وحليقة الشيطان وشرك العواية والردلة ، ولا حياة للروح إلا بالنحاة من أوهاقها وحيائلها .

وكانت معيشة البدوة في الجاهلية العربية تمنح المرأة بعض احبرة لأنها كانت عصواً بامعاً في تلك لمعيشة البدوة تسقى وترعى وتسح وتستخرج الصعصع من الألبان والشمرات ، ولكن هذه المعيشة البدوية بصها كانت ترعب لأناء هي دريه البين وترهدهم هي درية السات ، لأن السين حد الميعة وحماة حوزتها وعدتها هي

ش العارات والتأهب لردها ، فلم يكن أبصر إلى لأب من حبر يأتيه بمولد أنش
ولو كان ذا مهر ووفرة ، ومنهم من كان يثد السات بشفا من العار إن لم يثدهن
حشية إملاق ، وإلى ذلك يشير القرآن الكريم حيث جاء في سورة النحل :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ
مِنْ سُوءٍ فَأُبْشِرُ بِهِ أَيْمُسْكُهُ عَلَىٰ هَرَبٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا
يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النحل : ٥٨ ، ٥٩]

وتكررت الإشارة إليه حيث جاء في سورة الرخرف بعد تسليمه الدين جعلوا
لرحمن جرءاً من عياده .

﴿ ... أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا
صُرِبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [الرخرف : ١٦ ، ١٧]

فدما بعث النبي صلوات الله عليه بالدعوة الإسلامية لم تكن بلمرأة منزلة
مرصبة ولا حقوق مرعية في وطن من أوطان اخصارة أو البداوة ودحض للإسلام
عنه هذه الوصمة وحولها من المحقوق ما يساوي حقوق الرجل في كل شيء ، لا في
حق المقومة

﴿ الرَّجَالُ قَرَأُمُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَصَّلَ اللَّهُ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ
أَمْوَالِهِمْ . ﴾ [النساء : ٣٤]

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ [البقرة : ٢٢٨]



وهذا الذي عييه بالمساواة بين الحقوق والواجبات لأن المساواة بين الرجل والمرأة
في جميع الكفايات والأعمال أمر لم يقم عليه دليل من تكوين الطبيعة ولا من
تجارب الأمم ولا من حكم البدهة ومشاهدة ، بل قام الدليل على نقيضه في جميع
هذه الاعتبارات ولم تتجاهل الأمم هوارق احسين إلا كان تجاهها لها من قس
تجاهل الطبيعة التي تصطر من يتجاهلها إلى الاعتراف بها بعد حين ، ولو من قس

الاعتراف بتقسيم العمل بين حسين لم يحلما محتتمين عشاً بعد أن عبرت عليهما ألوف السير ، وأحرى أن يكون طول الرمز مع نظور الأحوال الاجتماعية سبباً لاحتصاص كل منهما بوظيفة غير وظيفة الجنس الآخر ، ولا سيما في الخصائص التي تفرق فيها كفايه حياة البيتية وكفايه الحياة الخارجية ، فإن صور الرمز لا يلغى الموارق بل يريد لها ويجعل لكل منها موضعاً لا يشابه سواه

إن تكوين الفطرة في مسألة السل التي هي قوم حياة الأسرة يفرق بين الذكر والأنثى تفرقة لا سبيل إلى الإغصاء عنها في حياة النوع الإنساني على الخصوص . فإن وظيفة السل طليقة في الرجل يصلح لها ما صبحت بينه طول حياته إلى السبعين وما بعد السبعين ، ووظيفة التناسل في المرأة مقيدة بالحمل مرة واحدة في كل عام ، وقلما تصلح لها المرأة بعد الخامسة والأربعين أو الخمسين في أكثر الأحوال .

وهي بخارج لأم شواهد ملموسة على الفارق الأصيل بين الحسين في الكفاية العقلية والكفاية الخفية فإن امرأة على العموم لا تساوى الرجل في عمل مشترك فيه ، ولو كان من الأعمال التي انقضت لها المرأة بعد عشر الحسا في معيشة واحدة لا تطمح كم يطمح ولا تنظر الأرباء كما بتقها ولا تدع في صناعة التحميل كم يدع فيها ولا تحس أن ترثي مينا عزيز عيها كما يرثي موتاه ، وهي منذ بدء الخليفة تردد النواح وتنفرد بأكثر مراسم الخداد ومن اللغو أن يقال إن هذه الموارق إنما مجت من عسف الرجل واستبداده ، فإن الرجل لم يكن يهي المرأة أن تطمح وأن تحيط انشباب وأن تترين أو ترقص أو تترنم بالأعاس والأشيد ، ولو أنه يهاها فاستطاع أن ينهاها في بيتها وفي الدب الرحية لقد كان ذلك منه دليلاً على غلبة العقل والإرادة لا ريب فيه

ويدع الإرادة في كل شيء وتأمل العريرة الجنسية المركبة في إناث جميع الأنواع فهل من المجهول الخفى أن الأنثى تكتم إرادتها ولا تجهر بها وأنها تنصدي للذكر حتى يلتفت إليها؟ وهل من المجهول الخفى أن أصوات الذكور معلط وتقوى بعد بلوغ الصبح لانفرادها بالدعاء الجنسي واقترون هذا الدعاء بالسمو هي كس قوة تكمل لها اللعبة والسبق في صرع الانتحاب الجنسي؟ وهل مما يستطيع دعاؤه ما

أن هذه الفوارق لأصيلة ود حقيق دكور احيوان ولم تكن عن حكمه عميقة في
بنیان احسن ينقاد إليها الذكور كما ينقاد إليها لإناث ؟

وإد اعتبرنا مسألة الفوامة من وجهة «دارية» نحتة واعتبرنا أن الأسرة هيئة لا
عنى لها عر قيم يتولاها فمن يكون هذا القيم من الزوجين؟ أ تكون القوامة للمرأة أم
تكون للرجل؟ أ تكون حقوق الأبناء في دمتها أم تكون في دمته ؟

إن هذه الأمور من وقائع الحياة التي لا ترحم من بتجاهلها ولا تحلها تحيات
الأندية ولا جمعية المروسية الكادنة في بقاياها المتحللة من عصوره
المقرصة ، وما كان للمرأة في أحسن حالاتها هي تلك العصور المقرصة من
مكانة غير مكانة «الحشيقة في قصص الغرم» كأما هي مساهة المارس
مشجاعه نعلوه في كل موقف له مع المخوفة الصعبة أن يكون كموقعه مع
الأنداد والمطراء .

ولا نحب أن نغصى عن السعث الذي يتدفع به من يسكرون فوامة الرجل لادعاء
المساواة بين الجنسين فإنهم يتدفعون لدعواهم هذه باضطراب المرأة إلى الكدح
لنفسها أحياناً في ميدان العمل طلباً لنقوت ولوارم المعيشة فهذه ولا مرء حالة
واقعة تكثر في المجتمعات الحديثة كلما أحتت فيها وسائل العيش وتأرمت فيها
أسباب الكدح على الأوراق ولكننا نرهم كأنهم يحسبونها حالة حسنة يبنون
عليها دعائم المستقبل ولا يحسبونها حالة سيئة تتصاغر ، لجهود على إصلاحها
وتدبير وسائل الخلاص منها ، وما هي في الواقع إلا كالحالة السيئة التي دفعت
الآباء والأمهات إلى الرح بأطفالهم في ميدان الكدح على الرزق فأكرتها القوانين
وحرمتها أشد التحريم ، ولم تجعلها حجة تسوع بقاءها وتقيم عليها ما تستنعه من
الظلم الحديثة في الأمرة أو في الحياة الخارجية



وإد أعطت هذه الاعتبارات قسطها من جد والروية صح لدي أن الإسلام قد
حاء بلهداية الصالحة في تقرير مكان المرأة من الأسرة بالقياس إلى الحالة التي
كانت عليها قبل الدعوة الإسلامية ، وبالقياس إلى الحالات التي يحتمل أن تثول
إليها في جميع الظروف والعوارض الاجتماعية ، إد رفعها الإسلام من الهوان الذي

رأى عليها من ركائز العادات الخيالية ، وأقام حقوقها الزوجية على الأساس الذي يحسن في جميع الأحوال أن تقام عليه .

إن الإسلام لم يجمع الاكتفاء بزوجة واحدة بل استحسسه وحض عليه ، ولم يوجب تعدد الزوجات بل أنكره وحذر منه ، ولكنه شرع لأرواح يعيشون على الأرض ولم يشرع لأرواح تعيش في السماء ولا ماص في كل تشريع من الطرق إلى جميع العوارض والتقدير لجميع الاحتمالات ، وفي هذه الاحتمالات ولا ريب ما يجعل إباحة التعدد خيراً وأسلم من تحريمه بغير تفرقة بين ظروف المجتمع المختلفة أو بين الظروف المختلفة التي يدفع إليها الأرواح



ويسعى أن يسهل إلى وهم غالب بين الجهلاء والمبغضين من المتقربين عن من الأدبيات في تعدد الأرواح قبل الإسلام إذ الغالب على أوهامهم أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي أباح تعدد الزوجات أو أنه أول دين أباح تعدد الزوجات والمسيحية .

وليس هذا بصحيح كما يبدو من مراعاة يسيرة لأحكام الرواح في الشرائع القديمة ، وفي شرائع أهل الكتاب ، فلا حرج على تعدد الزوجات في شريعة قديمة مسبقة قبل التوراة والإنجيل . ولا حرج على تعدد الزوجات في التوراة أو في الإنجيل ، بل هو مباح مأثور عن لآسياء أنفسهم من عهد إبراهيم الخليل إلى عهد الميلاد ، ولم يرد في الإنجيل نص واحد يحرم ما أباحه العهد القديم للآباء والآسياء ولم يوجب من الخاصة والعامة ، وما ورد في الإنجيل يشير إلى إباحة في جميع الحالات والاستثناء في حالة واحدة ، وهي حالة الأسقف حين لا يطبق الرهبانية فيقع بزوجة واحدة اكتفاء بأهول الشرور وقد استحس القديس أوغسطين أن يتحد الرخص سرية مع زوجته إذا عقلت هذه وثبت عليها العقم ، وحرم مثل ذلك على الزوجة إذا ثبت لها عقم زوجها لأن الأسرة لا يكون لها سيدان^١ ، واعترفت الكنيسة بأساء شرعيين لعاقل شرمان من عدة زوجات ، وقال وستر مارك Wester Mark العالم الثقة في تزيح الرواح إن تعدد الزوجات باعتراف الكنيسة بقي

(١) كتاب الرواح الأماش Bono Conjugah

إلى القرن السابع عشر وكان يتكرر كثيراً في الحالات التي تخصها الكنيسة والدولة ،
وعرض حروتيتوس العالم القانوني المشهور لهذا الموضوع في بحث من بحوثه الفقهية
فاستصوب شريعة الآباء العبرانيين والآسياء في العهد القديم .



والإسلام لم يأت بدعة فيما أناح من تعدد الزوجات ، وإنما الحفيد الذي أتى به
أنه أصبح ما أفسدته الموصى من هذه الإباحة المطلقة من كل قيد ، وأنه حسب
حساب الضرورات التي لا يعمل عنها الشارع الحكيم ، فلم يحرم أمراً قد تدعو إليه
الضرورة الخارئة ويحور أن تكون بإباحته خيراً من تحريمه في بعض ظروف الأسرة أو
بعض الظروف الاجتماعية العامة .

أما أن هذه الظروف قد تضطر أناساً إلى الزواج بأكثر من واحدة فالأمر فيها
موكول إلى الدين يعاون تلك الضرورات من الرجال والنساء ، ومن تلك الضرورات
أن يحتفظ الرجل بروحته عقيم أو مريضة لا يريد فراقها ولا تريد فراقه ، ومنها أن
يتكاثر عدد النساء في أوقات الحروب والفقر مع ما يشاهد من زيادة عدد النساء
على الرجال في كثير من الأوقات ، فهذا رصيت المرأة في هذه الأحوال أن تتروح من
دى حليلة فذلك أكرم لها من الرضا بعلاقة لخلية التي لا حقوق لها على روحها
وأكرم لها كثيراً من الرضا بابتدال العاقبة أو بدل النفس في سوق الرديئة

ومن حساسات التشريع في جميع هذه الضرورات أنه يحسب حسابها ولا يسي
الخيطة لانساء ما يتقى من أصرارها ومن سوء التصرف فيها . وكذلك صعب
الإسلام بعد إباحة تعدد الزوجات للضرورة القصوى ، فإنه اشترط فيه العدل وبه
الرجل إلى صعوبة العدل بين النساء مع الحرص عليه .

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فِرَاحِدَةً ﴾ [النساء: ٣]

﴿ وَلِي تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ [النساء ١٢٩]

واشترط على الأرواح القدرة على تكاليف الحياة الروحية والتسوية في السكن
والرزق بينهم وبين الزوجات .

﴿ أَسْكُوهُمْ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ ﴾ [الطلاق ٦]

﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة ٢٣٣]

ولا يسقط عن الروح وأحب الإحسان في المعاملة سواء اتصلت بيه وبين حليلته أصرة الرواح أو انتهت بينهما هذه الأصرة إلى الفراق بغير رجعة :

﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَحَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ﴾ [البقرة ٢٢٩]

بل لا يسقط عنه هذا الواجب حتى هي حالة الطلاق بعد رواج لم تتعقد فيه الصصة بين الزوجين :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا بَكَحْتُمُ الْمُؤْمَنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا لَمَتَّعُوهُنَّ رُسُوحَهُنَّ مِثْلًا الْجَمِيلَ ﴾ [الأحراب ٤٩]

وهناك حيلة تعدل سلطان التشريع كله في أمر تعدد الزوجات ، لأنها تكن القبول الفصل فيه إلى اختيار المرأة فإن شاءت قبلته وإن لم تشأ رفضه فلا يحور إكراهها عليه ولا يصح الرواح إذا بنى على الإكراه

وفي الحديث الشريف

« لَا تُكْحَمُ الْأَيْمُ حَتَّى سَتَامَرَ وَلَا الْبِكْرُ حَتَّى تَسْتَأْذِنَ » وفيه « إِنْ الشَّيْبَ أَحَقَّ نَفْسَهَا مِنْ وَلِيِّهَا وَالْبِكْرُ تَسْتَامَرُ وَوَدَّعَهَا سَكُونُهَا »^(١)

وقد أظن النبي ﷺ رواجاً أكرهت فيه فتاة بكر على الرواح بأمر أبيها لمصلحة به في رواجها باب أخيه ، وحدثت عائشة رضي الله عنها فيما رواه النسائي . « أَنْ فِتْنَةً دَخَلَتْ عَلَيْهَا فَقَالَتْ إِنْ أَبِي رُوحي مِنْ بَنِي أَحِبِّهِ يَرْفَعُ لَهُ حَسْبَتَهُ وَأَنْ كَارَهُهُ ، فَقَالَتْ . احْلِسِي حَتَّى يَأْتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَحْبَرْتَهُ فَأَرْسَلَ إِلَى أَبِيهَا فَدَعَاهُ فَجَعَلَ الْأَمْرَ إِلَيْهَا فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ أَحْبَرْتُ مَا صَبَحَ أَبِي وَلَكِنْ رُدَّتْ أَنْ أَعْلَمَ النِّسَاءُ أَنَّ لَيْسَ لِلْأَمْرِ مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ » . (رواه ابن ماجه)

(١) منقح عليه

وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - فيما رواه أحمد و أبو داود وابن ماجة « إن حارية بكرًا أنت النسي عليه السلام فذكرت أن أباه روحها وهي كارهة فحيرها رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلماء الفقه متفقون على أن للمرأة الرشيدة أن تلى جميع العقود بنفسها وأن توكل فيها من تشاء ولا يعترض عليها ، وأنها أحق من وليها بالأمر فى عقود الزواج إذا خالفها ولم يستأمرها .

ولا حرج على المرأة فى تشريع تعدد الروحانيات متى كان الرأى فيه موكولاً إلى مشئتها تأبى منه ما تأباه وتقبل منه ما لا ترى فيه عصابة عليها أو ترى أنه ضرورة أحف بدبها من ضرورات تأباه .

ثم يأتى العرف الاجتماعى فيسولى تنظيم التشريع فوق هذه الولاية الموكولة إلى الروحانيات ، وإن العرف الاجتماعى لم يقدر فى هذه الشؤون على تنظيم أقوى من كل سلطان ، ومن أمثلة التنظيم الذى يتولاه العرف كما قلنا فى غير هذا الكتاب « أنه يحدد من رعات الطبقة الغنية فى هذه المسألة كما يحدد من رعات الطبقة الفقيرة فيها على اختلاف أنواع الحدود فالطبقة الغنية أقدر على الإيقاق وأقدر من ثم على تعدد الروحانيات ، ولكن الرجل العلى يأبى لسته أن يعيش مع صرة أو صرائر متعددين ، والمرأة الغنية تطلب لنفسها ولأبنائها رعات ترتفع مع ارتفاع درجته العلى حتى يشعر الأعياء أنفسهم بثقلها إذا تعددت بين زوجات كثيرات . فلا يطلق الروح العلى فى رعاته على حسب عناه ، بل يصمم له العرف حدوداً وموانع من عده تكف من رعاته لنشوب به إلى الاعتدال وبهذا يرى فى الواقع أن الطبقات الغنية تكتفى بروحة واحدة فى معظم الأحيان وربما كان للاختيار نصيب من ذلك كنصيب الاضطراب . لأن الأعياء يستوفون حظوظهم من العلم والثقافة فيدركون بلطف الدوى مرابا العطف المتبادل بين روحين متكافئتين فى الكرامة والشعور

« والطبقة الفقيرة لا ترفض المرأة فيها ما ترفضه المرأة الغنية من معيشة الصرائر ، ولكن العجز عن الإيقاق يجعلها أن تنطلق مع الرعة كم شاء ، فلا تستنبح تعدد الروحانيات بغير حدود وهكذا تقوم الشريعة فى تعدد الروحانيات بما عليها ويقوم العرف الاجتماعى بما عليه ، ويضع الإلزام حيث يسعى أن يقع مع الرعة ولاختيار »^(١)

(١) كتاب لفهسة القرآنية للمؤلف

ونما يعمل العرف الاجتماعي في أحوال الضرورة أن يكون الروح عينا وأن تكون المرأة المرعوب فيها من الطبقة الفقيرة ، ففي هذه الحالة ترغب المرأة المخطوبة في قبول الروحيات باختارها أو تضطر إليه تطعنا منها إلى معيشة أحب من معيشتها ، فلا تزال الضرورة في هذه الحالة أكرم لها من ضرورة تعريضها بالتعريض في العرض طمعا في المال .



على أن العرف الاجتماعي مع سلطانه الغالب - قد يستفيد من روح الدين وحكمة التشريع فوق ما يستفيد من موصفه في أمره ونواهي روح الدين الإسلامي التي سرت إلى العرف في المجتمعات الإسلامية أن الزواج رحم ومودة وسكن

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً

وَرَحْمَةً ﴾ [الروم . ٢١]

فلا رواح بغير مودة ورحمة ، ولا حكمة للروح إن لم يكن ملاذاً يأوى فيه الروحانيان معا إلى سكن يلقىان عنده أعماء الصراع العنيف في الحياة الخارجية إلى حين . وخير الرواح ما استطاع أن يدبر للإنسان كهفاً أميناً يثوب إليه كلما ألتأته المتاعب والشواغل إلى طلاله . وبه ليعيش من الدنيا في حميم موصول العذاب إن لم يكن له فيها ديك الكهف الأمين وذلك الملحاً الخصبين . فإن عر عليه أن يحده كما أراد فليس ذلك بحجة ، عني أن حياة الجحيم هي الحياة المثلى وأن كهوف الأمان ليست بالمطلب الجدير بالمطلب والصيان .

ومن قديم الزمن هبات الأمومة طبيعة المرأة لتدبير ذلك السكن وترويضه مراد المودة والرحمة . ومن أراد أن يتكلم سعة الاستعمال والاشتماع بالعرض فله أن يقول إن النوع الإنساني خلق أن يستعمل الفوارق بين طبعتي الحسنيين لينتفع بكل منهما حدة ما يسمعه في موضعه وبمحاله . وليكن ذلك من قبيل تقسيم العمل وتخصيص كل طبيعة لما ياسبها ولا يكن حصومة عني دعاوى المساواة أو الرجحان . فما حقق الحسان يكون كل منهما مساوياً لصاحبه في طرر واحد من المربا والملكات ، وإنما خفقت لكل منهما مرباه وملكاته ليكمل بها صاحبه ويريد بها ثروة النوع كله من حصائص النفس وألوان الفهم والشعور

وعنى هذه السمة الطبيعية الاجتماعية ، من تصميم العمل وإتقان كل عمل بصرف من صروبه يتعاون الروحاني كل فيما هو أصليح به من مطالب الحياة - على الرجل شطر الكساح في سبيل الرزق وكفائه أهله مثونه الكساح في مضطرب الرحم والصراع ، وعلى المرأة شطر السكن لأمين وكلاءة الخيل المفس في شأنه الأولى ، وليس بالشطر الرهيد حصانه العدد وعداد مستعمل الإنسانيه مرحبه بعد مرحله على الدوام



وتحتوى الشريعة الإسلامية تفصلاً مسهلاً عن حقوق كل من الروحاني قبل الآخر وقبل الأسرة في مجموعها ، ولكنها تنحى إلى هذه العاية المقصودة من إقامة الأسرة على المودة والرحمة ، ولا يحرف عنها حق من الحقوق عن هذه العاية بلا ستثناء حق التأديب لرب الأسرة ؛ فإن حق التأديب لا يصى المودة والرحمة ولم ينفهما فيما هو أمس الأمور بالمودة والرحمة وهو ترسة السنين وتربية المتعلمين ، وتخويل رب الأسرة حق التأديب بدل من أحوال كثيرة كنها غير صالح وكلها غير معقول في شئون القوامه البيتية ، فلما أن يكون لرب الأسرة هذ الحق في معظم الشئون البيتية وإما أن يستغنى عن التأديب في الأسرة أو يوكل التأديب فيها إلى دور الشرطة والقضاء في كل كبيرة وصغيرة تعرض للزوحن على الرضا والغضب والخهر والمجوى . هذا أو يكون التأديب مسموح به أن يصوم حبس الرواح وأن يهدم ساء البيوت عنى من فيها من الآء والأمهات والبنين

ولا يحفى أن عقوبات التأديب إما ترصع للمسيئ - والمسيئين ولا توصع من هم عيون عن التأديب متورعون عن الإساءه ، وليس من أدب التشريع أن تسقط الشرائع حساب كل بقيصة تسترذلها وتأنف منها ، فما دامت البقيصة من الفئات التي تعرض للإنسلا ولو في حالة من ألوف الحالات فحلوا التشريع منها قصور يعاب على الشريعة ولا يمتنع به الضرر الواقع من تلك البقيصة ولو حذف من القوانين كن عيب تأنف من ذكرها لم بقيت في تدث القوانين بقيصة تسترذلها للصورة الموحدة لمقاتتها . إذ كانت العيوب التي لا تأنف الأسماع منها أهون الأضرار الاجتماعية وأغناها عن التشريع والعقاب .

ولأدب العام بعد شيء غير عقوبات التأديب في العيون فالحية يأنى للرجل الكريم أن يصرب امرأته وأن يعاملها يعص من كرامتها وما نكره السي

﴿عبر مرة أن يضرب الرجل امرأته وهو يأمر إليها في دهره﴾ أما يستحي أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العير؟ .

إلا أن الخلاق المستحسنة - حقائق الكرامة والحياء - ليست هي الخلاق التي توجب الحساب والعقاب وليست هي الخلاق التي يقف عندها التشريع وتسطر بعدها فرائض الرحر والمواحدة . فإذا وضعت العقوبات في موضعها فلا مدعى من أن يحسب فيها الحساب لحمد الميم والسميم من الأخلاق والعيوب ، بل لا مناص لحسان الحسان لدميم خاصة لأن الضرورة لها ضرورة الهوى والردع وليست ضرورة الثواب والتشجيع وبين الوعظ والهجر والعقوبة البدنية تعاوب العقوبات الروحية في الإسلام ثم يكون الحكيم أو الفراق

﴿واللأتي تخافون فتشوزهن فعضوهن واهجروهن في المصاحح واضربوهن فإن أظعنكم فلا تبعوا عليهن ميلاً إن الله كان علياً كبيراً﴾ (٢٤) وإن خفتم شقاق بينهما فابعثو حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً... ﴿ [النساء: ٣٤ ، ٣٥]

وبه لمن الشحف الرحيص أن يقال إن حسن النساء قد مرى من امرأة التي يصلحها الصبر ولا يصحها غيره ، ويقول إنه سحف رحيص وحييم لأنه ذلك السحف الذي يصر كثيراً ولا يهيد أحداً إلا الذي يشتري سمعة الكياسة في سوق الخلق « التقليدية » ويسميه العربيون بيهم باسمه الذي هو به حقيق وهو اسم الدعي المتحلق Snob ولقد وجد هؤلاء في أم لم تشكش عقوبة الخلد على كرامة الرحولة وكرامة الخدية ، وعمرت مثلت السب وهي تعلم القويين التي توجب العقوبة البدنية لمن يحلمون لأوامر أو الطم العسكرية ، وإن لهم مع ذلك لندحة من العقوبات المستطاعة في العهد العمة كالحسن والتأخير وترين الرنة وقطع الأحر والحرمان من أبواب الشرف والعصل من الخدمة فلولا أنها حلقة حارية لا تميد أحداً ولا تدل على كياسة صاعدة لما جاز في عرف هؤلاء الأدياء أن تسرى عقوبة الخلد في مواحدة الخلود وأن تمتع بعد إحفاق الخين جميعاً في عقوبة الشور

وسم تترك هذه العقوبة على كرامتها بغير حدها المعقول الذي يمليه كل مشكلة بحسبها من اخلاق المعهود في أدب الروحين ، وإنما حدها الصالح أن يكون أصلح من

العراق وهدم ساء الأسيرة في تقدير الرجل والمرأة فإن لم يكن كذلك فهي المصارة التي توجب استحكيم بين الأسرتين ، أو توجب الطلاق بحكم الشريعة مرحعها الأجير الذي يسعى أن يؤخر إلى أقصاه بعد نقصان الحيلة وذهب الرجاء في الرفاق

﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضَرَارًا لَّتَعْتَدُوْا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ [البقرة - ١٣١]

ويحق للمرأة عند نُشُور زوجها وعرضه أن تدعى إلى حكم غير حكمه ترصاه قبل شكواها من أدى المصارة التي توجب الطلاق

﴿ وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاصًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ... ﴾ [النساء - ١٢٨]



فيدد حار لساحت بتوحي الصدق أن يعقب على تشريع الإسلام فمن واحده أن يحمد بهذا الشريعة أنه قدر للواقع حسانه وأحاط كل تقدير بما يستدعيه من الخبطة والصمان المبسور في أمثال هذه العلاقات ، وإن نظرة الشريعة الإسلامية إلى حقوق المرأة من مبدئها قد كانت نظرة تصحيح لما سلف من الشرائع ، وإتمام لما نقص فيها فلم يكن للرواح حدود غير الشرائع الوضعية ولا في الشرائع الدينية قبل الإسلام ، ولا كان فيها ما يعتبر شريعة وافية مقدرة لأحواله وضروراته عند المصارة بينها وبين الشريعة الإسلامية

كانت المرأة كالرفيق في هوابن الدولة التي كانت تسمى أم القوايس وهي الدولة الرومانية وكانت حصاناً يحرق بقيد الحياة على صريح روحها في الديانة الرهمية وكانت ديانة العهد القديم يبيع لمن يشاء أن يشروح ما يشاء بلا قيد ولا صمان ، وبهذه الإباحة وردت فيه أخبار إبراهيم ويعقوب وموسى وداود وسليمان

ثم جاءت المسيحية فلم تنقص حكماً من أحكام الساموس في أمر الرواح وسئل بولس الرسول عن شرط الأسقف فكتب في رسالته الأولى إلى تيموثاوس أنه ينبغي أن يكون « بلا لوم بعل امرأة واحدة » وهو تخصص لا موجب له لو كان هذا هو الحكم العام الرعى بين جميع المؤمنين بالدين

وظل أبناء الكنيسة في العرب يسبحون تعدد الروحات ويعترفون بأبناء الملوك الشرعيين من أرواح متعددين ، فلما معته بعد القرون السابع عشر على إثر الخلاف بينها وبين الملوك الخارجين عليها كانت حجة معه أن لاكتفاء بالواحدة أخف الشرور لمن لا يقلر على الرهانية ، ولم يكن معه إكباراً الشأ المرأة يوم كان الخلاف بينهم على أنها ذات روح أو أنها حسد بغير روح . ولم يكن بينهم خلاف يومئذ على أنها حيلة الشيطان ، أبعد ما يكون الإنسان عنها أسلم ما يكون .

وبينما أُم الحصار في إجماعها هذا على تلك النظرة الرزية إلى المرأة كانت أمة الصحراء تقصى فيها قصاء لا حيار بينه وبين ما عدها كانت تتشاءم بمولدها ولا تبالي أن تعالجها بالدف في مهدها ، محافة العار أو محافة الإملاق

ومن تدك الراوية النائية عن العالم ثقيل عليه دعوة سماوية تنصفها من ظم وترفعها من صعة وتسقط لها كف ابودة والرحمة وتنتزع لها من القلوب عدلاً أعيب على الرؤوس ، ونقيد من صاح الرواح ما لم يقده عرف ولا قانون ، وتحمل لها الخير بين ماترصاه منه وما تأباه ، وتستجد لها حياة يستحي لمصنف والمكابر أن يمجدها فصلها العميم على ما كانت عليه .

وأما بعد هذا فماد جاءت به القرون بعد القرون من زيادة لها على نصيبها من عدل الإسلام؟

حبر ما لها في الإسلام لم يدركه حير ما لها في العصر الحديث ، وشر ما بصيها من الإسلام رحمة وعممة بلقياس إلى الشر الذي يسلمها العصر الحديث إليه ولا تزال فصائل العصر الحديث في حاضرها ومآلها دعوى لم يؤيدها ثبوت من حوادث الواقع ولا من مبادئ النظر .

فأما حوادث الواقع فشكوى امرأة منها في بيتها وفي دنياها كلسوا ما كانت في عهد من العهود

وأما مبادئ النظر فلا حير لمرأة أن تكون على مبدأ القرون الوسطى شبطاً يسلم الإنسان ما سلم منه ، ولا حير لها أن تكون على مبدأ المروسية الكاديه منكا هي مبادئ السوق ، ولا هي في خير مع الس حتى يُقعوا لها الطبيعة - إن استطاعوا - ويقعوا أنفسهم قبلها أن المرأة والرجل مدان متعادلان



زَوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ



يسدر أن بطرق حصوم الإسلام موضوع الرواح دون أن يعرّحو منه إلى روح السي ويندرعوا به إلى الفدح في شحصه الكريم والتشكيك من ثم هي دعوته المباركة ودينه القويم

وللإسلام حصوم محترّفون وحصوم سكرويه على قدر جهلهم به وسيرة سيه عليه السلام

ولا حفاء بخصومه الخرفين فهم جماعة المشربين الذين اتحدوا الفدح في الإسلام صباغة بفرعون لها ويعيشون منها ، وصاعنهم هذه لا نصطع عملا لها أهم وأخطر من عملها هي تشيير المسدمين أو نشيير الوثنيين وأشباه الوثنيين لكيلا يتحولوا من الوثنية إلى الإسلام فلا عسى لأصحاب هذه الخصومة أو هذه الخرفة من حتلاق المأخذ ونصيّد السهم التي تحرى بها أرز فهم وتتصل بها أعمالهم ، سواء عرفوا الحقيقة من وراء هذه المأخذ وهذه التهم أو جهلوا وأعرضوا عن البحث فيها ، لأنهم يريدون الاتهام ولا سربحون إلى معرفه بهدم كل ماعملوه وتصرفهم عن كل ما ألفوه وعقنوا الية عليه

أما حصوم الإسلام من غير رمرة المشربين فأكثرهم يحاصمونه على السماع ولا يعيهم أن يبحثوه ولا أن يبحثوا دينا من الأدبان ، حتى الذين أمدوا وشوا من ححور أمهاتهم عليه وقليل من أوثث الخصوم غير الخرفين من يتلقف الدراسات الإسلامية تلقف لا يعيد الدرس ولا سعى منه إلا أن يعلم مائعمه لطائفة من التلاميذ يكفهم منه أن يعرف من أحبار الإسلام ما لم يعرفوه وبعض هؤلاء الدارسين المدرسين حسن الية ؛ لا يأتي أن يعترف بالحقيقة إذا استمع إليها ، وبعضهم سيئ الية لأنه مسحر في خدمة الاستعمار وما إليها من الدعايات الدولية ، فلا يعيه من المعرفة إلا ما يملأ له في عمله ويجهد لدعايته

وما اتفق حصوم الإسلام عن سوء به عسى شيء كما اتفقوا على حطة التشيير

هي موضوع الروح على الخصوص ، فكلهم يحسب أن المقتل الذي يصاب به الإسلام في هذا الموضوع هو تنويه سمعة النبي عليه السلام ، وتمثييه لأتباعه في صورة معيبة لانتلائهم شرف النبوة ولا يتصف صاحبها بمصيلة الصديق في طلب الإصلاح ، وأي صورة تعيبهم في هذا العرص لأثيم كعب تعيبهم صورة الرجل الشهوان العارق في لذات الجسد العارف في معيشتة البينية ورسائله العامة عن عفاف القلب والروح ؟

إنهم لعل صواب في الخطة التي تحيروها لإصانة الإسلام في مقتله من هذا الطريق الوجير

وإنهم لعمى أشد الخطأ في اختيارهم هذه الخطة بعينها ، إذ إن حلاء الحقيقة في هذا الموضوع أهون شيء على المسلم العارف بدينه ، مطلع على سيرة نبيه ، فإدراكهم أنطون حجة يكتفى بها المسلم ولا يحتاج إلى حجة غيرها لمعظيم نبيه وقرئته ديه من قالة السوء الذي يفترى عليه .

فلا حجة للمسلم على صديق محمد عليه السلام في رسالته أصدق من سيرته هي رواحه وفي اختيار روحاته ، وليس للنبوة من أية أشرف من آيتها في معيشة نبي الإسلام من مطلع حياته إلى يوم وفاته .

ما الذي يصعله الرجل الشهوان العارق في لذات الجسد إذا بلغ من المكانة والسبطان ما بلغه محمد بين قومه ؟

لم يكن عسيراً عليه أن يجمع إليه أحسن سائر العرب ، وأفتن حواري العرس والروم على تحوم الخريبة العربية .

ولم يكن عسيراً عليه أن يوفر لنفسه ولأهله من الطعام والكساء والريثة ما لم يتوفر لسيد من سادات الجزيرة في زمانه

فهل فعل محمد ذلك بعد نجاحه ؟

هل فعل محمد ذلك في مطلع حياته ؟

كلا ، لم يفعله قط بل فعل نقيضه ، وكاد أن يعقد روحاته لشكايتهم من شطط العيش في داره .

ولم يحدث قط أن احتار زوجة واحدة لأبها مليحة أو وسيمة ، ولم ين بعداء قط إلا العدرء التى علم قومه جميعاً أنه احتارها لأبها ست صديق ووصيه وحيفته من بعده : أبى بكر الصديق رضى الله عنه

هذا الرجل الذى بفتوى عليه لأئمة الكادبون أنه الشهوان الغارق فى لذات حبه - قد كنت روحته الأولى تفارب الخمسين وكان هو فى عهوان الشباب لا يحاور الخامسة والعشرين وقد احتارته روحا لها لأنه الصديق لأمين فيما اشتهر به بين قومه من صفة وسيرة ، وفيما لقبه به عرفوه وعاروه الصديق والأمانة فيه وعاش معها إلى يوم وفاتها على أحسن حال من السيرة الطاهرة والسمعة النقية ، ثم وفى لها بعد موتها فلم يفكر فى الزواج حتى عروسته عليه سيدة مسلمة رقت له فى عرله فخطبت له السيدة عائشة بإذنه ، ولم تكن هذه الفتاة العريضة عليه تسمع منه كلمة لا ترضيها غير ثنائه على روحته الراحلة ووفائه لذكراها

وما سى - عليه السلام - بوحده من أمهات السدمين لما وصفت به عنده من جمال ونضارة ، وإنما كانت صفة الرحم والخص بهن على المهنة هى الباعث الأكبر فى نفسه الشريفة على التفكير فى الزواج بهن ومعظمهن كن أرامل مأيت فقلن الأرواح أو الأولياء وليس من يتقدم لخطبتهن من الأكفاء بهن إن لم يفكر فيهن رسول الله

السيدة سودة بنت زمعة مات ابن عمها يتروح بها بعد عودته من الهجرة إلى الحبشة ولا مأوى لها بعد موته إلا أن تعود إلى أهلها فيكرهوها على الردة أو تتروح بغير كفء لها أو بكفء لها لا يريد لها .

والسيدة هدد بنت أبى أمية - أم سلمة - مات زوجها عيد الله المحرومى وكان أيضاً ابن عمها ، أصابه جرح فى عروة أحد فقصى عليه ، وكانت كهلة مسنة فاعتذرت إلى الرسول عليه السلام بسنها لتعفيه من خطبتها ، فواساها قائلاً : سى الله أن يؤحرك فى مصيبتك وأن يتخلفك حيراً ، فقالت : ومن يكون خيراً لى من أبى سلمة ؟ وكان الرسول عليه السلام يعلم أن أباً بكر وعمر قد خطباها فاعتذرت بمثل ما اعتذرت به إليه ، فطيب خاطرها وأعاد عليها الخطبة حتى قبلتها

والسيدة رملة بنت أبى سفيان تركت أباهما وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة فتصر زوجها وهرقها فى عرنتها بغير عائل يكفلها ، فأرسل السى عليه السلام إلى الجاشى

يطلبها من هذه العرب المتهكة وسفدها من أهلي إذا عذب إليهم راعمه من هجرها في سبيل دينها ، ولعل في الرواح بها ست يصل بيه وبين أنى سعيان بوشيجة السب فمبيل به من حفاء العداوة إلى مودة تحرحه من ظلمات الشرك إلى هداية الإسلام

والسيدة حويرية ست حارث سد قومه كانت بين السبايا في عروة سى المصطلق فأكرمها السى ﷺ من أن تدل دلة السباء فتروحها وأعنفها وحص المسلميين على إعتاق سببهاهم فأسلموا جميعاً وحسن إسلامهم ، وحيرها أبوها بين العودة إليه والبقاء عند رسول الله فاختارت البقاء في حرم رسول الله

والسيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب مات روحها فعرضها أبوها على أنى نكر فسكت وعرضها على عثمان فسكر وبث عمر أسفه للسبى فلم يشأ أن يصن عنى صديقه ووليه بالمصاهرة التى شرب بها أن نكر قبله ، وقال له يتروح حفصة من هو حير لها من أبى بكر وعثمان .

والسيدة صفية الإسرائيلية ست سيد سى قرطة حيرها السى بين أن يردها إلى أهلها أو يعنفها ويتروحها فاختارت البقاء عنده على العودة إلى دوبيها ، ولولا الخلق الرفيع الذى حلت عنده نفسه الشريفة لما عندما أن السيدة صفية قصيرة بعينها صواحبها بالقصر ، ولكنه سمع إحدى صواحبها تعسها بقصرها فقال لها ما معاه من رويات لا تحرج عن هذا المعنى إنك قد بطقت بكلمة لو ألفت في السحر لكدرته ، وجبر خاطر الأسيرة العربية أن تسمع في بيته ما يكدرها ويعص منها

والسيدة ريب ست ححش - نة عمه - روحها من مولاه ومتساه ريد من حارثة ، فعزت منه وعز على ريد أن يروضها على طاعته ، فأذن له السى في طلاقها ، فتروحها عنيه السلام لأنه هو المستول عن رواحها ، وما كان حمائلها حمياً عليه فبن تزويجها بمولاه لأنها كانت ست عمته يراها من طفولتها وم تخرجته بروعة لم يعهدا

والسيدة زينب ست حريمه مات روحها عند الله بن ححش قتيلاً في عروة أحد ، ولم يكن بين المسلمين القلائل في صحبته من تقدم لخطبتها ، فتكمل بها عيه السلام ، إذ لا كميل لها من قومها .

وهذا هو التحريم المشهور في أباطيل البشرين وأشباه البشرين ، وهذه هى بواعث

المنس التي استعصى على المصير أن يفهموها على حديثها ، فلم يفهموا منها إلا أنها بواعث إفساد عارق في لذات الحس ، شهوان !

ونقد أقدم هؤلاء الروحات في بيت لا يحدد فيه من الرغد ما يحده الروحات هي بيوت الكثيرين من الرجال مسلمين كانوا أو مشركين وعنى هذا الشرع الذي لا يدايه عند المرأة المسلمة شرف الملكات أو الأميرات ، شقت عليهن شدة العيش في بيت لا يصح فيه من الطعام والريثة فوق الكفاف والقناعة بأسر اليسير ، فاتفقوا على مفاتيحه في الأمر واحتجوا يسألهم المريد من السفرة وهي موفرة لديه لو شاء أن يريد في حصنه من العي ، فلا يعترضه أحد ولا يحاسبه عليه إلا أن الرجل المحكم في الأرض والأموال سيد الجزيرة العربية لم يستطع أن يريد من على نصيبه ونصيبهم من الطعام والريثة ، فأمهلهن شهراً وخيرهن بعده أن يعارقه ويهن من حق المرأة المهرقة من لماع الحس ، أو يقبل ما قبله نفسه معهن من ذلك العيش الكفاف

ولو أن هذا الخبر من أحبار بيت النبي كان من حوادث السيرة المحمدية التي تحصى على المطلعين المتوسعين في الاطلاع لقد كان للمبطلين بعض العذر فيما يفترونه على سبي الإسلام من كذب وبهتان . إلا أنه خير بعلمه كل من اطع على القرآن ووقف على أسباب التبرير ، وليس بينها ما هو أشهر في كتب التفسير من أسباب نزول هذه الآيات في سورة الأحزاب :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْن أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾ [الأحزاب : ٢٨ ، ٢٩]

وأقل المبشرين المحترفين ولعاً بالتهنيش عن حوايا السيرة النبوية حليل أن يطلع على تفاصيل هذا الحادث بحدوده لأنه ورد في القرآن الكريم خاصاً بمسألة التي يتكالب المبشرون المحترفون على استقصاء أخبارها وحصاء شؤنها ، وهي مسألة الرواح وتعدد الرواحات وقد كان لهذا الحادث المفرد في سيرة النبي صلى لم يبعه حادث من الأحداث التي عمت بها العشيرة الإسلامية حين كانت في بيتها المحدودة تحيط بإيمانها إحاطة الأسرة بأبيها .

حدث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال « كما تحدثنا أن عسان تتنعل البعاز لعروا ، فمن صاحبي يوم بؤنه فخرج عشاء فصررت ناسي صررًا شديدًا وقل أنتم هو؟ فصرعت فخرجت إليه ، وقال حدث أمر عظيم قبت . ما هو؟ أجدت غسان؟ قال : لا بل أعظم منه وأطول . طلق السي صلى الله عليه وسلم ساءه . »

ولما تألب ربات البيت يشكين ويلحفن في طلب المرید من النفقة ليث السي في دره مهمومًا بؤمه ، وأقبل أبو بكر فوجد الناس حلومًا لا يؤدون لأحد منهم فدخل الدرو لحق به عمر بن الخطاب فوجد السي وحنا وحوله ساءه ، فأحب أبو بكر أن يسرى عنه بكلمة يقولها . وكأنه فطر لسر هذا الوحوم من السي بين سائه المجتمعات حوله . فقال « يا رسول الله! لو رأيت بنت حارحة . سألتني النفقة فقممت إليها فوحأت عبقها » فصحت السي وقال هي حولى كما ترى سألتني النفقة فقام أبو بكر إلى عائشة يحأ عبقها ، وقام عمر إلى حفصة يحأ عبقها ، ويقولان سألت رسول الله ما ليس عنده؟ فعلى والله لا سأل رسول الله شيئًا أبدًا - ليس عنده . . . »

وهجر السي ساءه شهرًا ، يهلهن أن يحترن بعد الروية بين البقاء على ما تيسر له ولهن من البرق وبين الانصراف بمتعة الطلاق وبدأ بالسيدة عائشة فقال : إني أريد أن أعرض عليك أمرًا أحب ألا تعجلني فيه حتى تستشيرى أئوبك فسأته وما هو يا رسول الله ! فعرض عليها الخيرة مع سائر سائه في أمرهن فقالت : أفيت يا رسول الله أستشير قومى؟ بل أحتار الله ورسوله والدار الآخرة وأحابت أمهات المسمين بما أحابت به السيدة عائشة ، وانتهت هذه الأرملة المكرمة سلام ، وما استطاع صاحب الدار - وهو يومئذ أقلد رحى في العالم المعمور - أن يحص أرملة دره بمير إحدى اثنتين : أن يجمع البيه على هراق سائه أو يقنع معه بما لديهم من رزق كفاف

أعز مثل هذا الرجل يقال إنه جلس شهواب وأسير لداب ؟

أعز مثله يقال إنه انتغى من رسالته مأثرًا يعبه الدعاة غير الهداية والإصلاح ؟

فيم كان هذا الشقاء بأهوال الرسالة وأحوالها من مبيعة الشباب إلى سن لا متعة فيها لمن صاحبه التوفيق والطهر أو لمن صاحبه الخبة والهرمة ؟

ومن أراد الدعوة لعير الهداية والإصلاح فلماذا يريدنا ، وما الذي يعمله من ورائها؟
أترأه يريدنا محاطراً بأمنه وحياته مستحقاً بالهجرة من وطنه والعزلة بين أهله ،
لبسوم نفسه بعد ذلك عيشة لا يجمع بها أقرب الناس منه وعلاهم شرفاً بالانتماء إليه؟
أمس أحل الحس ولدانه يتزوج الرجل من تروح بهن وهو سيد الحرية العربية
وأقدر رجالها على اصطفاء النساء الخائن من الحرائر؟

وهل يتروح بهن الشهوان العارق في لذات الحس ليهتدين به في احتواء الشرف
والريه وحلوص الصمير للإيمان بالله وانتعاء الدار الآخرة؟

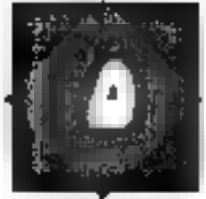
وما مأربه من كل ذلك إن كان له مأرب في طوبته غير مأربه في العلانية؟
وعلام يحاهد نفسه ذلك الجهاد في بيته وبين قومه إن لم تكن له رسالة يؤمن
بها ولم تكن هذه الرسالة أحب إليه من النعمة والأمان؟

إن استشرى المخترفين لم يكشفوا من مسألة الروح في السيرة النبوية مقتلاً
يصيب محمداً أو يصيب دعوته من ورائه ، ولكنهم قد كشفوا منها حجة لاحقة
مثها في الدلالة على صدق دعوته وإيمانه برسائله وإخلاصه بها هي سره كإخلاصه
لها في علانيته ، ولولا أنهم يعولون على جهل المستمعين لهم لاحتهدوا في
السكوت عن مسألة الروح خاصة أشد من اجتهدهم في التشهير بها واللعن فيها

وعلم الله ما كانت براءة محمد من هرينهم مرتبة بحلاء الحقيقة في مسألة
الروح والروحات . فإن أحداً يفقه ما يفوه به لا يسبح أن يقول إن عملاً كالذي قام
به محمد يصطلع به رجل غارق في لذات الحس مشغول بشهوات الحسد ولئن
كان كذلك ثم استطاع أن يتم دعوته في حياته وأن يسميها تامة قوية لحضائه ليكون
إدراك آية الآيات على تكوين من لخلق لا يدايه تكوين

ولسا نعتقد أن ديناً رفيعاً يسول لمتدين به أن يفترى الأباطيل على خلق الله ،
وأقبح من ذلك في شرع الدين الرفيع أن يكون الاعتراض على الناس سبيلاً إلى
التبشير بكلمات الله ولكن المشركين لمخترعين لا يدينون بالله ولا بالناس ، وما
يديون بعبادة الجسد الذي يكرونه ذلك الإنكار ويؤمنون به في أعمالهم وأقوالهم
أحسن الإيمان .

الطبقة



الطبقة هي المجتمع هي الفئة التي تتشابه في درجة العمل ، وعط المعيشة ومأثور الخلق والعادة ، وهي بعد الأمة والأسرة - أكثر الوحدات الاجتماعية ذكرًا وأكثرها خطرًا في العصر الحاضر

والناس مصطلحون على تقسيم الطبقات إلى ثلاث عية وفقيرة ومبسورة ، أو عليا وديا ووسطى ، وبمعه تقسيم مستعار من مرتصعات المكاتب التي يمكن أن تنقسم إلى عوقية ونحبة ومسوية ، أو من الرسوم الحمراء التي يمكن أن تنقسم إلى شرعية وعربية وموسطة ، أو تنقسم الحيوش التي يمكن أن تنقسم إلى طليعة وساقة وفلب أما تقسيم المجتمع إلى ثلاث طبقات من حيث درجات العمل وأنماط المعيشة ومأثورات الخلق والعادة فهو تقسيم على رجة التشبيه والتقريب ، كأنه تقسيم الناس إلى ثلاثة ألوان بين الناصر والسواد ، أو تقسيمهم إلى ثلاثة أشكال من ملامح الوجوه وكلها تقسيمات نقل على رجة التشبيه والتقريب لا على وجه الدقة والتحقيق

فلا بهية للمواقف بين الناس في الطائفة الواحدة ولا في العمل الواحد ، ولا يوجد فصل واحد تنحصر فيه أسباب التفرقة بين طائفة وطائفة أو بين واحد وواحد من أساء الطائفة لأن المرجع في أسباب هذه التفرقة لا يقف ب في البهية دون الظاهرة الكونية التي لا يشد عنها كائن واحد بين السموات والأرضين ، فليس في أحرام السموات الواسعة حرمان يتساويان في الحجم أو في الحركة أو في الصوء أو في المسافة ، وليس على فرع واحد من شجرة ورقتان تتساويان في السعة أو في اللون أو في البوصح أو في مادة العصب السانية ، وليست هيلك ورقة واحدة تتساوى في وقتن من أوقات النهار والليل

وإذا بلغ من عمق هذه الظاهرة الكونية واتساعها أن تتمثل في المادة الحاملة هي تركيبها وعمود فأخرى بالجماعة الإنسانية التي لا تنحصر براكيبها حسية والمعوية ألا تصيق فيها عوامل هذه الظاهرة حتى تنحصر برمتها في سبب من أسباب

الأخلاق أو سبب من أسباب الفكر أو أسباب الاقتصاد أو أسباب العوارض الطبيعية . فإن هذه العوامل المتشبكة في كل جماعة ، سلبية تتساهد وتتناظر وتعمل عمل الأصداد كما تعمل عمل لأشياء في كل كعروض من معارض الحياة . وبحسب أنه لو حرر أن يكون سبب عامل أصعاف من سائر العوامل لكان أصعافها جميعاً عامل الاقتصاد الذي رغم جماعة الماديين التاريخيين أنه هو عاملها الوحيد أو عاملها الذي لا يقوى على مهابسته عامل سواه

في بلاد الطغفات - بلاد الهند - لم تكن السيادة العيب لطبقة التجار وذوي الأموال والمرفق الصناعية والراعية ، بل كان هؤلاء معبودين من الطبقة الثالثة أو الثانية على أكبر تقدير ، ومن فرقهم جميعاً طبقة المقاتلين وعرسان الحروب وذوي الشجاعة والسرية على استخدام السلاح

والإقطاعيون في أوروبا لم يكونوا يوماً من أيامهم طبقة مسعفة هي المصلحة أو متجاوزة على وئام وسلام بل كان اسمها نفسه مشتقاً من المداوعة ، والخصومة ، وكانت العدوة بين كل فارس منها وحيرانه أشد من العدوة بين الفارس والملاح

ورأس المال زال من البلاد الروسية وزال معه أعنياتها وسراتها وتلاؤها ، وظهرت فيها - مع هذا - طبقة حاكمة من خبراء والهندسين لا تدريهم هي سطوتها واستبدادها طبقة حاكمة في أشهر البلاد باستناد نظم الصناعة ورعوس الأموال .

والصناعة الكبرى لم تكن هي الطور الاقتصادي الأخير الذي حرد العمال طبقة مستقلة تتقدم الصفوف لما يسمونه حرب الطبقات ، ولكنهم تجردوا لهذه الحرب لأنهم تجمعوا في أمكة متقاربة يتفقون فيها على المطالب والحركات ويستطيعون باتفاقهم أن يعطلوا الأعمال في المصانع ويكرهوا أصحابها على الإصعاف إليهم ، وكذلك فعل العمال في عهد الرومان قبل عهد الصناعة الكبرى بنحو عشرين قرناً حين ثاروا بقيادة « سبارتكوس » وفعل عمال اسبرطة قبلهم ما فعلوه ، ومنهم طونث « الهيلوب » الذين كانوا يفتسمون حصص من علال الأرض الزراعية كما كانوا يتفادون الأحرار

والطبقة الغنية يخرج منها من يخرج ويدخل إليها من يدخل كلما تعيرت فيهم صفاتهم البغية أو الفكرية فمضى اليوم فقير الغد ، وفقير الأمس عسى اليوم ، عسى حسب صفاتهم أو حسب العرض التي تنهياً لهم ويسوسونها بحقولهم وأحلاقهم ،

لا لأن العوامل الاقتصادية وحدها هي التي تحقق طبقات المجتمع ونقيها إلى أن تتبدل هذه فتتبدل تلك معها ، كأيهما معاً كتلة صماء تتغير من فترة إلى فترة ولا عمل فيها لإرادة الداحين فيها ولا الخارجين منها



وستبقى الطبقات ما بقي الناس محتدمين ، وسيبقى الاختلاف سهم بلا عد وبلا حد ، يقسمه من يريد التقريب والإيجار ثلاث ثلاث أو أربعاً أو اثنين اثنين ، إلا أنه سيرجع في مثات الموارد وألوفها إلى تلك الظاهرة الكونية التي لاتدع ورقين على فرع واحد من الشجرة الواحدة متشابهين كل التشابه في تركيب الأجزاء ، وأخرى ألا يشابه التركيب في الجماعات الإنسانية ولو شابهت ظروفها الاقتصادية كل التشابه فيما بدا واستتر وفيما يمكنه الأهر د أو تمذكه الجماعات من إرادة وتغيير



وبحق لنا أن نطرح إلى بسألة من وجهة أخرى غير وجهة الواقع الذي لا حيلة لنا فيه . هنسأل : أترا ب سلم لهذه الظاهرة الكونية لأنها قضاء حتم يقدر علينا كما ينهد في الكون كله من أعلاه إلى أدناه ؟ أترا بدل من هذه الظاهرة الكونية لو ملكنا التدبير في حياتنا الإنسانية فلا بدع من الإنسان والإنسان موصفاً لاختلاف التركيب في الأحسام أو في العقول أو في الأحوال والأطوار ؟

لو أب فعلنا ذلك لطلما أنصبا وحرمت النوع لإنساني ثروة من الأفكار والعواطف والأدق بحسب علينا الحرمان منها أفراداً وجماعات . فإن هذه الثروة الممسية هي التي تميرنا من الأحياء الدنيا ، وهي التي تمير المتقدمين ما على المتأخرين ، وهي التي تميرنا من تنويع الكميات وتنويع الأعمال وتجعل كل فريق منا لارماً لكل فريق بين سكان الكرة لأرضية قاطنة أو بين السكان في كل بقعة من بقاعها على نفراد ، وبطل هذا التنويع في أفكارنا وأخلاقنا وأذواقنا ثروة نفسية نحرص عليها ولو ثبت أنها في أصولها ضرورات اجتماعية تفسرنا عليها المنفعة لمادية والحاجة الحيوانية . فإن الضرورات التي تمتع لنا أفاقاً من الفكر والخلق والدون تنوعها وتوسع حواسها حير من الضرورة التي نحسها في أعق ضيق يهبط ب شيئاً فشيئاً إلى حضيض تحت حضيض من الحيوانية العجماء

فبو أميا ملكيا رمام أمانيا بأيديا لما طاب له أن يلعب طيفاب الناس التي يحدها تنوع الأفكار والأحلاق والأدواق ، ولابد أن يخلق معها اختلاف في درجات الأعمال وأماط المعيشة ومأثورات العرف والعادة فإن شر المجتمعات لمجتمع مثله قليل المرايا يصدق عليه ما قاله الشاعر العربي بمطربة السليمة في سى الخهيم :

وبو الخهيم قبيلة مدعوه حصن اللحي متشبهو الألوان

ون مجتمعاً كهذا المجتمع الصيق المتشابه في أحوال أبنائه وأطوارهم لشر من مجتمع اللى تنوع فيه الأحوال ولأطوار ولو طعى فيه أناس على آخرين وثار فيه المقهورون على الطعة الفاهرين ، فإنه يؤول في أحرة انطاف إلى بقاء الأصلح من الفريقين أو بقاء الصالح من أحلاق كل فريق

ولعبنا نرجو من هدا الصراع خيره في هدا العصر إذا كان من أثار ضروره أن يعلم به ، وأن يعرف ما يحدره منها ، وسعى إلى اجتنايه بما في وسعنا فإدا لم يكن من أمانيا أن محو الاختلاف لأنه محو للتنوع أو محو لثروتنا الإنسانية - عليكن من أمانيا أن نجعله احتلاف لا طعيان فيه ولا استئثار ، ولا مدنة فيه من الحجاب الآخر ولا حرمان

وخير المجتمعات إذن مجتمع يسمح للكفايات والمرايا الخلقية بالجمال اللى يناسبها في الحياة العامة ، ولكنه لا يسمح لها بأن تحرم أحداً حقه أو تقف بيه وبين محاله اللى استعدله بما هو أهله ، ولو لم يولد فيه ولم يكن منه بالنسب والمورثة

وهذا المنع هو اللى يأمر به الإسلام ويحمده ويركبه نتعاليمه ووصاياه

فهو لا يجمع التفاوت بين أهدار الناس وإن كانوا من الأساء والمرسين .

﴿ وَلَقَدْ فَصَّلْنَا بَعْضَ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [الإسراء ٥٥]

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَصَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ

دَرَجَاتٍ ﴾ [البقرة ٢٥٣]

ولا يسوى الإسلام بين العلماء والجهلاء ، ولا بين المؤمنين في صدق الإيمان

﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩]

﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة: ١١]

• • •

وليس من العدل في الإسلام أن يختلف الناس في العمل ويتساووا في الأرواح ، فهم مختلفون في درجات الرِّق كاختلافهم في درجات العلم والإيمان

﴿ نَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ

دَرَجَاتٍ ﴾ [الرحرف: ٣٣]

﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّقِ ﴾ [الحل: ٧]

• • •

، لا أن هذا التفاضل في العلم أو في الرِّق لا يقوم على السب الموروث ولا على العصب والسطوة ، وإنما يقوم على العمل ولا يحق لأحد أن يحتفظ به إلا بمقدار ما يستعنى فيه بعمله .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١]

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ

فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٦٥]

﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا رِمًا رُبُّكَ بِعَاقِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣٢]

ولا يحصى أن المجتمع الإسلامي مجتمع ضمائر ونفوس يحاطبها الدين ، ولديها سبل الخطاب الذي يراد به صلاح العقول والأبدان فإدخال حص الإسلام طائفة بالخطاب فتلك هي الطائفة التي تمتاز بالعلم والقوامة الفكرية في الأمة ، ولا يحمده الإسلام من مجتمع إنساني أن يحلو من هذه الطائفة التي تناط بها البصيرة وتوكل إليها مهمة الهداية إلى الرشd والتحرير من المصلااة في مصالح الدين والدنيا ، وتلك هي جماعة أهل الذكر وجماعة الداعين إلى الخير ولأمري

بالمعروف والناهي عن المنكر ، وهي الجماعة التي سماها فقهاء الإسلام بعد ذلك بأولى الخلق والعقد ووكلاء إليها ترشيح الإمام والرقابة على ولاية الأمور ، تطوعاً لا يبدئهم له أحد ولا يفرصه أمر مرسوم يتحكم فيه سلطان الدولة ، ولكنها أمانة العلم يهصر بها من هو أهل لها ويسمع به من يستمع وهو مسئول عن صوابه أو خطئه في الثقة والاختبار .

﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ [النحل ٤٣]

﴿ ولئن كن مبكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾

[آل عمران ١٠٤]

وأسوأ المجتمعات هي الدين الإسلامي مجتمع أقوام لا يتوحدون بالخير ولا يتناهون عن منكر فعلوه إلا أن الإسلام يعنى بالصالحين والمفسدين ويقرر إلى ذلك على الدوام حمايته بمراقب الدنيا ومصالح الأجسام .



فالمسلم مأمور كما تقدم في غير موضع - بأن يستوفي نصيبه من طيبات دينه ، وله أن يجمع من المال ما يستحقه بعمله وتديره ، ولكن في غير إسراف ولا استئثار ولا احتكار .

كسب المال مباح محمود ، ولكن الدين يكرون الذهب والفضة ولا ينفقونها في الخير ملعونون مستحقون للعذاب الأليم .

﴿ والذين يكرون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فيشربهم عذاب

أليم ﴾ [٣٤] [توبة ٣٤]

وصلاح المال أن تداوله الأيدي

﴿ كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ﴾ [الحشر ٧]

وليس من الخير في غنى المال أن يجمعه للإنسان حتى يطعمه

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴾ (١) أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى ﴿ ٢ ﴾ [العلق ١، ٢]

أما اختكروا فهم مسودون من المجتمع الإسلامي يبرأ منهم ويعيهم الله ، كما جاء في الأحاديث السوية الشريفة « الجالب مرروق والمختكر ملعون »^(١) وكما جاء فيها « من احكر طعاماً أربعين يوماً يريد به العلاء فقد برئ من الله وبرئ الله منه »

ودفعاً للحيلة في التصاريه بالسقذ أو بالطعم لاحتكاره وتحيل الرب عليه قد نهى عليه السلام أشد أنهى عن مسألة السعاد ولأطعمة سمائله برباده فها فقل في روايات متشبهة « الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلاً بمن يدا بيد فمن راد أو استراد فقد أربى »

والإسلام يحب للمسلم أن يعمل ويكسب ويكره له أن ينطل ويتكل على غيره وأحاديث النبي ﷺ تؤكد لأوامر لإنهية في هذا المعنى فيما يحمعه قوله تعالى

﴿ وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة ١٠]

والنبي ﷺ يقول « إن الله يحب العبد المخترع ويكره العبد البطال »

ويقول : « أفضل الكسب كسب الرجل بيده »

وكان الخليفة العظيم عمر بن الخطاب مؤسس الدولة الإسلامية يقول « والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال رجئت بعير عمل فهم أوسى بمحمد ما يوم القيامة . فإن من قصر به عمله لا يسرع به حسبه . . »

فلا عذر في المجتمع الإسلامي لمن يقعد عن العمل والكسب وهو قادر عليهما . أما الذي يقعد عنهما اضطراراً بعجز أصابه أو حرج وقع فيه فله على المجتمع حق مفروض لا هوادة فيه يؤديه عنه كل من ملك نصاب الزكاة وهي إحدى الفرائض الخمس التي يبي عليها الإسلام ، ولم يتكرر في القرآن الكريم ذكر فريضة منها كما تكرر ذكر هذه الفريضة بلفظها أو بلفظ يدل عليها كالصدقة وإحسان والبر وإطعام اليتامى والمساكين ومن الآيات التي ورد فيها الحصر على الزكاة ما يعلم لمسلم أن البر هي العقيدة وإيتاء المال لأصحاب الحق المشروع فيه

(١) رواه ابن ماجة والحاكم

﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ لَمَشْرِقٍ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنْ إِبْرَءٌ مِنْ أَمْسٍ بِاللّٰهِ
وَأَيُّومٍ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَلَيْتَامَىٰ
وَالْمَسَاكِينَ وَأَبَّى السَّيِّلِ وَالسَّالِّينَ فِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة ١٧٧]
وعا ورد في الحصص على الزكاة باسم الصدقات مع ساد مستحقيها قوله تعالى
في سورة التوبة .

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي
الرِّقَابِ وَالْعَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبَى السَّيِّلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ [التوبة ١]
وتحت الزكاة على الأعمى ولما شبة وعلى ، لأموال وعروض التجارة وعلات
الزروع ونصاب الزكاة في الإبل خمس وهي الفر ثلاثون وهي العنم أربعون ،
ونصابها في الأموال والعروض وثميرات الزروع نصارع هذه القيمة على وجه
التقريب ، ولحصة المفروضة على النصاب نصارع ربع العشر من رأس المال والحصة
المفروضة على الثمرات نصارع العشر بما يسقيه المطر ونصف العشر بما تسقيه
العروب وأدوات الري على إجمالها .

ففي كل سنة يستحق المعوزون المفتقرون إلى المعونة حرءاً من أربعين حرءاً من
رؤس الأموال في الأمة ، أو حرءاً من عشرة أحرء من ثمرات الزراعة وما إليها ، وهو
مقدار من الثروة العامة لا يخصص مقدار منه في الأمم الخديثة التي تقررب فيها
حصة من موارد الدولة للإعاق على العجزة والشيوخ ومن يستحقون العون لغير
تصريف أو تقصير .

ومن الآيات لتقدمه يعلم أن المستحقين للزكاة ثمانية أصناف هم (١)
المفقراء وهم الذين يملكون شيئاً دون نصاب الزكاة ويستفيدونه في حاجاتهم
وضرورهم و(٢) المساكين وهم الذين لا يملكون شيئاً و(٣) عمال الزكاة وهم
موصفون بالدولة الذين يحصلونها أو يورعونها و(٤) المؤلفة قلوبهم وهم المسلمون
حديثو العهد بالإسلام من تحشى عليهم العنة أو الكفر يستألفهم الإسلام ولا
يعملون ما يؤدي إلى مسلمين و(٥) الأرفاء الذين يفتنون من الأسر بالمال و(٦)

المكويون بالمعارم و(٧) المجاهدون الذين يحاحون إلى البصمه و(٨) العرباء لمقطعون عمن يعوبهم ، وكل من هو على حكم هؤلاء اصطرراً إلى رعية المجتمع وعجراً عن ولاية أمره نفسه .

ولم يقصد الإسلام بفريضة الزكاة أن يجعلها حلاً لمشكلة الفقر في المجتمعات الإنسانية وإنما تحل مشكلة الفقر في المجتمع الإسلامي بالعمل والسعي في طلب الرزق يتعاون على تدبير وسائلهما ولاية الأمر وطلاب الأعمال ويحاسب الإمام على التواصي في هذه المهمة كما يحاسب على التواصي في سائر مصالح الرعية . ولا شك أن الإسلام قد صنع في حل مشكلة الفقر من أسسه صبيحة الذي لم يسبقه إليه دين من الأديان الكتابية أو أديان الخصارات الغارة فيه مسح عن الفقر قداسته التي حلتها بها عبادات الأمم وأحاطته بها في الصوامع والبيع والمحارب لمقطعة عن العمران ، ومسح عنه تلك القداسة من حدودها حين أنكر عديب الحسد وحرمانه ، وحين رفع عن الحسد مسمة الدنس والحاسة المتأصلة في دحيلة النكوبين فأوجب على المسلم أن يسعم بطيبات الرزق وأنكر عليه أن يحرم بما أحل الله من تلك الطيبات التي لا تقف عند حدود الضروريات بل تتخطاها إلى الرقة والحمدل . ومن استهان بأثر هذه النظرة لسليمة إلى الفقر فليتخيل كيف كانت مشكته العصر تساس للعلاج بين أناس ينظرون إليه نظرة القديس وينظرون إلى مشاع الحسد نظره الررايه والتدليس؟ وليتخيل الفارق البعيد بين مجتمع يعمل على تعظيم الفقر واعتبار العمل في طلب الرزق عتلاً تنمى به الروح من عواية الحسم اردول ، وبين مجتمع يعمل على إيجاب السعي ويوم أساءه على تحريم الطيبات والرهده في الدنيا ، ويؤخذ لإسان إد مد يده بالسؤال وعنده قوت يكفيه مؤنة السؤال

إن لإسلام قد جاء بالوسيلة التي لا عسى عنها في مكافحة الفقر وحل مشكلته يوم جعله ضرورة لا نباح للمسلم إلا كما ساج الضرورات التي لا حيلة فيها ولا احتيار معها . وإنما فرض الزكاة من أصابتهم تلك الضرورات وأفعدتهم عن السعي واستنموا مع المجتمع كل حينه في تدبير العمل المستطاع ومن

لم يكن منهم مستطعاً عملاً بتدبير من الإمام أو بتدبير من نفسه فهو مكحول الرزق بما تحببه الدولة من حصة الزكاة حفاً معلوماً يتماشى منه من الإمام ولا هوادة فيه .

وليس حصة الزكاة بالقدر الصغير عند المقاربة بينها وبين الحصة التي تخصص من ثروة الأمة في المجتمعات الحديثة للإعاق على العجزة والشيخوخة واسقطيين ممن يعولهم ، فإنها كما هو معلوم - تصارع حراً من أربعين جزءاً من ثروة الأمة في كل سنة ، أو تصارع عشر الثمرات لرعاية وما إليها ، وليس في مجتمع من المجتمعات - حتى الشيوعية منها - من يريد على هذا القدر في الإعاق على ذوي الحاجات من العجزة والشيخوخة إلا أن الإسلام مع هذا لم يقصر الإحسان على فريضة الزكاة ولا أسقط عن القادرين واجب العون من يعرفونهم ويقدرهم على إمدادهم بما يعيهم على شدائدهم إذ نسبت الزكاة هي كل ما يصعبه المحسنون القادرون على الإحسان ، ولكنها هي الإحسان الذي تفرسه الدولة وتسخره من المبرورين عيهم غنة إن لم يؤدوه طواعية في موعده المعلوم

ورداً انصبت مشكلة الفقر ومشكلة الطبقات على هذا النحو بالعاملون كلهم في كفلة المجتمع والطبقات كلها عاملة مسجة محل مشكلتها بصحيح أوضاعها وبوطيد هذه الأوضاع على نظام عادل في مجتمع سليم

وأحر الحلول التي أسفرت عنها تجارب القرون المتطولة في مشكلة حرب الطبقات أن هذه المشكلة لا تزال بإزالة الطبقات من بإزالة الحرب بينها ، وإن هذه الحرب تجمع كلما تقاربت الفجوة الواسعة بين الطبقات فلا إفراط في العس ولا إفراط في الفقر ولا سبيل لهريق منها أن يحور على هريق سوء وقد اندفع حراء الصناعة و لاقتصاد في العصر الأخير ومسيبة للنقارب من درى الأموال وطوائف الصناع والعمال أن يشتركوا في المصلحة الكبرى متعاونين عليها مساهمين فيها ، إما بتوزيع الحصص على تفاوت مقاديرها ، وإما بتعميم المرافق التعاونية التي تتلافى فيها مدافع المتحدين واستغنيين وأرباح السائعين والشرارة .

وليس في هذا الحل شرط من شروطه لا تيسره بعالم الإسلام ووصاياه فإن

التعاون أدب من أدبه يأمر به الناس حميف وتسد بتشبيه إليه أمة تتواصى
المعروف وتنتاهى عن المنكر .

﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ [المائدة: ٢٠]

﴿ وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ [العصر: ٢]



وواجب الكبار فيه كواجب الصغار . فليس من المسلمين كبير لا يرحم الصغير
وصغير لا يوقر الكبير كما جاء في الحديث الشريف : « ليس منا من لم يوقر
الكبير ويرحم الصغير ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر »

وإنه لما يبسر هذه التعاون بين طوائف الأمة أن تقرر فيها كماله الصعفاء حرص
محسوماً على القادريين ، وأن يتمتع حبس المال في أيدي فريق من الناس فلا إفراط
في العس ولا إفراط في العاقبة ، ولا استئثار ولا حرمان

ولا تحل مشكلة الطبقات بالرأى أو بالواقع ، لا على هذه النحو الذي ينتهى إلى
إزالة حرب الطبقات ولا يسهى إلى إزالة الطبقات . فالعالم بحير مادام فيه أنواع
الكفايات وهورق المرابا والصفات ، وما دامت هذه الأنواع والفوارق فيه ينعم بعضها
بعضاً ويحرق بعضها على معونة بعض . والعالم على شر ما يكون إدارل فيه كل
حلاف برول الأداة المختلف عليها . يتنازع الناس الأموال فتروول الأموال ، ويتنازعون
الحكم فيزول الحكم ، ويتنازعون الحرية فتروول الحرية ، وما هم في الحق بقادريين
عسى إزالة شىء واحد يتنازعون عليه ، هو أربوا فوارق الأوراق لم يربلوا الفوارق
بينهم على الذكاء والعناء ، أو على القوة والصعفاء أو على الحياء والخمول ، أو على
الوسامة والدمامة ، أو على الذرية والعقم . ولو أنهم أربوا لزلوا أجمعين ، ونكهم
ناقون برحمة الله .

﴿ وَلَا يَرَالُونَ مُتَحَلِّفِينَ ﴾ [هود: ١١٨]

الرق



شرع الإسلام الحق ولم يشرع الرق ، إذ كان الرق مشروعاً قبل الإسلام في القوانين الوضعية والدينية بجميع أنواعه رقيق الأسرى في الحروب ، ورق السبي في عارات القناتل بعضها على بعض ، ورق السبع والشراء ، ومنه رقيق الاستدانة أو الوفاء بالديون

وكانت اليهودية بيعة ، ونشأت المسيحية وهو مباح فلم تحرمه ، ولم تنظر إلى تحريره في المستقبل ، وأمر بولس الرسول العبيد بطاعة سادتهم كما يطيعون السيد المسيح ، فقال في رسالته إلى أهل أفسس :

« أيها العبيد ، أطيعوا ساداتكم حسب الجسد بحقوق وعدة في بساطة قلوبكم كما للرب يسوع ، ولا بحكمة العين كما يرضى الناس بل كعبيد المسيح عامين مشيئة الله من القلب خادعين بنية صالحة كما للرب ليس بساكن ، عالمين أن مهما عمل كن واحد من الخير فذلك يساله من الرب عبداً كان أم حراً »

وأوصى الرسول بطرس بمثل هذه الوصية ، وأوحىها أناء الكنيسة لأن الرق كفاره من ديون البشر يؤديها العبيد لما استحقوه من غضب السيد الأعظم ، وأصاف القديس الفيلسوف توما الأكويني رأى الفلسفة إلى رأى الرؤساء الدينيين فلم يعترض على الرق ، بل ركاه لأنه على رأى أستاذه أرسطو حالة من الحالات التي حُقق عليها بعض الناس بالمفطرة الطبيعية ، وليس من ينافى الإيمان أن يمنع الإنسان من الديق بأهول مصيب

ومذهب أرسطو في الرق أن هرباً من الناس مخلوقون للعبودية لأنهم يعملون عمل الآلات التي يصرف فيها لأحرار دون الفكر فهم آلات حية تلحق في عملها بالآلات الخدمية ، وبحمد من الله يسخدمون تلك الآلات الحية أن يتوسموا فيها القدرة على الاستقلال والتمييز فيشجعوها ويربها من مرة لأداة المسخرة إلى متقلة الكائن العاقل الرشيد

وأستاد أرسطو - أفلاطون - يقصى فى جمهوريته الفاصلة بحرمات العبيد حق
« لوطنة » وحيارهم على الطاعة والخصوع للأحرار من سادتهم أو من السادة العرب ،
ومن تطاول منهم على سيد عرب أسلمته الدولة إليه ليقصص منه كما يريد

وقد شرعت إحصارة اليونانية نظام الرق العام ، كما شرعت نظام الرق الخاص و
تسخير العبيد فى خدمة البيوت والأفراد ، فكان للهياكل فى آسيا الصغرى رقاؤها
الموقوفون عليها ، وكانت عليهم واجبات الخدمة والحراسة ، ولم يكن من حقهم
ولاية أعمال الكهانة والعبادة العامة

واقصى على العالم عصور بعد عصور وهذه النظم ضائع فى أرحائه بين الأمم
المعروفة فى القارات الثلاث ، ينتشر بين أمم إحصاره وفبائل البادية التى تكثر فيها
عادات السلب والبرعى ، ويقبل إشهاره من الأمم الزراعية عند أودية الأنهار الكبرى
كودى النيل وأودية الأنهار الهندية . لا أن الأمم فى الأودية الهندية كانت تأخذ
نظام الطبقة المسخرة أو الطبقة اسودة ، وهى فى حكم الرقيق العام من وجهة النظر
إلى الملكية الاجتماعية والحقوق الإنسانية

وعنى هذه الحالة كان العالم كله يوم مبعث الدعوة الإسلامية من قبل
الصحراء ليس فيه من يستعرب هذه الحالة أو من يشعر بحاجة إلى تعديل فيها
حيث يكثُر الأرقاء أو حيث يقلون

وهى البلاد التى كثر فيها عدد الأرقاء كانت الأوضاع الاقتصادية والاقتصادية
فيها مربطة بأعمال الرقيق فى البيوت والمزارع والمراعى العامة ، فلم يكن تعبير هذه
الأوضاع مما يحظر على المال ، ولم يكن تعبيرها مستطاعاً بين يوم وليلة ، لو أنه حظر
على مال أحد .

وهى البلاد التى قل فيها عدد الأرقاء لم تكن هناك مسألة حارة أو معقدة
سمى مسألة الرقيق وتستدعى من نوى الشأن اهتماماً بالتعبير والتعديل

وكان عدد الأرقاء قليلاً فى البادية العربية بالقياس إلى أمم إحصاره إذ كان عددهم
بين المسلمين لأوائل لا يريد على عدد الأصابع فى اليدين ، فلم يكن بدعاً من انديين
الحديد أن يترك الحالة فى الصحراء العربية - وهى العالم - على ما كانت عليه حاله

لا يستعربها أحد ، ولا يفكر أحد في تغييره أو تعديلها ، ولكنه لم يتركها ، ولم يعقلها ، ولم يؤجلها بين لإعصاء والاستحسان لهوائها وقله حدودها بل جرى فيها على دأبه في علاج المساويى الاجتماعية والأخلاقية يصحح منها ما هو قابل للإصلاح في حينه ، ويجهد للتقدم إلى المرید من لإصلاح مع الرمن كما بهيات ذو عيه

ونحن نحب أن نلخص ما صعبه لإسلام في هذه المسألة قبل أربعة عشر قرناً في بضع كلمات إنه حرم الرق جميعاً ، ولم يح من إلام هو صااح إلى الآن وفحوى ذلك أنه قد صبح حير ما بطلت منه أن يصعب ، وأن الأمم الإنسانية لم تأت بحديد في هذه مسألة بعد الذي تقدم به الإسلام قبل ألف وثمانمائة عام فالدى أنحه الإسلام من الرق صااح اليوم في أم الحصاره التى تعاھدت على منع الرقيق منذ القرن الثامن عشر إلى الآن

لأن هذه لأم التى اتفقت على معاهدات الرق تبيح الأسر واستبقاء الأسرى إلى أن يتم الصلح بين المتحاربين على تبادل الأسرى أو التعويض عنهم بالهدء والعرامة

وهذا هو كل ما أباحه الإسلام من الرق أو من الأسر ، على التعبير الصحيح وعاية ما هالك من فرق بين الناصى قبل أربعة عشر قرناً وبين الحاصر في القرن العشرين أن الدول في عصرها هذا تنولى الاتفاق على تبادل الأسرى أو على اعتداء بعضهم بالعرامة والتعويض أما في عصر الدعوة الإسلامية فلم تكن دولة من الدول تشعل نفسها بهذا الواجب نحو رعاياها المأسورين ، فمن وقع منهم في الأسر بقى فيه حتى يصدى نفسه بعمله أو عاله ، إذا سمح له الأسرون بالهدء

فماذا لو أن الدول العصرية بقت على حطة الدول في القرن السادس للميلاد؟ ماذا لو أن الحروب اليوم انتهت كما كانت تنتهى في عصر الدعوة الإسلامية بغير تفق على تبادل الأسرى ، أو على افتكاكهم من الأسر بالتعويض والعرامة ؟

كانت حالة الأسرى اليوم نسه حالة الأسرى قبل أربعة عشر قرناً في حقوق العمل والحربة والتمتع بالمراب الاجتماعية ، وكان كل أسير يطل في موطن أسرہ رقيقاً مسحراً في الخدمة العامة أو الخاصة محروماً من المساواة في حقوق المواطنة بينه وبين أباء الأمة العالمة

حالة كحللة الرق التي سمع بها ، لإسلام على كره واضطرار

ولكن الإسلام لم يقع بها في إبان دعوته ، وأُصاف إلى شريعته في الرق بواهل وشروط تسبق الشريعة الدولية بأكثر من ألف سنة . فإذا كانت الشريعة الدولية لم تعرف الدولة هي فكأن وعيها من الأسر فقد سبق الإسلام إلى حرص هذا الواجب على الدولة فجعل من مصارف الرقاة إنفاقها « في الرقاب » أي فكأن الأسرى ، وأن يحسب للأسرى حق من الفىء والعزيمة كحق غيرهم من بلقاتين

وإذا كان ارتباط الأسرى صربه لأرب في الحروب الحديثة فالإسلام لم يجعله حملاً مقصيً هي جميع الحروب ، وحرص على التحفيف من شدته مايسر التحفيف منه وجعل المرفق في التسريح أفضل خطئ ﴿ هَامَا مَا بَعْدُ وَإِمَا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْرَاقَهَا ﴾ [محمد: ٤]

وحدث المسلمين على فصول القدية من الأسير أو من أوليائه .

﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكْتَبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَأَنْتُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ [البور: ٣٣]

وقد كثرت وصايا النبي ﷺ بالأرقاء فقال في بعض الأحاديث : « أوصاني حميى جسريل بالرفق بالرفيق حتى ظننت أن الناس لا تستعبد ولا تستخدم » وكانت من أحر وصاياهم قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى وصيته « بالصلاة وما ملكت أيمانكم » وبهى المسلمين أن يتكلم أحد عما منك فيقول : « عبدى وأمتى . وإما بذكرهم فيقول فتاى وفتاى كما يذكر أساءه وساته . وكان ﷺ يعلم صحابته بالقدوة في معاملته الرفيق كما يعلمهم بالبرصه ، فكان يتورع عن تأديب وصيفته صرناً بالسواك ، وقال لوصيفة أرسلها فأطاعت في الطريق : « لولا خوف القصاص لأوحعتك بهذا السواك » .

ومن الوسائل الفردية التي بحرى بها لإسلام تعميم العتق وتحويل فكأن الأسرى أنه جعل العتق كفاره عن كثير من الذنوب ، كالقتل الخطأ والحبس باليمين ومحالفة قسم الظهار .

﴿ وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمَاً حَطَّأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمَةٌ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا ﴾
 هُنَّ كَانُوا مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمَةٌ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ
 وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمَةٌ ﴿ [النساء ٩٢]

﴿ لَا يُؤَاحِدُكُمْ اللَّهُ بِاللُّغْرِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاحِدُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمْ لِأَيْمَانٍ ﴾
 فَكَمَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيَكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ
 رَقَبَةٍ ﴿ [المائدة ٨١]

﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَنْ
 يَتَمَاسَّا ﴾ [المجادلة ٣٠]

ويحسب من الرذائل لما حُرِّدَ على إيساء السبي أنه لا يفتحهم هذه العفة أو لا
 يهض بهم العفة المؤكدة .

﴿ فَلَا اتَّحِمُ الْعُقُبَةُ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعُقُبَةُ (٢) فَكُ رَقَبَةً (٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ
 ذِي مَضْجَةٍ (٤) بَيْتًا دَا مَقْرِبَةٍ (٥) ﴾ [الح ١٠]



فالتحق إدم هو الذي شرعه الإسلام في أمر الرق وأما نظام الرق بأنواعه فقد
 وحده مشروعاً وحرمة جميعاً ، ولم يسح منه إلا ما هو مباح إلى اليوم في نظام لأسرى
 وتستجيرهم في أعمال من بأسروهم من المتفانين وسبق القوانين الدولية بتقريره
 إلزام الدولة واجب السعى في إطلاق أسراها وإعاقهم بالعداء ، وشجع ذلك بالوسائل
 الفردية فيما يتعلق به الدمة إلى الأفراد من مالكي الأرقاء بعد وفاء الدولة بدمتها

ولا يقال هـ إنه عمر كثير أو قليل ، بل يقال إنه العمل الوحيد الذي يستطيع في
 محاربة نظام الرق ولم تستطع أم الإساسه ما هو خير منه في علاج هذه مسألة إلى الآن



أي شعاعة كتب لأولئك المساكين المسبيين في عصر يصمونه بحق في تاريخ
 العالم - بأنه عصر الجهالة والطغيان ؟

لقد كانوا على كثرتهم أو قلتهم أهون شأنًا من أن يحتفل بهم صاحب
 شريعته أو ولايته ، ولم يطلع من مسألتهم في حرية الحرب ولا في بند من بلاد العالم
 أن تسمى مشكلة تلج على ولاة الأمر أن يطوروا حلها بما يرضى العبيد أو بما
 يرضى السادة المحكمين فيهم . كانت مسألتهم من مسائل المعروض منها أو من
 مسائل العادة التي يتقنها الناس على علاقاتها ولا يسعرون منها شيئًا يدعوهم إلى
 تعديلها ، بل إلى الكلام فيها . هذا بالإسلام يلقى لهم على الخشوع حلاً كحل
 الطاهر المتصور في كفاح يسام معونه ما لم يكن يرضاه باختياره ، وإدخاله
 العربي في أم خصارة بقية من بقايا الأمم رهينة بيومها الموعود
 شأن لأرقاء في الحرية العربية أهون يومئذ من أن يدعو ولاة الأمر إلى عناية به
 على قسر أو على اختيار .

وشأن الأسرى في حروب الدول يومئذ كشأن الطريدة من الحيوان لا تسلم من
 التمزير إلا لتعنى عناء انطية المسخرة في عمر رحمة ولا مسألة بحساب وشرائع
 الدس . كشرائع العرف فدوة لا يقاس عليها ما شرعه الإسلام بغير سابقة في
 أمر الأمري ولا هي أمر الأرقاء

شريعة العهد القديم كما نص عنها لأصحاب العشر من كتاب التثنية نقول
 لمقاتل المؤمنين بها :

« حين تقرب من مدينة لكي تحاربها اسدعها إلى الصلح فإن أحببتك إلى
 الصلح وفتح لك فكل الشعب المرحود فيها يكون لك للنسحير وتستعبد لك
 وإن لم تسالك بل عملت معك حرباً فحاصرها ، وإدفعها الرب إليك إلى يدك
 فاصرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأم النساء والأطفال والنساء وكل ما في
 المدينة وكل غنمها فاعلمها لنفسك ، وتأكل غنمة أعدائك التي أعطاك الرب
 إليك هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك حذاً التي ليست من مدن هؤلاء الأمم
 هـ أما مدن هؤلاء الشعوب التي بعطيتك الرب إليك بصيراً فلا تستقي منها
 سمة ما بل تحرمها تحريمًا . . . »

وأقصى من هذا الحراء حراء المدن التي يحجم فيها ما حرم بالدعوة إلى غير إله
 إسرائيل ، فإنها كما جاء في الأصحاح الثالث عشر من كتاب التثنية

« فصرنا نصرب بحد السيف وتحرم نكل ما فيها مع بها ثمتها بحد السيف تجمع كل أمتعتها إلى وسط ساحتها وتحرق بالنار المدينة وكل أمتعتها كاملة للرب إلهك ، فتكون ملا إلى الأبد لا تبس بعده .. » .

فالقذوة في حروب الدين وحروب المصنع تعرى بالفسوة ولا تعرى بالعمو والرحمة وأخرى يعرب الجاهلية أن يكونوا هي قسوة سى إسرائيل أو أشد منهم قسوة لأهم أهل نادية مشهم « يدهم على كل إنسان ويد كل إنسان عليهم » كما قيل عنهم في العهد القديم فإذا علت وصيب الرق في الإسلام بالعدل الطبيعية التي تسيعها عقول مكريه فمادا يقول الدين يسكرون الدعوة الإسلامية تعصب لدين آخر ؟ ومادا يقول الدين يسكرون من الجاهلين للأديان ؟

يقول المسكرون المتعصبون لدين غير الإسلام إن الدعوة برمتها تلميق رحل دجال ولا بدرى كيف تسبخ عقولهم أن يكون الرسول الدجال أرفع أدباً وأشرف حقاً وأمر بالإنسانية الضعيفة من الرسل الصادقين

ويقول المسكرون من أنصار العدل الطبيعية إن الدعوة الإسلامية وليدة البلاد العربية حرحت من أطواء عقائدها وتقاليدها ومأثوراتها . ولا بدرى كيف يكون الإبهام والعموص إذا كان هذا هو التعليل والتفسير ، فهنا لا يقول شيئاً ترصاه العقول وتستريح إليه إذا قلنا إن البيئة العربية حاءت بتقيض استظر منها وتقيض المنتظر من العالم حوالها .

إن تصديق أعجب لخورق لأحمر بعقول الفريقين من قول هذا اللغو الذي صدقوه وطمأنوا إليه ، ونحن نريد للدعوة الإسلامية سسها المعقول فلا يرى تناقض بين هذا السبب وبين الواقع الذي لا عرابة فيه إلا إذا أوحبنا نحن على عقولنا أن نستعربه متعسفين .

فالعرب عدد أن يأتى رحل دجال بما لم تأت به أرفع لخصارات والديانات من قبله ، والعرب عدد أن يكون محمد معوثاً بإرادة الأمة العربية وهي ماضى في أيام الجاهلية .

أما الواقع الموافق للعقل ، ولا ماقصة فيه لئواميس الكون ، فهو أن يخلق الله

إنساناً كاملاً يلهمه الحق والرشد ويعينه إلى الهداية عليهما يعمل يستطيعه ويستطيع الناس أن يفهموه متى حدث - كما يفهمون حلائل الأعمال - إلا أنهم لا يستطيعون أن يتوقعوه إذا قصروه على المألوف المعهود في سيق التاريخ

وهذا تفسيرنا لوصايا الرق في الإسلام ، نرتصيه عقولاً ونقول عن يقين إنه أقرب إلى العقل من معجزة الدجل ومعجزة الفرائض لمسحيلة ، وبحسب أن لمكافرة تفصر عن الذهاب إلى الأمد الذي يدفعها إليه من لا يفرقون بين الدجل والصدق أو لا يفرقون بين الواقع والمستحيل .



وتطوى القرون ويكشف الزمن عن أزمة الرق الكسرى في التاريخ الحديث .

إن وصايا الإسلام في مسألة الرق حولت كثيراً ، وكان من محالها كثير من المسلمين ، ولكن الإسلام - على الرغم من هذه المخالفة لمكرة - لا يضيره ولا يعص منه قصاء التحرية العممية عند الموازنة بين حماية جميع المسلمين على الأرقاء وحماية الآخرين من أتباع الأديان الكتائية

فالقارة الأفريقية - في بلاد السود - مفتوحة أمام أساء السواحل المجاورة لها منذ مئات السنين ، ولم تفتح للحاسين من العرب إلا بعد اتصال الملاحة على ساحل البحر الأطلسي في العالم القديم والعالم الجديد

وفي أتل من خمسين سنة نقل الحاسون العربيون جموعاً من العبيد السود تلغ عدة البائس من دريتهم بعد القتل والأصهاد - نحو خمسة عشر مليوناً في الأمريكتين - عدد يصارع خمسة أصعاف ضحايا العنصرية في القارات الثلاث منذ أكثر من ألف سنة ، وهو فارق حسيب بحساب الأرفء يكفى لإبادة عن الهاوية الحقيقة في التحرية العملية بين النحاستين ، ولكنه فارق هين إلى جانب الفارق في حظوظ أولئك الضحايا بين العالم القديم والعالم الجديد فإن في الأمريكتين إلى اليوم أمة من السود معزوة بأسسها وحظوظها وحقوقها العملية ، وليس في بلاد الشرق أمة من هذا النقيض ، لأن الأسود الذي ينتقل إليها يحسب من أهلها بعد حيل واحد ، له ما لهم وعليه ما عليهم بغير حاجة إلى حماية من التشريع أو بصوص الدساتير

حقوق الحرب



شاع عن الإسلام أنه دين السيف ، وهو قول يصح في هذا الدين ، إذا أراد فائله أنه دين بصرص الجهاد و منه الجهاد بالسلاح ، ولكنه علط سداً أريد به أن الإسلام قد انتشر بحد السيف أو أنه يصع القتال في موضع الإقناع

وقد فطر بسحق هذا الادعاء كاتب عربي كبير هو توماس كارليل صاحب كتاب « الأبطال وعبادة البطولة » فإنه اتحد محمداً عليه السلام مثلاً لبطولة النبوة وقال مامعناه

« إن تهاجمه بالسيف على السيف في حمل الناس على الاستحابة لدعوته سخط غير مفهوم إذ ليس ما يحور في الفهم أن يشهر رجل فرد سيفه ليقس به الناس أو يستحيوا لدعوته ، فإذا آمن به من يقدر على حرب خصومهم فقد آمنوا به طائعين مصدقين وتعرضوا للحرب من أعدائهم قبل أن يقدروا عليها »

والواقع لثابت في أخبار الدعوة الإسلامية أن المسلمين كانوا هم أصحاب القسر والتعديب قبل أن يقدروا على دفع الأذى من مشركي قريش في مكة المكرمة ، فهجروا ديارهم وتعربوا من أهلهم حتى بلغوا إلى الحنة في هجرتهم ، فهل يأمنون على أنفسهم في مدينة عربية قبل التحنن إلى « ثرب » وإقامتهم في حور أحوال النبي ﷺ ، مع ما بين المدينتين من انفاص الذي فتح للمسلمين بينهما ثعرة للأمان ؟ ولم يكن أهل ثرب لبرحوا عقدهم لولا ما بين القبيتين الكبيرتين فيها « قبيلتي الأوس والخزرج » من براع على الإمارة فتح بينهما كذلك ثعرة أخرى يأوى إليها المسلمون بعد أن صاق بهم حوار الكعبة ، وهو الحوار الذي سم بصق من قبل بكل لائديه في عهد الجاهلية

ولم يعتمد المسلمون قط إلى القوي إلا بخاربه القوي التي تصدهم عن الإقناع ، فإذا رصدت لهم الدولة القوية حدودها حاربوها ، لأن القوة لا تحارب بالحجة والسب ، وإذا كفوا عنهم لم يتعرضوا بها بسوء

بدلت سألوا الحشمة ولم يحاربوها ، وبذلك حاربوا المرسل لأن كسرى أرسل إلى

عامله في اليمن يأمره بتأديب النبي أو صرب عنقه وإرسال رأسه إليه ، وحدثوا الروم لأنهم أرسلوا طلائعهم إلى تبوك فبادرهم النبي ﷺ متجريد السرية المشهورة إلى تحوم الحجاز الشماليه ، وعدت السرية بغير قتال حين وجدت في تبوك أن الروم لا يتأهبون بلزحف علي بلاد العرب ذلك العام

ولم يفتح النبي ﷺ أحداً بالعداء في بلاد الدولتين إنما كتب إلى الملوك والأمراء يلعبهم دعوته بالحسنى ، ولم تقع الحرب بعد هذه السلاع بين المسلمين وحنود الفرس والروم إلا بعد تحريضهم القائل العربيه في العراق والشام على عرو الحجار واعدادهم العدة لقتال المسلمين وقد علم المسلمون بإصرارهم على اعتنام الفرصة العاجلة لماعتهم بالحرب من أطراف الحريرة ، ولولا اشتغال كسرى وهرقل بالفتن الداخلية في بلادهم لبوعت المسلمون بتلك الحرب قبل أن يتأهبوا لمداومتها أو الحصن دونهما

وفي الحريرة العربية لم تقع حرب بين المسلمين وقبائلها إلا أن يكون حرب دواع أو مبادرة إلى انتقاء الهجوم المنيب في أرض تلك القبائل ، وكانت العداوة سافرة بين المسلمين ومشركي قريش لا يكتمها المشركون ولا يواربون فيها ولا يحفون أنهم عقدوا عليه على الإيماح محمد وأصحابه وقص العرب من حوله وبداء كل من يدخل منهم في دية فلم تكن بين المسلمين ومشركيين حالة غير حالة الحرب إلا في أيام صلح الحديبيه ، ثم عادت الحرب سجالاً بين الفريقين حتى تم فتح مكة وانتقلت الحرب من قتال صافر بين المشركين والمسلمين إلى قتال بالمدن والمكيدة بين هؤلاء ورمرة المنافقين وقد حرص الإسلام على تسمية كل عدو من أعدائه باسمه لا يعدوه ولم يحتط بين حرب الشرك وحرب العقاق لأنه لا يحاسب على العداوة بالنيات كما يحاسب على العداوة بالأعمال أما قبائل الحريرة العربية في قريش فلم يحاربهم الإسلام إلا حرب دفاع أو حرب مبادرة لا لقاء انهجوم من حاسها ، وأحار السرايا الإسلامية في بلاد العرب معروفة محفوظة بأسبابها ومقدماتها ، وكلها كما أحصاها المؤرخ العصري أحمد ركني ناشأ حروب دواع وانتقاء هجوم

٨ وندكر من بعد ذلك عروة بني قبيصاع من يهود المدسة ، فقد حاربهم المسلمون لنقصهم العهد بعد عروة بدر الكبرى وهكهم حرمة سيده من ساء الأنصار ، ثم عروة بنى عظماء ولم يخرج المسلمون لقتالهم إلا بعد أن علموا أن بني ثعلبة ومحارب

من عظماء تجمعوا برئاسة دعثور المخاربي للإغارة على المدينة ثم سرية عاصم بن ثابت الأنصاري وكانوا مع رهط عصص والمارة الذين حاربوهم ودنوا عليهم هديلاً قوم سفيان بن خالد الهذلي الذي قتله عند الله بن أبيس ، ثم سرية المنذر بن عمرو وهم سبعون رجلاً يسمون القراء أحدهم عامر بن مالك ملاعب الأسنة لطمعه في هداية قومه وإيمانهم فلم يبرح قومه حواره وقتلوا القراء ، ثم غزوة بني النضير من يهود المدينة وذلك لنقصهم العهد وإلقاتهم صحرة على النبي ﷺ لما كان في ديارهم ، ثم غزوة دومة الجندل ولم يحرح المسلمون إلا ما علموا أن في ذلك المكان أعراباً يقطعون الطريق على إماره ويريدون الإغارة على المدينة ، ثم غزوة بني النضير وهؤلاء من ساعدوا المشركين في أحد ، ولم يكتفوا بذلك بل أوردوا جمع بجموع للإغارة على المدينة ، ثم غزوة بني قريظة من يهود المدينة لنقصهم العهد واحتماهم مع الأحرار ، ثم غزوة الخندق وكانت مع الأحرار الذين حاصروا المدينة ، ثم غزوة بني حبان لقتلهم عاصم بن ثابت وإخوانه الذين حارب عليهم رسول الله ﷺ ، ثم غزوة الغابة للإغارة عيية بن حصن في أربعين راکباً على نقاح لسبي ﷺ كانت ترعى الغابة ، ثم سرية محمد بن مسلمة إلى القصبة لما بلغ المسلمين أن بسك الموضع ناساً يريدون الإغارة على نعم المسلمين التي ترعى بالهيماء ، ثم سرية زيد بن حارثة لمعاكسة بني سليم الذين كانوا من الأحزاب يوم الخندق ، ثم سرية زيد كذلك للإغارة على بني فزارة الذين تعرضوا له ، ثم سرية عمر بن الخطاب لما بلغ المسلمين من أن جمعاً من هوازن يطهرون العداوة للمسلمين ، ثم سرية بشير بن سعيد لما بلغهم من أن عيية بن حصن واعد جماعة من غطفان مقيمين بقرب خيبر للإغارة على المدينة ثم سرية غالب البجلي ليقتنص من بني مرة بفدك لأنهم أصابوا سرية بشير بن سعد ، ثم غزوة مؤتة وكانت لتعرض شرحبيل بن عمرو العسائي للحارث بن عمرو الأردني رسول النبي ﷺ إلى أمير بصري بحمل كنانة وقله إياه ، ولم يقتل للنبي ﷺ رسول غيره حتى وحد بسك وحداً شديداً ثم سرية عمرو بن العاص لما بلغهم من أن جماعة من قضاة يتجمعون في ديارهم وراء وادي القرى للإغارة على المدينة ، ثم سرية علي بن أبي طالب لما بلغهم من أن بني سعد بن بكر يجمعون الجموع لمساعدة يهود خيبر على حرب المسلمين ، ثم غزوة خيبر لأن أهلها كانوا أعظم محرض للأحرار ثم سرية عبدالله بن رواحة لما بلغهم من أن باين ررام رئيس اليهود

يسعى هي تحريض العرب على قتال المسلمين ، ثم سرية عمرو بن أمية الضمري لقتل
 أنى مسيخان حراء إرساله من يعتقل النبي ﷺ عذراً ، ثم حرب العراق لما ارتكبه
 كسرى عندما أرسل إليه كتاب عرض عليه فيه الإسلام ، فإنه مزق الكتاب وكس
 إلى ناراً . أمير له باليمن يقول له : « يسعى أن رجلاً من فريش خرج بمكة يرعم
 أنه نبي يسر إليه لاستتبه من تاب وإلا فابعث إلى رأسه . أياكتب إلى هذا الكتاب
 وهو عدى ؟ » فبعث بآزان بكتاب كسرى إلى النبي ﷺ مع فارس يأمره أن
 بصرف معهما إلى كسرى فقدم إليه وقتلاً له . شاهشاه بعث إلى الملك بآزان يأمره
 أن يبعث إلته من يأتيك ، وقد بعث إليك من أبيت هلك وأهلك قومك
 وخربت بلادك . فليس بعد ذلك عذر للمسلمين في امتناعهم عن حرب الفرس
 خصوصاً وقد كان للعرب ثارات كثيرة في دمة العجم . ثم عروة ثبوك لما بلغ
 المسلمين من أن الروم جمعت الحموغ تريد عروهم في بلادهم . وقد أعقبها فتح الشام
 والقسم لأعظم من دولة الروم »^(١)



فهذا حق السيف كما استخدمه الإسلام في أشد الأوقات حاجة إليه
 حق السيف مرادف لحق الحياة ، وكل ما أوجب الإسلام فإنه أوجب لأنه مضطر
 إليه أو مضطر إلى التحلى عن حقه في الحياة ، وحقه في حرية الدعوة والاعتقاد
 فإن يكن دواء للعديوان والافتيات على حق الحياة وحق الحرية والإسلام في كلمتين
 هو دين السلام .

وأيسر من استقصاء الحروب وأساسها في صدر الإسلام أن تلقى نظرة عامة على
 خريطة العالم في الوقت ، فخاصراً لعلم أن السيف لم يعمل في امتياز هذا الدين إلا
 القليل مما عمله الإفدع والقسوة الحسة . فإن البلاد التي قلت فيها حروب الإسلام
 هي البلاد التي يقيم فيها اليوم أكثر مسمى العالم ، وهي بلاد أندونيسية والهند
 والصين ومواحل انقارة إفريقيا وما يليها من سهول الصحارى الواسعة . فإن عدد
 المسلمين فيها قريب من ثلثمائة مليون ، ولم يقع فيها من الحروب بين المسلمين وأساء
 تلك البلاد إلا القليل الذي لا يحصى في تحويل الآلاف عن دينهم بله حلايين ،

(١) - محاصرة السابعة من محاصرات الإسلاميه

وتقرن بين هذه البلاد والبلاد التي اتجهت إليها عرورات مسلمين لأول مرة في صصر الدعوة الإسلامية . وهي بلاد العراق والشام . فإن عدد المسلمين فيها اليوم فلما يريد على عشرة ملايين يعيش بينهم من احتاروا البقاء على دينهم من المسيحيين واليهود والوثنيين أو أشباه الوثنيين . ومن المصيد في هذا الصدد أن يعقد المقارنة بين البلاد التي قامت فيها الدولة الإسلامية والبلاد التي قامت فيها الدولة المسيحية من القدرة الأوروبية . فلم يبق في هذه القارة أحد على دينه الأول قبل دخول المسيحية . وقد أقام المسمون قروا في الأندلس وخرحوا منها وأساؤها اليوم كلهم مسيحيون

وأضع من الإحصاءات والمقاربات أن نتصهم دحيلة الدين من روحه التي تصيغ العقيدة بصيغها فيما يعيه المتدين على قصد منه أو عيم يساق إليه بوحى من روح دينه كآبه عادة مطبوعة لا يلبس إلى قصده منها . وروح الإسلام في العلاقة بين المسلم وماتر بى الإنسان . شفق عها كل آبه وردت في القرآن الكريم عن حكمة الاجتماع من أكر الجماعات إلى أصعرها ، ومن جماعة النوع الإنسانى فى حملته إلى جماعه لأسره ، وطبيعة الاجتماع فى كل محوق إنسانى مد تكويه فى أصلاب آباته وأحداده . فما هى حكمه لاجتماع فى الشعوب والقبائل ؟ وما هى حكمه الاجتماع فى نتيال لأسرة ؟ وما هى حكمه الاجماع فى خلق لإنسان فى نظر أمه ؟ حكمتها كنها فيما يتعلمه المسلم من كتابه أنه وشيحه من وشائع لمودة والرحمة ، وسيل إلى التعارف والتقارب بين العرباء

فالتعارف هو حكمه التعدد والتكاثر بين الشعوب والقبائل من أساء آدم وحواء :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾

[الحجرات : ١٣]

والمودة والرحمة هى حكمه الاجتماع فى الأسرة :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً

وَرَحْمَةً ﴾ [الروم : ٢١]

والسبب هو حكمه الاجتماع من خلق الإنسان مد تكويه فى صلب أبيه

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ [الفرقان ٥٤]

والمؤمنون إحوة ، واناسر إخوان من ذكر وأنتى ، وشر ما بحشاه الناس من ردائهم
أنها تلقى بينهم العداوة والبغضاء

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾

[المائدة ٩١]

والعداوة والبغضاء هما الحراء الذى يصيب الله به من يسوء آياته ويكسرون
بمعتمه ، وهما الحراء الذى أصاب الله به أهل الكتاب بعد ما حاءهم من السيئات
فصلوا عن سوائه ولم يبق لهم من دينهم غير اسم يدعو به

﴿ وَمَنْ أَلْدَيْنَ قَالُوا إِنَّا بَصَارِي أَحَدًا مِثْلَهُمْ فَتَسَوَّاهُمْ حَقًّا عَمَّا دُكِّرُوا بِهِ فَأَعْرَبْنَا

بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [المائدة ١٤٠]

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ

يَقْفُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلِيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُنَّ مَا أُرْسِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا

بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ

فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [٦٤] [المائدة ٦٤]



ولا حفاء بروح الدين كما توحيه إلى وحدان المسلم هذه الايات وما فى معناها
من كلمات كنه فيها نلهمه أن اودة والرحمة حكمة الله فى خلقه ، وأن العداوة
والبغضاء عقاب لمن يصلون عن حكمتهم ومعة السوء التى تستدرجهم إليها الرذيلة
والمعصية ومن آمن بالله على هدى هذا الدين فقد آمن بالله يرضيه من عباده أن
يسلكوا سبيل المودة والسلام ، ويسخطه منهم أن يسلكوا سبيل العداوة والعدوان

وقد تعددت آراء المشرعين وأصحاب الآراء فى القوانين بين طائفة ترى أن
الإنسان مطبوع على الشر ، وأن حالة الحرب هى الحالة الطبيعية بين الناس حتى

تتصور بينهم حالة غيرهم من أحوال المصالحه والتراضى على المسئلة والأمانة ،
وطائفة ترى أن الإنسان - بطبعه - محبوق وديع يدفعه الخوف والحاجة إلى
المشاكسة فيتعدى على كره ويصد العدوان على كره وتجري عادته على وفاق ما عليه
عليه معيشة الأمن والرخاء أو معيشة القنق والاضطراب

والإسلام دين ينظر إلى هذه المشككة نظرة الدين ولا يعنيه الواقع ليحمله مثلاً
مختاراً للعلاقة بين الناس بل يعنيه الواقع ليختار لهم ما هو أحذر باحتيارهم
وأصلح لشئون أفرادهم وجماعاتهم ، ويروصهم على أن يكونوا حير من الواقع فيما
يطيقونه ويسعهم أن يطيقوه

فالعلاقة بين الناس في دستور الإسلام علاقة سلم حتى يضطروا إلى الحرب
دفاعاً عن أنفسهم أو انقاء لهجوم تكون المبادرة فيه ضرباً من الدفاع والحرب يومئذ
واجبة على المسلم وجوباً لا هوادة فيه ، وهو مع وجوبها - مأمور بأن يكتفى من
الحرب بالقدر الذي يكفل له دفع الأذى ، ومأمور بتأخيرها ما بقيت له وسيلة إلى
الصبر والمسالمة ، ويتكرر هذا الأمر كلما تكرر الإذن بالقتال والتحريض عليه ، وكل
تحريض أمر به ولي الأمر في القرآن فهو التحريض على تحييد الحشد وحص العرائم
على حرب لم يبق له محيد عنها ، ولا غرض له منها إلا أن يكف بأس المعتدين
عليه وعلى قومه ، ثم لا إكراه به في هذه الحرب على متطوع لقتال أو مجدة وهذا هو
موضع التحريض في قوله تعالى :

﴿ وَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَمَى اللَّهِ أَنْ يَكْفُ
بِأَسِ الدِّينِ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَكْلِفًا ﴾ (٨٤)

[النساء : ٨٤]

أما أو صر القول فمن آياتها في القرآن الكريم ماورد في سورة البقرة

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْمُعْتَدِينَ ﴾ (١٩)

[البقرة : ١٩٠]

﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ

[البقرة : ١٩٤]

وفى سورة النحل

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَأَنْتَ عَظَمَةُ الْحِسَةِ وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ صُلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦)﴾ [النحل ١٢٥، ١٢٦]
وفى سورة الأنفال :

﴿وَأَنْ جُحُوا لِلْإِسْلَامِ فَاجْتَحِدْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال ٦]

وفى سورة النساء

﴿وَإِنْ اعْتَرَفْتُمْ ظُلْمَكُمْ فَمِنْ يَغْتَابُكُمْ فَلْيُفْتِنُكُمْ وَلْيُقَاتِلْكُمْ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (٩٠)﴾ [النساء : ٩٠]



أما المشركون الذين لم يصدوا المسلمين عن دينهم ولم يصادوهم بالعدوان فلا حرج على المسلم أن يسير بهم ، ويعادل في معاملتهم ، وأن يعاهدهم ويوفى لهم عهدهم إلى مدته ، وإلى أن يقصوه محالين بما عاهدوا عليه إن لم يكن له أهل محدود

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩)﴾ [المتحنة ٨، ٩]



﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهَرُوا عَلَيْكُمْ أَسَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة : ٤]

ولم يجعل الإسلام وفاء المعاهدين بعهودهم تدبيراً من تدبيرات السياسة أو ضرورة من ضروراتها التي تحور فيها المراوغة عند القدرة عليها بل جعله أمانة من أمانات العقل والصميم وحلقاً شريعاً يكاد يخرج عليه أن يحرج من أدميته ويسلك في عداد السائمة التي لا ملامة عليها :

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُصُوا الْآيَمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ [الحل ٩١]

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عَدَا اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٥٥ ﴾ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَقْضُونَ عَنْهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ٥٦ ﴾ [الأنفال: ٥٥، ٥٦]



﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة ٧]



ومن تأكيد الإسلام لو، حسب الوفاء بالعهد أنه يحرم على المسلمين أن يستبيحوا الانتصار للقوم منهم يستصرونهم في الدين إذا كان بينهم وبين أعداء المستصربين لهم عهد وميثاق :

﴿ وَإِنْ اسْتَفْرَضَكُمْ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ بَيْنَكُمُ الْمَظْهُورُ فَلْيُنْفِخْ بَيْنَهُمْ بِمَا عَاقَبْتُمْ فَمَنْ بَيْنَكُمُ الْمُضْطَرُّ فَاصْصَلْ وَلَا تَبْغِ الْفَيْسَالُ إِلَّا إِذَا نَفَخَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ عَلَى الْآخَرِ فَلَهُ نَعْدَ اسْتِفَادَ الْخِيَةِ فِي الْإِصْلَاحِ بَيْنَهُمَا أَنْ يَقَابِلَ لِقَاءَ السَّاعِيَةِ حَتَّى تَكْفَ عَنْ نَعِيهَا :



ولا يبيح الإسلام لولى الأمر أن يستحدم السيف فيما شجر بين المسلمين من براع يحاف أن يعصى بهم إلى القسالة إلا إذا نغبت طائفة منهم على الأخرى وله بعد استفاد الخينة في الإصلاح بينهما أن يقابل لقنة الساعية حتى تكف عن نعيها :

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَنْهِيَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ [الحجرات ٩]

وفيما عدا العلاقة التي تعقد بين المسلمين وأساء دينهم ، أو بينهم وبين المعاهدين لا تكون لأمة التي لا ترتبط بالدين ولا ترتبط بالعهد إلا عدوا يحاف صبره ولا يؤمن حاسه إلا على وجه من الوجهين أن يقبل الدين أو يقبل الوثاق

والإسلام يسمى بلاد هذا العدو « دار حرب » لأنها بلاد لا سلام فيها للمسلم ، ويمرّق من حقوقها وحقوق المسلمين أو حقوق المعاهدين ، ولا يعترف لها بهذه الحقوق أو تدك إلا أن تدين بالإسلام أو تقبل الصلح على عهد متفق عليه .

وليس معنى هذه التفسير الطبيعي في الحقوق أن الإسلام يكره القوم على قوله إذا لم ينص القرآن الكريم على الإكراه في الدين .

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنَ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْصِمَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة ٢٥٦]

ولكن معنى تقسيم البلاد إلى بلاد سلم وبلاد حرب أن بلاد الحرب لا تدخل في السلم إلا إذا قبلت الدين أو تعاهدت على الصلح بقبال أو بعرق قال ونأى طبيعة الأمور تسيماً لحقوق السلم والحرب غير هذا التقسيم

ومتى وقعت الحرب فلا قتال لأحد غير المقاتلين ولو كان من بلاد الأعداء ، ولم يكن السى عليه السلام وحلفاؤه يتركون المقاتلين من المسلمين المتوجهين إلى الحرب غير وصاية مشددة بحاسونهم عديها فيما يتنعمه من حطة قبل الرعايا المسلمين من أعدائهم ، وحلاصة هذه الوصايا كما أحسنها الخليفة الأول أبو بكر الصديق . « ألا تحونوا ولا تعدروا ولا تقتلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعبروا بحللاً ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تدبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للمأكلة ، وسوف تمرّون بأنوم قد فرعوا أنفسهم للصوامع فدعوهم وما فرعوا أنفسهم له » .

وتشتمل تعاليم لإسلام على أحكام مفصلة لكل حالة من الحالات التي

تعرض بين المتحاربين في أثناء القتال أو بعده . وهي حالات الأمان والاستئمان والمهادنة والمواذعة والصبح على معاهدة .

فالأمان هو « رفع ستاحة الحربى ورقه وماله حين قتاله أو العزم عليه »

والاستئمان هو « تأمين حربى يرل لأمر يصرف بأقصائه »

والمهادنة « عقد مسلم مع حربى على المساعدة مدة ليس هو فيها على حكم الإسلام » .

والمواذعة « عقد غير لازم محتتم النقص ، للإمام أن يسده حسب قوله تعالى ﴿ وَإِنَّمَا تَحَافِظُ مِنْ قَوْمٍ جَانَّةً قَابِلَةً لَهُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾^(١) . ويشترط في حالة البذل أن يبلغه ألفان إلى جنده وإلى الأعداء وهم على حكم الأمان حتى يعموا بانتهاء المواذعة^(٢) .

والوفاء بالشرط لشق عليه في كل حاله من هذه الحالات فريضة مؤكده بخصوص القرآن الكريم ، وبخصوص الأحاديث النبوية ، تقدمت بها الأمثلة في معاهدات النبي عليه السلام ، ومعاهدات خلفائه رضوان الله عليهم ، وأشهرها عهد الحديبية قبل فتح مكة وعهد بيت المقدس بعد فتح الشام

فالنبي عليه السلام قد اتفق على عهد الحديبية بعد هجرته من مكة بست سنوات ، وكان يريد الكعبة معتمراً مع طائفة من أصحابه فتصدى له المشركون وحالوا بيه وبين البيت الحرام ، فقال النبي عليه السلام لرسولهم « إنا لم نجئ لقتال أحد ، ولكن حشاً معتمري وإن قريشاً قد بهكتهم الحرب وأصرت بهم دين شاءوا ماددتهم مدة ويحلوا بيني وبين الناس . فإذا شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد حموا ، وإبهم أبو هولدى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى يهرق سائقي ويعدن الله أمره » ثم أعدت قريش رسولها سهيل بن عمرو العامري فاتفق مع النبي عليه السلام على أن يرجع النبي وأصحابه فلا يدخلوا مكة تلك السنة ، فإذا كانت السنة القادمة دحجوها فأقاموا فيها ثلاثاً بعد أن أخرج منها

(١) سورة الأنفال الآية (٥٨)

(٢) راجع المباحث النبوية في شرح حدود الإمام الأكبر للنويسي وراة أعداد الأساليب

فريش ، وتهديوا عشر سنين لاحرب فيها ولا أعمال ولا أسلال ، ومن أتى محمداً من فريش بغير إذن وليه رده إليهم ، ومن أتى قريشاً من مسلمين لم يردوه ، وستكثر المسلمون هذا الشرط فقال عليه السلام نعم إنه من ذهب منا إليهم فأعده الله ، ومن جاءنا منهم فيجعل الله له فرحاً ومفرحاً ، ومن أحب منهم أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه .

ثم أحد النبي عليه السلام في إملاء العهد وانتداه « بسم الله الرحمن الرحيم » فأبى سهيل بن عمرو أن يبدأ العهد بهذه الصيغة للإسلامية وقال بل يكتب باسمك اللهم فأحابه النبي إلى ما طيب ومضى على قائلاً هذا ما قاضى عليه رسول الله فقال سهيل ' والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صلدناك ولا قاتلناك ، ولكن أكتب اسمك واسم أبيك

وبسما هم يكتبون العهد لم يفرعوا منه أقبل أبو حنبل من سهيل بن عمرو يرسف في اليهود فرمى نفسه بين المسلمين ، فقال سهيل ، هذا يا محمد أول ما أقاصيت عليه وأحد بتلايب ولده . فقال النبي لأبي حنبل بأل حنبل! قد خنت القصبة بيننا وبينهم ولا تغدر . « ومضى النبي وصحبه على رعاية عهدهم حتى نقصته قريش وأمدت بني بكر بالسلاح والأرواد في حربهم لخرافة فأصبح المسلمون في حل من نقص ذلك العهد ، وعمدوا إلى مكة فاتحين ففتحوه بعد ذلك بقليل

أم عهد بيت المقدس فذلك هو العهد الذي كتبه الخليفة عمر بن الخطاب لأهل إيلياء ، وهو أشهر العهود في صدر الإسلام بعد عهد الحديبية ، وفيه يقول الخليفة العظيم : « إنه أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم ومقيمها وبريشتهم وسائر ملتهم ، وإنه لا نسكر كنائسهم ولا نهدم ولا ينقص منها ولا من صلبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الحرية كما يعطى أهل المدائن ، وأن يخرجوا منها الروم واللسوت ، ومن حرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام معهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الحرية ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير نفسه وماله مع الروم ويحلى بينه وبين صلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم » .

وقد حدث أثناء العهد على هذا الصبح حدث كحدث أنى حدث عند كتابة صلح الحديبية ، فحان موعد الصلاة والخليفة العظيم فى كنيسة بيت المقدس ، ولا مانع عند المسلم من إقامة الصلاة فى الكنائس أو فى معابد الأديان غير الإسلام إذ أيمنا تكبروا فثم وجه الله ، ولكنه أشفق أن يقيم الصلاة فى مكان فيحرص المسلمون بعده على احتجاز ذلك المكان الذى صلى فيه أمير المؤمنين . فخرج من الكنيسة وصلى فى حورها ولم يبح لنفسه أن يورط أتباعه فى دريعة يتعللون بها لمخالفة عهد من عهوده .

وكلا العهدين ، عهد مكة وعهد بيت المقدس ، يعتمد رعم الراعمين أن الإسلام يعتمد على الإكراه فى نشر دعوته وثانيهما - وهو عهد الصلح فى الشام بعد هزيمة دولة الروم - وضح فى بيان الشروط التى يعرضها الإسلام على المعاهدين بعد الحرب التى ينتصر فيها . فمن أحب أن يقيم فى مكانه فله أن يقيم وهو آمن على نفسه ودينه وحرية ، ومن أحب أن يرحل إلى بلاد الدولة السهرمة فله أن يرحل كما أراد وهو آمن فى طريقه ، ومن دان بالإسلام فهو مقبول فى رمة المسلمين ، ومن بقى على دينه فليس عليه إلا أن يؤدى الجزية فتحميه الدولة بما يحمى منه سائر رعاياها وله مالهم وعديه ما عليهم إلا الحرب ، فإنها لا تطلب منه فى خدمة دين غير دينه

وشرع الإسلام القتال على درجات فلم يشرع حالة إلا وضع لها حدوده وبين للمسلمين ما يحب عيهم فيها ، وتم له فى نحو عشرين سنة قانون دولى كامل لأحوال الحرب مع المقاتلين على احتلافهم ، فأتم فى القرن السادس ما بذت فيه أوروبا فى القرن السابع عشر ، ولم يرس قاصر عن عديته مهما فى ساعة الحاجة إليه

بدأ النى عليه السلام دعوته واستجاب له من استجاب من قومه وهو لا يأتى بقتال . فلما اشتد به وبأصحابه ما أصابهم من أذى المشركين فعذبوهم ومتوهم وأخرجوهم من ديارهم كن ذلك بداية الإذن بمقاتلة المعتدين فى الحد الذى يكفى لدفع العدوان ، كما تقدم ، ولا يبقى بعده أثراً للخصية والانتقام :

﴿ أَدْنُ لِلَّذِينَ يُفَاتِلُونَ بَأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنْ أَلَّهَ عَلَى بَصَرِهِمْ لَقْدِيرٌ ﴾ (٣٩) الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بغيرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴿

[الحج - ٣٩ ، ٤٠]

وكان السبي صلوات الله عليه يعاقب في حروبه بمثل ما عوقب به ولا يحاوره إلى الدد في الخصومة ، فإذا انتهت الحرب على عهد من العهود وفي به وأحد على اتعاه أن يفوا به في غير أعلال ولا أسلال ، أى في غير حياة ولا مراوعة وثابر على الوفاء في جميع عهوده ، وثابر أهل الجريرة من المشركين واليهود على العذر بكل عهد من تلك العهود ، وعقدوا النية سرا وجهرا على إغيات المسلمين وحراهم من ديارهم ، لا يحرمون حراما في مهادنتهم ولا في مسالمتهم ، ولا يرلون يؤسسون عليهم الأعداء من داخل الجريرة وخارجها وأصروا على ذلك مرة بعد مرة حتى أصبحت معاهداتهم عتقا لا بصد ولا بعتى عن القتال فترة إلا ردهم إليه بعد قليل ، ووضع من لدن القوم وإصرارهم عليه أنهم لا يهادون إلا ليتوفروا على جمع العدة وتأليب العدو من الخصوم والأحلاف ، فبطلت حكمة الدعوة إلى العهد ولم يبق للمسلمين من سبل إلى الأمان معهم ، لا أن يخرجوهم من حيث أرادوا أن يخرجوا المسلمين ولا يسقوا أحدا غير مسلم في تلك الجريرة التى أبت أن تكون وطنا للمشركين وأحلافهم دون سواهم فانتتهت حكمة التحيير بين المعاهدة والقتال ، ووجب الخيار بين أمرين لا ثالث لهما ، وهما الحور على الإسلام أو على الخصوع لحكمه ، فلا حور في الجريرة لأحد من المشركين وأحلافهم اليهود إلا أن يدين بالإسلام أو بالطاعة

﴿ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَأَلْزَمْتُ أَشَدَّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ [البقرة : ١٩١]

وقال السى عليه السلام يومئذ « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قالها عصم مني ماله ودمه إلا بحقها وحسابهم على الله »

وفى هذا المعنى ينص القرآن الكريم على محاربة أهل الكتاب الذين تحالفا مع المشركين ونقصوا العهود المتوالية بينهم وبين السى كما تقدم في ذكر العروات والسرايا .

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة : ٢٩]

والوجه الوحيد الذى يصرف إليه هذا الحكم أنه حيطة لا محيد عنها لصمان أمن

المسلمين مع من يحاورونهم في ديارهم ويتأمررون على حربهم ، فلا يحل للمستول
عن المسلمين أن بكل أمانهم إلى عهد يقصر في كل مرة . ولكنه يأمر عبيهم في
حور قوم مسلمين أو قوم مطيعين للدولة يؤدون لها حقها ، فهم إذن لا يملكون من
الاستقلال بالعمل في طاعة تلك الدولة ما يملكه المعاهد المؤمن على عهده

وعن الجملة شرع الإسلام حكماً لكل حالة يمكن أن توجد بينه وبين حيراه
على الحذر أو على الأمان فنص على حالة الدفاع والعدوان ، ونص على الدفاع
الواحد في حدوده على حسب العدوان ، ونص على التعاقد والمسألة إلى مدة أو
إلى غير مدة ، ولما نصت حدود المعاهدة لم تنق له حطة يأخذ بها أعداءه غير
واحدة من اثنتين : الحرب أو الخسوع للإسلام إيماناً به أو طاعة لمولاه ، ولم يجعل
الإيمان بالإسلام حتماً على أعدائه المصيرين على العداء . بل جعله حيراً بين
أمرين ، ومن سام الإسلام أن يرضى بغير هذين الأمرين فقد سامه أن يرضى بحالة
ثالثة لا يرضاهما أحد وهي حالة الخوف الدائم من عدو متربص به لا تجدي معه
المهادنة ولا يؤمن على عهد من العهود .

واقصى عهد النبي صلوات الله عليه والمسلمون يعلمون حدودهم في كل علاقة
تعرض لهم بين أنفسهم وبينهم وبين حيرتهم علاقة المودة والوثام ، وعلاقة
انشعب والفتنة ، وعلاقة الحرب أو علاقة التعاقد أو علاقة المودعة والمهادنة أو
علاقة الأمان والاستئمان وهذه العدية بإقامة الحدود وبيان واجباتها هي وحدها
حجة قائمة للإسلام على خصومه الذين يتهمونه بأنه دين الإكراه الذي لا يعرف
غير شريعة السيف . فمن كان لا يعرف غير شريعة السيف فما حاجته إلى بيان
لكل حالة من حالات السلم والحرب بأحكامها وواجباتها وحدودها وتبعاتها؟
لا حاجة به إلى حد من هذه الحدود مادام معه السيف الذي يجرده متى استطاع ،
ولا حاجة به إلى حد من هذه الحدود مادام عزلا من السيف معلوماً على كل حال
فيما يبحث عن تلك الحدود من يضع السيف في مرصعه ويأبى أن يضعه في موضع
المسألة والإقناع ، وكذلك كانت شريعة الإسلام مد وحب فيه القتال ، ولم يوحه
إلا البعي والقسر والعت ، وإلحراح من الديار

وبسما كانت هذه الحدود معلومة مقسومة بأقسامها وتبعاتها في شريعة الإسلام كانت العلاقة بين الأمم في القارات الثلاث فوصى لا تثوب إلى صابط ولا يستقر بينها السلام إلا حيث يمتنع وحوود المحارب فيمتنع وحوود الحرب بالضرورة التي لا اختبار فيها

كانت شريعة الرومان أن كل قوى يحاورك عدو تقصى عليه ولم يكن للعارة الحديثة (التي سموها بقرطاجنة) من دسب إلا أنها دولة قوية تعيش على العدو الأخرى من بحرهم الذي أعلقوه دون غيرهم *mare clausum* أو لدير سموه بحرنا وحرما على غيرهم أن يشاركهم فيه *mare Nostrum*

وكذلك كانت شريعة فارس في الشرق مع من يحاورها ، وكذلك كانت شريعة الإسكندر وحلفائه على دولته الواسعة ، وكذلك بقيت شريعة الدون في العارة الأوربية إلى القرن السابع عشر أول عهدهم بالسحت في الشرائع الدونية وحقوق الحرب والسلام . فلم ينتفتوا قط إلى السحت في الحقوق يوم كان الحق كله للسيف تتولاه دولة واحدة تحضج من حوبها من الرعايا المتفرقين ولا تارعاها دولة أخرى في ولايتها عليهم واستبدادها بأمرهم ، لم تكن هالك شريعة في الحقوق يوم كانت شريعة السيف كافية معية لمن يمكنه إذا غلب ولن يحضج له إذا حقت عليه العلة . فمما انقسمت الدولة الكبرى في اقارة الأوربية تفرقت الدول شيعة وتارعت العروش والتهيحان تارزع الخطام الموروث لا تنازع الحقوق والواحات بين الأمم والشعوب ويومئذ - في أوائل القرن السابع عشر - بدأت بحرثهم في حدود الحرب والسلام ونصدي فقيهم الكبير حروتوس *Grotius* لاسساض هذه الحدود من وقائع لأحول فيما سماه بقانون الحرب *De jure Belli* ، ولا يزال بينهم أساس المراجع إلى العصر الحديث . لم يحدث فيه جديد ذو دل إلا أنهم يرجعون عنه إلى الزراء عدة قرون ، فيسبحون اليوم ما كان محظوراً من افتتاح الحرب بغير علة أو بلاع

وإن العارنى المسلم ليجتسم حين يقرأ في مراجع تلك السحت الفجة أنها بحوث في شريعة تسرى على العالم الأوربي الذي كن معروهاً يومئذ باسم العالم المسيحي *Christendom* ، ولا تسرى على العالم الحمدي *Mohammedism* لأنه عالم جهالة لا يعقه هذه الحدود ولا يترجم بواحاتها وتبعاتها . . فمن دواعي الحرية

حقاً أن يقال هذا عن دين يساول المتعتم المستدئ فيه مرححاً من مراجع أصوله التي فرع البحث فيها منذ القرن السادس للميلاد فيرى فيه أحكام الإعلان والتدليغ والسبد والمعاهدة والصلح والدمه والهدنة والموادعة والسفارة والوساصة ، ويرى لكل حكم من الأحكام واجباته على المسم في حلتى برامه ونقصه وواجبات الإمام والرعية فيه مفصلة مرددة كأنها صيغ العقود التي يتحرى فيها ملوثقون غاية التوكيد والتقييد معاً للأعلال والأسلال كما جاء في أول عهد بين الإسلام والمشركيين فإن القرئى لمسم حين يمر بذلك السخف لمصحك في بواكير القبون الدولي عند القوم ليحسن كأنه على مشهد من الأعييب أطفال يتوصون فيما بينهم على كتمان أسرارهم عن كدرهم . لأن هؤلاء الكاراختاء أعرار لا أمان لهم على تلك الأسرار !



ومن السديهي أن لأديان تعلیم یبین للناس مواضع التحليل والتحریم ، وليست هي بالقوى المادية التي تجرهم من أعافهم إلى الخير وتخطهم بالسود لتصددهم عن مفارقه الشر ، وليست هي بترياق الساعة الذي يقال في أساطير السحر أنه يسري الأدواء لساعته ويحلفها بالصحة الساعة والشباب ، المقلد وقصاراها من الهداية أنها كمنصايح التي تنير المسالك أمام السالك وتظل العدر من يسلث أسوأ الطريقين على علم بما فيه من سوء والعوج وما في غيره من السداد والاستقامة ، وهي على هذا كسب عظيم لبنى الإنسان بضميرهم أن يفقدوه فالناس يحاللون القوانين والآداب كل يوم ولا يقال من أجل هذا أنهم لم يكسبوا شيئاً بتدوين القوانين والمصالبة برعايتها ، وأنهم في الرمس الذي يحالسون فيه القانون لا يزالون كما كانوا في رمس الهمحية السائمة لا يميرون بين المحرم والمباح ولا يعرفون أنهم حاللوا القانون أو لم يحاللوه

وبالمسلمون قد تعلموا أصول « القانون الدولي » قبل ظهور القانون الدولي في الغرب بأكثر من عشرة قرون ، فحاللوه كثيراً فيما بينهم وحاللوه كثيراً فيما بينهم وبين غيرهم ، وتحلوا المعادير أحياناً بتسوية الحرب التي لا تسوع ويقض العهود التي يوصيهم الدين برعايتها ، وظهر بينهم المجرمون الدوليون كما يظهر المجرمون والعصاة مع كل قانون وكل عرف مأثور إلا أن هؤلاء المجرمين كثر أو قنوا - لم يطلوا فصيلة دينهم ولم ينسحوا أحكامه بعصيانهم ، ودهموا وبقيت تلك الأحكام ماثلة

أمام ولاء الأمر بطيعونها أو بسؤل بهم الطمع أن ينعذوا حدودها ، فلا يحسروا على تعديها حجرة إلا أن يتمحلوا لها معاديرها ويبدلوا معاملها ، ومن لح به النعى فتعدي حدودها ولم يكثر لعواقب العنوان سم ينح من تلك العواقب في مصيره وانتهى به النعى إلى نهاية كل جامع عسوف مستند برأيه .

ولما تجاوزت دول الإسلام ودول العرب حول البحر الأبيض المتوسط كانت شريعة الدول الغربية في القديون الدولي هي الشريعة التي حمتها لها دولة الرومان

من حاورك فهو عدوك حصعه أو يحصعك ، وسدا بالحرب متى استطعت أو يبدؤك هو بالحرب متى استطاع . وكانت هذه الشريعة على أشدها في معاملتهم لبلاد المسلمين لأفردوها بعداء واحد قوي كعداء

وردا وصع الميران بين هذه الدول في هذه الفترة ذهت كل عذرة من حاسب الدول الإسلامية بغدرة مثلها من حاسب الدول العربية وبقيت في كفة العرب عذرات كثيرة لا يطير لها ولا مسوع لها غير شريعة العداء الدائم في جميع الأحوال

والترك العثمانيون هم مصرب امثل عند العربيين لشريعة التي تجور في معاملات الغرب ولا تجور في معاملات الأمم لأحرى . ومنهم من يحلط بين كلمة التركي وكلمة المسلم فيطر أن المسلمين كلهم من الترك ويكتب كتابهم يومئذ عن قسوة التركي ودمة التركي ولباس التركي ولغة التركي وهو يشمل بالكلمة جميع الخالفين للأوربيين من المسلمين . وحققهم في عرف القوم أنهم لاحق لهم معروف بين حقوق الأدميين .

ولكن هؤلاء الترك لم يكن من شريعهم قط أنهم يعاملون 'ناساً سلب حقوقهم واستبيحت دماؤهم وأموالهم لهم بلا سب ولا مسوع غير الخلاف في الدين . وظالما هم سلاطين الترك يأكراه المسيحيين في بلادهم على الإسلام أو سنساح دماؤهم وأموالهم فيهاهم عن ذلك شيوع الإسلام وقيدوهم بالصوى الشرعية التي لا يبيع بسطان المسلم أن يقتل دميًا أو يقتل محالفاً يفسل أداء الخربة بعد تحييره بينها وبين المعاهد أو الإسلام . . ولولا هذه الفتوى لاسطاع سلاطين الترك أن يحولوا أوربا الشرقية إلى الدين الإسلامي في حيل واحد أو حيلين ، ولولا أن الفسوى الشرعيه كانت لها رهسها في ضمير السلطان المسلم ما اكرثت لها أولئك السلاطين الأفوياء المتحكمون في ممالكهم ولا سيما أيام الفتروح التي أصافب إلى فونهم عظمة

لنجد وحيلاء الظفر والسطو فقد كست رهة الفتوى من العالم العرف بأوامر الدين وبواهيه تحيف نطل الحرب الذي لاتحيفه الخيوش وجمع لأبها رهه من الله سيد السادة وملك الملوك القادر على أن يحدد المنتصر وينصر المخلول ، بل كانت هذه الرهنة ترلزل العروش تحت أربابها وتطيح بهم من فوقها ، وكثيراً ما خأ إليها المذكرون لحكم السلطان واستندوا إليها في حوز حنعه ، وكثيراً ما لحأ إليها السلاطين أنفسهم لإحارة ولاية بعدهم لاجبیرها بهم قوة السيف والذل ، أو لإحارة العقاب الذي يحلونه بالعصاة ولأنه له من سند شرعى يسوعه لوى الأمر القادر عليه ، وما استطاع السلطان أن يوقع بجمع « الانكشارية » المتمردین على لإصلاح إلا بسند من تلك الفتاوى يحتمى به من عصب الله وعصب رعيه

ومن أصائل فقهاء العرب في القانون الدولي أنهم أسقطوا حقوق الترك في المعاملات الدولية لأنهم مغيرون على السلاطین الأوربية في عمر مسوع للإعارة عليها ، وهم أى هؤلاء الفقهاء - لا يشق عليهم أن يعلموا مسوع تلك الإعارة لو كان لهم ميرن واحد بالمعاملات بين الدول يربون به حقوقها حميف على سواء فإن العالم الأوربى باتفاق موكة وأمراته وبابواته قد شهر الحرب على العالم الإسلامى في حروبه الصليبية قبل رحب الترك العثمانيين على آسيا الصغرى في أواخر القرن الثالث عشر للميلاد ، وكانت أحبار مذهب المسلمين في بيت المقدس وفي المغرب الأندلسي تحبب أحاق القارة الآسيوية إلى أقصاها شرقاً وتحبب أفق القاره لإفريقية إلى أقصاها جنوباً ، وتتعلعل في أنحاء العالم الإسلامى مع الحمحاح والمهاجرين في كل عام ، فلا تدع مسلماً في الأرض معزل عن الشعور بحالة الحرب الداهمة ؛ لأنه يعلم أنها مشهورة عليه ولعل فقهاء العرب يحهلون عمل هذا الشعور الذي ملأ حوايب العالم الإسلامى عدة قرون لأنهم يحهلون مدى اسشار الخبر الذي يهم شعوب المسلمين على أفواه القوافل المتردة في آسيا وإفريقيا من الحمحاح والمهاجرين وعمق هذا الشعور هو الذي قوص دولتى الأسس والرتعال في آسيا قبل سائر المستعمرين ؛ لأنهما وصلتا إلى الشرق الإسلامى مسوقتين بسعة العداوة التى لا عداوة مثلها لشعوب الإسلام أما أن يعلم فقهاء العرب عمق هذا الشعور في بلاد العالم الإسلامى ثم يستكثروا على شعب من شعوبه أن ينظر إلى العرب بظرنه إلى محارب يقتص منه فلا عذر له إلا الأثرة العمياء التى تحير لصاحبها أن يفهم بلاد غيره ثم لا يفهم من اقحام بلاده بعد ذلك إلا أنه عدوان بغير سابقة وبغير حجة !

وأنبى حوادث إلا أن تجيء عمومًا بما يعرض دعوى هؤلاء الصغهاء عن رعاية الإسلام للموازين والعهود ، فيصدق العرب نفسه بقب « سيدنا القانونى » على سلطان من أكثر سلاطين القسطنطينية لم يشتهر بعمل من أعماله الحربية كما اشتهر بأعماله القانونية التى أقامت المعاملات بين العرب وبلاده على سر التشريع ومعاملة ، وهذه هى السر التى عترف بها فى بيان محده وقوته منحا سخية لعرب ممارلت حتى أصبحت مع الصغف قيوداً وأعمالها يحكم بها المستعمرون العربيون فى أعناق الشرفيين !



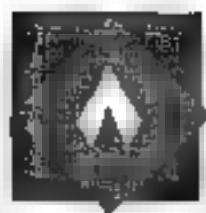
وبحق يكتب هذه السطور عن حقوق الأمم فى الإسلام وعن حمورها عند الصغهاء العربيين بعد أن تنبهوا إلى البحث فيها منذ أوائل القرن السابع عشر ولا بد من مامصير هذه الحقوق من الوجهة العممية فى عالم الحديث

فقد تفهقرت دول العرب فى بعض أحكام القانون الدولى إلى طلبات القرون الوسطى ، وأسقطت حرمة فى أخطر الحقوق وهى حق الممانحة بالحرب أو حق الإغارة على الأمم بغير إعلان

وإن تقدم العالم الإنسانى بالقانون الدولى فهو ضرورة قسرة ليس فيها كبير فصل من نصوص وأحكام ولا كبير فصل للمقاصد والنيات فإن اشتباك العالم فى المصالح بعد افتراء أبحاثه بالمواصلات وتسامع الأخبار قد حطى من الأمم علاقات مقصودة وغير مقصودة ترغم القوى على محاسبة الصغيف ، وتجعل لخطر فى بعض أطراف الكرة الأرضية محسوساً به فى أبعاد أطرافها من بلاد الأقوياء والصغفاء .

فهذه العلاقات مرجوة الخير مستدثة بالأمم فى طريق لايسهل عليها الكوص عنه وهى أمة على سلامتها وسلامة العالم الإنسانى فى حملته ، فإن صح فيها رجاء العالم لإنسانى فهو رجاء يساق العرب فيه بسائق الضرورة العمماء ، ويقن فيه فصل السعى والتدبير ، ولكنه رجاء تلتقاء المسلم تصديقاً لإيمانه بالله ولعقيدته فى حكيمته لأنه يؤمن بأن التعارف بين الناس هو الحكمة الإلهية من خلق الشعوب والقبائل واختلاف الأجاس والألوان

حق الإمام



الإمام في الإسلام هو وكيل الأمة في إقامة حدود الله فحجه مرادى حق لأمة ما قام بهذه الأمانة لأنه يتولى الإمامة لإساء كل دى حق حقه ، وبذلك الأمر ونجب له الطدعة فيما ندعو مصلحة الأمة فيه إلى تشريع جديد ، وطاعه مقرونة بطاعة الله ورسوله

﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ [النساء ٥٩]

ومى الحديث الشريف : « من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن بطع الأمير فقد أطاعنى ومن يعص الأمير فقد عصانى اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة »^(١) .

وليس للإمام أن يعطل حدا من حدود الله .

وليس له أن يقيم حدا منها فى غير موضعه

وقد مثته فى غير موضعه أن يقام حيث لا تثبت أركانه ولا تقرأ شهادته فالإمام الذى يعطل الحد محالف لأوامر الله ، والإمام الذى يقيم حدا ليس ثابت الأركان ولا مدروء الشهادت محالف لأوامر الله

وعلى الإمام تقع تعة الأمة كلها فى تفسير مصالحها وضروراتها وتقدير ما يترتب على هذه المنصالح والضرورات من حرء الأحكام أو رقفها أو الوفاق بينها وبين أحوالها

وليس هذا من الاجتهاد الذى يجوز فيه خلاف ، لأن الاجتهاد عتماد على تقدير لم يرد فيه نص صريح ، وأما رعية الضرورات فقد وردت فيها بصوص صريحة لا تفهم على معنى من المعانى إن لم يكن معناها أن للاضطرار حكما غير حكم الاحتيال ، وأن تقدير الاضطرار فى تطبيق الشرع موكول إلى رلى الأم ساعة حصته

﴿ مَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة ١٧٣]

﴿ وَقَدْ فَضَّلْ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾ [الأعام ١٧٩]

(١) رواه البخارى

﴿فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٢٣]
والأمر بالتفكير نص صريح في القرآن الكريم كهذه النصوص عن الضرورات ، وليس
من الدين أن يتلقى المسلم آيات ربه في كتابه وآيات ربه في خلقه عبر تفكير

﴿لَا قِصَصَ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٧٦) [الأعراف: ١٧٦]

• • •

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١) [الحل: ١١]

• • •

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٦٧) [الحل: ٦٧]

• • •

﴿كَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢٨) [الروم: ٢٨]

• • •

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٥) [الأنعام: ٥٠]

• • •

﴿رِسَالَتُكَ مَاذَا يُعْقِلُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ

تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢١٩) [البقرة: ٢١٩]

وليس في القرآن الكريم أمر ، حب على الإنسان أكثر من واجب العقل والتفكير ،
وليس فيه معنى غنى قوم أشد من المعنى على الدين لا يعقلون ولا يتفكرون

مراعاة الضرورات نص صريح ، والأمر بالتفكير والتفكير نص صريح ، ومن كان
بعير ذلك فهو الذي يجتهد برأى من عنده بحالف صريح النصوص

أما موضع الاجتهاد الذي يطلب من الإمام في مسائل التشريع فهو الذي فصله
المفقه في أبواب القياس أو الاستحسان أو الاستصلاح وقد أحملها العالم الفاضل
الأسد عبد الوهاب خلاف في كتابه عن مصادر التشريع لإسلامي فيما لا نص

فيه فقال « إنه إذا عرصت للمكلف واقعة فيها حكم دل عليه نص في القرآن أو السنة انعمد عليه إجماع المجتهدين من المسمين في عصر من العصور وحب انماع هذا الحكم ولا محال للاحتهاد بالرأى في حكم هذه الواقعة وإذا عرصت واقعة ليس فيها حكم نص ولا إجماع ونكر ظهر للمجتهد أنها بساوى واقعة فيها حكم نص أو إجماع في العلة التى سى عليها حكم النص أو لإجماع فيه بسوى بين الواقعتين في حكم النص لساويتهما في العلة التى سى عليها ، وهذه التسوية هي القياس وهو أول طريق للاحتهاد بالرأى ، لأن المجتهد يستسط علة حكم النص باحتجاده برأيه ويتحقق من وجودها في الواقعة ان يكون عنها باحتجاده برأيه » .

« وإذا عرصت واقعة يقضى عموم النص حكماً فيها أو يقضى القياس الظاهر المسار حكماً فيها أو يقضى تطبيق الحكم الكنى حكماً فيها ، وظهر للمجتهد أن لهذه الواقعة طروفاً وملاسات خاصة تجعل تطبيق النص العام أو الحكم الكنى عليها أو تباع القياس الظاهر فيها يفوت المصلحة أو يؤدى إلى معسدة تعديل فيها عن هذا الحكم إلى حكم آخر اقتضاه تخصيصها في العام أو استثناءها من الكنى أو اقتضاه قياس حمى غير متبادر فهذا العلول هو الاستحسن وهو من طرق الاحتهاد بالرأى لأن المجتهد يقدر الظروف الخاصة لهذه الواقعة باحتجاده برأيه ويرجح دليلاً على طيل باحتجاده برأيه »

« وإذا عرصت واقعة ليس فيها حكم نص ولا إجماع ولا قياس ولا يتعارض فيها دليلاً وظهر للمجتهد أن هذه الواقعة فيها أمر مناسب بتشريع حكم أى أن تشريع الحكم بناء عليه يحقق مصلحة مطلقة لأنه يحل نفعاً أو يدفع ضرراً فاجتهد في تشريع الحكم لتحقيق هذه المصلحة فهذا هو الاستصلاح ، وهو من طريق الاحتهاد بالرأى لأن المجتهد يهتدى إلى الأمر المناسب في الواقعة برأيه ويهتدى إلى الحكم الذى يبينه عليه برأيه »

« موافقة القياس واقعة ليس فيها حكم نص أو إجماع ألحقت بواقعة فيها حكم نص وإجماع ، وواقعة الاستحسن واقعة تعارض في حكمها دليلاً وعدل المجتهد فيها عن حكم أظهر الدليين لسند استند إليه في العلول ، وواقعة الاستصلاح واقعة بكر لا حكم فيها نص ولا إجماع ولا قياس ، وشرع فيها المجتهد لتحقيق مصلحة معينة » .

واحتهاد الصحابة بإذن النبى عليه السلام هو السند الذى يرجع إليه الفقهاء في

حوار الاحياد أو وحيه عند الاضطراب إليه ، وأشهر وصاياه عليه السلام بكار
صحيحه وصيته لمعاد بن جبل وعمرو بن العاص .

وقد روى الإمام أحمد بسند مرفوع إلى أصحاب معاد من أهل حمص فقال :
رسول الله ﷺ حين بعثه إلى اليمن قال كيف تصنع إذا عرّض لك قضاء؟ قال
أقصى بما في كتاب الله ، قال فإن لم يكن في كتاب الله؟ قال فبما في كتاب رسول الله ﷺ .
قال فما إذا لم يكن في سنة رسول الله ﷺ؟ قال فما إذا لم يكن في سنة رسول الله ﷺ؟
قال فما إذا لم يكن في سنة رسول الله ﷺ؟ قال فما إذا لم يكن في سنة رسول الله ﷺ؟

وروى عن عمرو بن العاص أنه جاء خصمان يختصمان إلى رسول الله ﷺ
فقال له يا عمرو أقض بينهما . قال : أنت أولى بذلك مني يا نبي الله . قال : وإن
كان . قال : على ماذا أقضى ؟ قال : إن أصبت القضاء بينهما لك عشر حسنات
وإن أخطأت فلك حسنة

وبلاحظ بعض رواة الأحاديث أن حديث معاد مرفوع إلى أصحاب له مجهولين
فيقول الإمام بن القيم في كتابه إعلام الموقعين رداً على هذه الملاحظة أن الحديث
« وإن كان عن غير مسمين فهم أصحاب معاد فلا يصح ذلك لأنه يدل على شهرة
الحديث وأن الذي حدث به الحارث بن عمرو عن جماعة من أصحاب معاد
لا واحد منهم ، وهذا أبلغ في الشهرة من أن يكون عن واحد منهم ولو سمي كيف
وشهرة أصحاب معاد بالعلم والدين والفصاحة والصدق ماغل الذي لا يحصى ولا
يعرف في أصحابه منهم ولا كتاب ولا محروح ؟ بل أصحابه من أفضل المسلمين
وحبارهم لا يشك أهل العلم بالنقل في ذلك . كيف وشعبه حامل لواء هد
الحديث ، وقد قال بعض أئمة الحديث : إذا رأيت شعبة في إسناد حديث فاشدد
يديك به . قال أبو بكر الخطيب وقد قيل إن عباده بن أسد رواه عن عبد الرحمن
بن عيسى عن معاد ، وهذا إسناد متصل ورحاله معروفون بالثقة على أن أهل العلم
نقلوه واحتجوا به فوقهما بذلك على صحته عندهم كما وقفنا على صحة قول
الرسول صلى الله عليه وسلم لا وصية نوارث ، وقوله في البحر : هو الطهور ماؤه
والحل ميتته ، وقوله : إذا اختلف المتبايعان في النمن والسلعة قائمة تحالف وترد
البيع ، وقوله الدية على العاقبة ، وإن كانت هذه الأحاديث لا تثبت من جهة
الإسناد ، ولكن لما تلقينا الكافة عن الكافة عن بصحتها عندهم عن طلب الإسناد
بها ، فكذلك حديث معاد لما أحجوا به جميعاً غموا عن طلب الإسناد له .

وقد عسى الإمام اس القسم بمناقشة محالفيه على ديدن فقهه الإسلام في السحر من إبداء الرأي أو معارضته بغير دليل واخرص على إبراء الدمة في كل قول يأحدون به أو يقدونه ، فأحباب المتشككين في إسماد الحديث بالحجة التي اصطلاح عليها علماء الأثر ، وبكده كان في عني عن ذلك بأدلة الاجتهاد الكثيرة من أعمال السبي عليه السلام وأعمال الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم . وفي هذا الأمر خاصة أمر معاد رضي الله عنه - كان الإمام بن القيم في عني عن مناقشة السند بثبات حقيقة واحدة لا شك فيها وهي أن معاد ولي القصص قبل تمام التنزيل ولما تنزل الآية الشريفة ﴿ أَيَوْمَ اكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ

دينًا . ﴾^١ ولولم يكن من حق الإمام أن يقصى عما يراه موافقا للقرآن الكريم لما أمكن أن تسند الولاية إلى أحد ، وفي القرآن الكريم بقية يحفلها الولاية وكيهما كان تأويل المتأولين في حوار الاجتهاد مما يكون لصاحب رأي في الإسلام أن يرغم أن القس أمروا بالصصوص الكسبية كما تؤمر الآلات السبي نسق إلى عملها ولا ندرى حكمته ولا تفقه معنى لتحريم الحرام وتحليل الحلال ، وأنهم لم يؤمروا بالصصوص كما يؤمر العقلاء المكلفون بالصصوص المتواترة أن يتدبروا أمر الله وبواهيه ويتدبروا آيات الله في الكتاب وآيته في لأرض والسما . ونس مثل المتعللين الدين يحتجون بالكتب ولا يفقهونها ، فإنهم كما جاء في القرآن الكريم ﴿ كَمَثَلِ الْبُيُوتِ الَّتِي بُنِيَتْ عَلَى مَشَاقِطٍ فَانْقَرَضَتْ وَبُنِيَ اللَّهُ لَهَا الْإِسْلَامَ الَّذِي قَامَ إِلَى الْيَوْمِ ﴾ [الجمعة ٥] عني أن الأدلة على حوار الاجتهاد ، بل على وجوبه ، كثيرة كما قدم فيما نت من أعمال السبي عليه الصلاة والسلام وأعمال خلفائه الراشدين ، ولا سيما الحيفة الثاني الذي تولى خلافة السبي في دولة واسعة الأطراف تنصل من الإمام أن ينصرف في تطبيق الصصوص كما عرصت له المشكلات بحدس لم يكن على عهد به قبل انشاع الدولة

فالسبي عليه السلام ندرج في إيجاب التكليف ، وجاء في رواية الإمام أحمد
 « إن وقد نصيب شترطوا على رسول الله ألا يحشروا ولا يعشروا ولا يجمعوا ولا
 يستعلى عليهم غيرهم ، أي لا يحرقوا للعرو ولا يؤدو الركاة ولا يصلوا ولا يولى
 عليهم أحد من غير فسيلتهم ، فقال عبيد الصلاة والسلام « لكم ألا تحشروا
 ولا تعشروا ولا يستعمل عليكم غيركم ولا خير في دين لا ركوع فيه »

(١) سورة البقرة جره من الآية (٣)

وفس السى منهم ما اشترطوه وهو يقول كتب جاء فى رواية أنى داود أنهم «يصدقون ويحاهدون» أنى أنهم سيؤدّون فرائض الإسلام متى ثبت الإيمان فى قلوبهم وشاهدوا غيرهم من مسلمين يتصدقون ويخرجون للجهاد

وروى أبو داود عن عبد الله بن فضالة عن أبيه قال «علمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان فيما علمنى وحافظ على الصلوات الخمس قلت إن هذه ساعات لى فيها أشغال فمرنى بأمر جامع إذا أنا فعنته أجراً عى . فقال حافظ على العصرين - وما كنت من لعتنا - فقلت وم العصران ؟ فقال صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها .

ومثل هذه الرواية أن رجلاً أتى السى عليه الصلاة والسلام فأسلم عى أنه لا يصلى صلاتين فضل ذلك منه .

وروى البخارى عن أم عطية أنها قالت «بديعنا صلى الله عليه وسلم فقراً علينا «ألا يشرك بالله شيئاً» وبها عن البياحة ، فقضت امرأه يدها وقالت أسعدنى صلاة فأريد أن أحريها . فب قال لها صلى الله عليه وسلم شيئاً ، فاطلقت ورحعت فديعها . وفى رواية السائى أنه عيه الصلاة والسلام قال «دهبى فأسعدىها» عدهبت فأسعدتها ثم جاءت فديعت^(١)

وقد صرع رسول الله ذلك ترعيباً للمشركين فى الإسلام وبأليفاً لقبوبهم وتدرحاً بهم فى الصبر عى فرائضه وفصائله ونعويداً لهم أن يطيعوا أوامر دينهم عن رغبة فيها واقتداء حسن بمن يطيعونها

وتعددت مسائل الاجتهاد السى قضى بها الماروق فى خلافته فأعفى من العقوبة وأسقط سبهم انؤصة قنوبهم ، وفرص الخراج ، وأشأ من انكافآت والعقوبات ما لم يكن معمولاً به قبل خلافته .

كان يقول لا تقصع اليد فى عندق ولا عامسة ، وسرق عدمة لحاطب بن أنى بلعة باقة لرحل من مريية وأنروا بالسرقة فقال عمر لكثير بن الصلت اذهب فافطع أيديهم ، ولح فى وحوهم شحو فامر بردهم وقال أم والله لولا أنى أعلم أنكم تستعملونهم وتجيعونهم حتى أن أحدهم أكل ما حرم الله عيه حوله لقطعت أيديهم وإم الله إلا لم أفعل لأعزمك عرامة توجعل ثم قال يا مرسى ! بكم أردت ملك باقتك ؟ قال بأربعمائة قال عمر اذهب فأعطه ثمانمائة

(١) راجع كتاب جهاد فى الإسلام لصاحب القصيدة لأساد عى بجلي عيسى أبو النصر

وسئل الإمام أحمد بن حنبل - أتعمل به؟ قال - إني لعمري لا لمقطع يد الساري
إن حملته الحاجة على ذلك والناس في محاجة وشدة

وأسقط عمر منهم المؤلفة قلوبهم ، وكان النسي عليه السلام قد أعطى أن سعيان
و لأقرع بن حابس وعباس بن مرداس وصفوان بن أمية وعبيدة بن حصص كل واحد
منهم مائة من الإبل وطلب عبيدة بن حصص والأقرع بن حابس أرضاً من أبي بكر
الصديق فكتب لهما بها فلما رأى عمر الكتب مرقه وقال إن الله أعر للإسلام
وأعسى عنكم فإن تنتم عليه ولا فينب وببكم السيف

ومن سوء الفهم أن يقال إن الصاروق خالف النص في هذه القصيدة ، وإنما يقدر إنه
احتشد في فهم النص كما يسعى ، وأنه بحث عن المؤلفة قلوبهم فلم يجدهم ، لأر
تأليف القنوب بما يكون مع مصححة للإسلام والمسلمين ، فإن لم يكن تأليف لم يكن
هناك مؤلفة يستحقون العطاء ولو أن عبيدة والأقرع وأصحابهما مثلوا يومئذ أهم من
المؤلفة قلوبهم يستحقون العطاء لأنهم صغاف الإيمان لما قبلوا أن يشتوا في ديوان العطاء

ولما فتحت أرض الحريرة وما وراءها لم يشأ أن يقسمها وقال كيف بمن يأتي
من المسلمين؟ يحد الأرض قد قسمت وورثت عن الآباء ما هذا برأى . ثم أرسس
إلى عشرة من لأبصار وقاب لهم - إني لم أرفعكم إلا لأن تشركوا في أماني فيما
حملت من أمركم . . . قد رأيت أن أحس الأرضين بعلوحتها وأضع عليهم الخراج
وفي رهاهم الجزية يؤدونها فتكون فيث للمسلمين المقابلة والدرية ولمن يأتي من
بعدهم . رأيت هذه الشعور؟ لابد لها من رحال يرمونها . رأيتهم هذه ابدن العظام
كالشام والحريرة والكوفة والبصرة ومصر؟ لابد لها أن تشحن بالحيوش ودرار العطاء
عليهم فمن أين أعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضين والعلو؟ فقالوا جميعاً الرأي
رأيت ، نعم ما قلت وما رأيت . إن تشحن هذه الشعور وهذه المدن بالرحال وتجري
عليهم يتقوون به - رجع أهل الكفر إلى مدينتهم .

وقد أحد عمر بتمييز السابقين إلى الإسلام بالمكافأة على الذين تبعوهم كرها
ولم يشهدوا من العروات ما شهدوه . وأبعد فسوى على رضى الله عنه حين أفتى
بمعاقبة شارب الخمر بعقوبة القادى لأن الخمور لا تملك لسانه إذ سكر وهدى ،
وأقصى كثيراً من المكافآت والعقوبات على هذ المياس

ولم يتحرج الخليفة الأول من الاجتهاد بالرأى عند وجوبه ، وإني كثر الاجتهاد

في عهد الخليفة الثاني لكثرة دواعيه ، وكان الصديق يقدم على الاجتهاد أحياناً حين يحجم عنه صاحبه كما حدث في حروب الردة حيث أمر الصديق بحرب مانعي الزكاة وتردد عمر في حواز حرب اساطق بالشهادتين .

وسئس الصديق عن الكلاله فقال : إني سأقوب فيها برأى فإن يكن صواباً فمن الله وإن يكن خطأ فمتي ومن الشيطان ، أراه ما خلا الوالد والولد

واجتهد عثمان وعلى كما اجتهد أبو بكر وعمر رضوان الله عليهم فمن اجتهد عثمان أن يأمر بكتابة المصحف على حرف واحد متعاً لاختلاف الألسنة في القراءة ، ويوشك أن يكون يعنى رضى الله عنه رأى في كل معصلة عرضت للحلفاء من قبله ، رعا رأى الرأى ثم عدل عنه ثم عدل عن عدوله كما حدث في فتواه ببيع أمهات البير فقد كانت اتفق مع عمر على منع بيعهن ، ثم قال لقاصيه عبيدة السداسى كأنه يحيره بين البيع ومنعه فقال عبيدة يا أمير المؤمنين! رأيك ورأى عمر في الجماعة أحب اليها من رأيك وحكك . فقال اقضوا بما كنتم تفصون ، فإني أكره الخلاف

ولم ينته الاجتهاد بعد الخلفاء الراشدين . لأن الاجتهاد إما أوحى أنه ضرورة تعرض للإمام استئول مع تفقد الأحوال وتحديد الطوارئ والمسببات ، وأخرى أن يكون للتابعين ألزم منه للأولين الذين كانوا على مقربة من معاهد التبريل وخيرة النبي صاحب الرسالة

غير أن أهل الذكر الذين يوجبهم المجتمع الإسلامى أمانة العلم والأمر بالمعروف قد بادروا إلى دعم أسس التشريع واستسطوا له الصوابط والآداب من آيات الكتاب وأحاديث الرسول ومأثور السلف الصالح فخلصت لهم من ذلك نحة قيمة من القواعد والشروط يحق لنا أن نسميها فوائس التعيين ، وهي تمايل اليوم ما يسمى في عرف المشتريين العربيين بالحكم وحوامع الأمثال Maxims .

ومن هذه القواعد أن اليسر مفضل على الحظر في أوامر الشرع ونواهيها فحيثما أمكن السماح فهو أفصل من الحظر والتنقييد ، لقوله تعالى : « يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ »^(١) ولما أثر عن النبي عليه الصلاة والسلام في حديث السيدة عائشة أنه : « ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً » فإن يكن إثماً كان أبعد الناس عنه .

(١) سورة البقرة حره من الآية (١٨٥)

ومن قواعد التشريع أن المعروف عرفاً كاشتروط شرطاً ، وما رآه المسلمون حساً فهو حساً ، وإنه « لا يجوز إقامة الحد مع احتمال عدم الفائدة » و « أن الضرورات تبيح المحظورات » وأنه « لا ضرر ولا ضرر » و « أن احتيار أحف الضررين مصبحة » و « السية على المدعى واليمين على من أنكر » و « الصالح حائز بين المسلمين إلا صحت أحل حراماً أو حرم حلالاً » و « لا يبعث قضاء قصيته بالأمس أن ترجع الحنن » و « إياك والعصب والقلق والصجر والتأدي بلباس » .

ومن صواب التشريع فصل السلطات وفصل عمل الحكم عن عمل التنفيذ ، وفي ذلك يقول أحمد بن القرافي في الذخيرة « إن ولاية القضاء متباعدة للحكم لا يندرج فيها غيره ، وفسر للقاضي السياسة العامة وأما قوة التنفيذ فأمرو رائد على كونه حاكم . . . وليس للقاضي قسمة العنائم وتضييق أموال بيت المال على المصالح وإقامة الحدود وتركيب الحيوش وفال النعاة »

ومن صواب التشريع حق النقض « فيما حالف بهن آية أو سنة أو إجماع أو ما ثبت من عمل أهل المدينة أو القياس الذي لا يحتمل إلا معنى واحداً أو الدليل القاطع الذي لا يحمل اختلاف الآراء » وتفصيل ذلك مستفيض في كتب الفقهاء .

فالإمامة ، بهذه الصواب والأداب ، مصدر دائم من مصادر التشريع لكن ومن بما يستحد فيه ، ولكن حالة بما يناسبها ، يواحه به الإسلام ضرورات التشريع بغير حصر على الإمام أو على الأمة ، وحققهما في ذلك سواء لأن الإمام وكيل الأمة في حماية الحقوق ولأن إجماع الأمة هو الحجة التي يستند إليها الإمام كما تيسر الإجماع التام فما تيسر منه كاف في إجراء أعمال الإمامة

ولا تقع في الحسبان - بهذه المثابة - قضية واحدة يقال إن مصادر التشريع الإسلامي بصيق عن حكمها الذي يناسب زمانها وأحوالها ، ولا يجوز مع هذا ، أن نحسب الشريعة الإسلامية من الشرائع المتحجرة التي لا تقبل المرونة ، وإن كانت كذلك لا تحسب من الشرائع الرخوة التي لا تتماصك على أساس معين

وقد حاول حاكم من أكبر حكام العرب أن يلبق بالتشريع الإسلامي مطية التحجر في العصر الحاضر ، فشاء أن يجرى عليه قصاصاً كان يعده على التشريع الإسلامي في معاقبة المفسدين ، لأنه أمر بإحرق عصاة من اللصوص في مزرعة من القصب لأدت بها وتخصت فيها من مطرديها ، في جهة السبأ من صعيد مصر ، فأمر بحاكم مفتته من قومه بأن يشعل النار في المزرعة ويتصيد من يهرب منها صرباً بالرصاص

ذلك الحاكم هو لورد كرومر قبصر قصر السودة في القاهرة كما يلموه في ربه
وقد أحد على الشيخ العباسي مفتي الديار المصرية أنه سئل عن عقاب العصاة
فذكره كما جاء في الآية الكريمة :

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ
يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُسْفَهَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزْيٌ فِي
الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ
فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٤)﴾

[المائدة ٣٣، ٣٤]

وهذه عقوبات فرضت في الجزيرة العربية قبل استثناء الشجع العباسي (سنة ١٨٩٠)
ثلاثة عشر قرن وفيها التحجير بين القتل وقطع الأطراف وبس السحن أو الإقصاء من
الديار، وفيها العمى عمن تاب واستقام وليس فيها الإحراق الذي كان لبحاكم مدوحة
عه ، لو أنه أثر أن يصير على محاصرة المفسدين حتى يستسلموا له طائعين

وقبل الاحتلال البريطاني لمصر - أثناء الاحتلال الفرنسي في القرن الثامن عشر -
حكم قصاة نابليون على سليمان الحلبي نائل القائد كبير بالقتل على الخناق وقطع
يديه ورجليه يداً بعد يد ورجلاً بعد رجل ، ثم إحرقه حيّاً بعد هذا التعذيب

أما الذين حاكمتهم محاكم التفتيش في القرن الثالث عشر للميلاد أي بعد
بعثة النبي العربي بسبعة قرون - فحكمت عليهم بالإحراق بعدتهم مئات وألوف ،
منهم العلماء ولأدباء والقساوسة والمتهمون بالسحر ومخالفة الشيطان ، وليس منهم
سفاح ولا قاطع طريق ، ودسهم كله أنهم نُجِّلُون من المعرفة ما يحرمه رجال الدين .

ولا نعلم أن أحداً من قصاة التفتيش أو من قصاة نابليون بدم على إحراق السس بقية
الحياة ، ولكن نعلم أن خليفة مسلماً عاقب لصاً من عتاة الجناة المفسدين عذر بعهد الأمان
وقتل الأبرياء ونحدي ولي لأمر وأعوانه واستحق حكم الموت فأحرقه أخليفة بالبار ذلك
هو الفجاءة بن إلياس بن عبد يالين الذي وفد على الخليفة أبي بكر الصديق يسأله سلاحاً
يحارب به المرتدين ويحمي به الطريق ، فلما أعطاه السلاح حرق به بقطع الطريق وسبب
السنة ويحارب للمسلمين ، فطارده الخليفة حتى طهر به فألقى به في النار ، وعاش بقية
حياته يدم على هذه المثلة لأنها من غصب الخلة ، وإن كان عصياً لا يعاب

والعبرة في معظم هذه الأخطاء التي يقع فيها نقد الشريعة الإسلامية من ساسة العرب أنهم يراعون في نوحيتها ولا يكلفون أنفسهم أن يترددوا فيها ، ولولا ذلك لما وجهوا ندهم إلى موضع لاستيحاء والضماد من هذه الشريعة لأنهم لم يسألوا أنفسهم قط في أمر العقوبات التي يستعظمونها هل هم على يقين أنها لم تكن في حالة من الحالات رادعة أو لارمه للتحذير والتحويل؟ وهل أوجبها الشريعة الإسلامية في جميع الحالات ولم توجب معها عقوبة أخرى تصبح للأحد بها في زمانها وفي غير زمانها؟ وهم حلفاء أن يترددوا في النقد إذ كلفوا أنفسهم بعض هذه الأسئلة ، لأنهم يتكروا على الشريعة الإسلامية شرط التشريع الذي يراعون أنهم يطبقونه وهو الوفاء بحاجة الرسم والمطابقة لجميع الأحوال ويسقطون من حسابهم مصدر التشريع الدائم في الإسلام وهو مصدر الإمامة ومن ورثه حق الأمة أو حق الإجماع ، فإن هذا المصدر أوفى من أكبر المصادر العصرية التي يعملون عليها وهو مصدر السيادة . إذ كانت السيادة معززة بحق ولادة الأمر وحق الاستفتاء العام ، وكانت الإمامة شاملة لهذه الحقوق جميعاً وتريد عيها فداسة الدين واتفاق الأمة في جميع أزماتها ، كأنها وحدة عامة لا تنقيد بمرادة الأحياء في فترة واحدة .

ولا حاجة للأمة في عصر من عصورها إلى مصدر من التشريع أوفى من مصدر السيادة بهذا المعنى الواسع المحيط بكر حرمة من حرمان الشرع في غير حد ولا حصر على حرية الأحياء ولا حرية الأجيال المقبلة لأن التنعة على قدر السلطة في كل جيل من أجيال الأحياء .

وما من جهة وحدة يستند إليها حق لإمامة كنه في الإسلام ولا استثناء في ذلك لصاحب الرسالة وأمين التبليغ سي الإسلام عليه السلام »

﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ [آل عمران : ٢٨]

﴿ إنما أنا بشرٌ مثلكم ﴾ [الكهف : ١١٠]

• • •

﴿ وما أنت عليهم بجبار ﴾ [ق : ٤٥]

• • •

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران : ٦٤]

• • •

ويؤمر النبي بمشاورة المسلمين

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩]

ويؤمر المسلمون بالمشاورة بينهم

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى : ٣٨]

• • •

فحق الإمامة إذن أعم من حق السيادة ؛ لأنه - في جاسى التشريع والتنفيذ مستمد من أوامر الله وسنة رسول الله واحتشاد أولياء الأمر واحتشاد الجماعة الإسلامية كلها برأيها على أتم صوره يثبت عليها

ولهذه وحسب للإمامة طاعة تناسب هذه القداسة فلا حدود لها إلا أن يأمر الإمام بالخروج من الدين أو بمعصية الخالق فهو لا يطاع إذن لأنه ليس بإمام وقسطاس العهد بين الإمام ورعيته كما جاء في حديث عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « لا يسمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثرة علينا وعلى ألا يصرع الأمر أهله وعلى أن يقول بالحق أيمسكنا لا يحاف في الله لومة لائم » ويتمم الحديث في رواية أخرى : « ألا تنارع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان . . . » .

ويقول عثمان بن عفان - رضي الله عنه - : « إن الله يرفع بالسلطان ما لا يرفع بالقرآن » .
وهي ، لأثر « إن السلطان ظل الله في أرضه يأوى إليه كل مظلوم من عباده وإذا عدل كان له الأحرار وعلى الرعية الشكر ، وإذا جار كان عليه الإصر وعلى الرعية العسر » .

وليس حق الإمامة بالداهية حق الإمام لشخصه ولا هو من الحقوق التي يمكن أن تنحصر في جهة واحدة ، وإنما يحق للإمام ما هو حقه بهو عبادة البيعة والأمانة العامة . فهو مطمح في هذه الأمانة مطاع

ومر ثم وحب أن يتولى لإمام عمه باختيار رعاياه ولأنه من البيعة العامة لكل إمام مسئول يجب له الطاعة ، يرشحه من استطاع من أولى الخلق والعقد وبعد له الأمر بعد إحارة هذا الرشيع بالبيعة العامة ، ويحور أن يرشحه وحد أو يشترط في ترشيحه اتفاق عدد مسلمين يحور لهم صلاة الجماعة ، إلا أن الاتفاق على عدد المرشحين لا يعنى عن المرحع الأخير وهو اتفاق الجماعة . فلا خلاف أو اتفاقها على القدر الذى ترحح به الكفة وتمتع به الصنة ومن أقدم على الصنة فإثمها عليه يقصى فيه الإمام اختار أو يقصى فيه سلطان الجماعة حيث استقدم بها سلطان مشروع .



ومن غام التكافل « والتضامن » فى المجتمع الإسلامى أن أمانة « الإمامة » لا نعنى لأمة من وجب النصيحة لإمامها ، وقد جمع بين الإسلام الدين فى كلمتين إذ قال « الدين النصيحة » ومثل ' لى يا رسول الله ؟ فقال . « لله ولكاتبه ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » .

وقال عليه السلام فى حديث آخر ' (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان حائر) .

وإزاء هذا الواجب من الرعية واجب يتمعه من قبل الإمام ، وينأسى فيه الأئمة بصاحب الإمامة الأولى الذى قبل لرجل أصابه وحل عبد لقائه : «رويدك يا هذا» إنما أنا بشر» «أنا من امرأة أعرابية كنت تأكل القديد» وفى كتاب الله خطاب للنبي ولكل إمام متبوع .

﴿ رَاخِفْضَ جَنَاحِكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر . ٨٨]

﴿ رَاخِفْضَ جَنَاحِكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء ٢٦٥]

وحتم الفؤ فى هذا حق اعيط بجميع الحقوق - حق الإمامة أنه باب مفتوح للتشريع فى كل عصر وكل مجتمع ، وأنه يكمل للأمة الإسلامية ما يكلفه حق السيادة وريادة فلا بعد لقد التشريع الإسلامى فى جميع مصادره ما بقى له هذا المصلو مستمداً من صميم الإنسان ، وحكمة الله .

التناسق طاهرة عمسة فى الإسلام ، يلمسها من تأمن فيه وألقى عليه فى

الفصل
الرابع

الإخلاق والآداب



مجموعه نظرة عامة بين عقائده وعبادته وبين ما يشرعه من المعاملات والحقوق ويحمده من الأخلاق والآداب .

هناك وحدة نامية أو سية و وحدة يجمعها ما يجمع السية الحية من تجاوب الوظائف وتناسق الجوارح والأعضاء .

ويذكر أن تقرأ في كلام باقر من الأحناف عن اللغة العربية شيئاً من مأخذ الناقص في الإسلام إلا بدا لك بعد قليل أنه منخص ، وأن مرد الخطأ عنه إلى جهل الإسلام أو جهل اللغة العربية ، وبعضهم يجعلها وهو من المستشرقين لأنه يستظهر ألفاظها ولا يتوقفها ولا يند إلى لبابها من وراء مصوص القواعد والتراكيب .

فرأنا لبعضهم أحياناً كتاباً عن الشيطان يلم فيه بصفة إبليس في الإسلام ويستغرب فيه من هذا الدين أن يقول عن الله إنه أمر الملائكة بالسجود لآدم . . . مع أنه الدين الذي استمر بعبادة التشديد في إنكار الشرك وتكفير كل مناجد لغير الله

ومرد خطأ فيما يدر إلى الكتب من الناقص بين التوحيد وبين السجود لآدم أنه فهم السجود بمعنى الصلاة دون غيرها من معاني الكلمة في اللغة العربية . وعاته أن الكلمة عرفت في اللغة العربية قبل أن يعرف العرب صلاة الإسلام ، ولم يفهموا منها أنها كلمة تنصرف إلى العبادة دون غيرها ، لأنهم يقولون «سجدت عليه» أي أعصت ، و«أسجد عليه» أي عص منها ، و«سجدت السجدة» أي ملأت ، و«سجد» أي عصر رأسه بالتحية ، و«سجد لعظيم» أي وقره وحشع بين يديه . ولاناقص على معنى من هذه المعاني بين السجود لآدم وتوحيد الله وإي السجود لها هو التعظيم المستمد من القصة كلها ، وهو تعظيم الإنسان على غيره من المخلوقات .

وبعضهم يرى أن الإسلام متافص بطبيعته للعمل والسعى في سبيل الحياة لأنه يفهم من الإسلام أنه التواكل وتسليم الأمر إلى الله بغير حاجة إلى الحول والقوة ، لأنه «لا حول ولا قوة إلا بالله»

وحهل هؤلاء بالمهم أكبر من حهلهم باللعنة لأن الإسلام إلى الله وحده وتحريم الإسلام لعبه يأبى على المسلم أن يسلم للظلم أو يستسلم للتحكم من الناس أو من صروف الحياة ، وبهذه أن يستسلم للحياة وللقسمة الحائرة ، وأن يستسلم بكل قصاء لا يرضاه ويعلم أن الله لا يرضاه .

وبعضهم يرى أن الإسلام والسلام بقيصان ، لأنه يفهم من كلمة أسلم أنها التسليم في الحرب (Surrender) أو التسليم قبل الحرب خوفاً من القتال فكل مسلم فهو حاضع للسيف هزيمة بعد الحرب أو خوفاً من الحرب قبل إشهارها عليه

وهؤلاء المتحدلقون على النعم التي يحهلونها يصوتهم أن كلمة « أسلم » هي ميدان الحرب هي نفسها مأخوذة من إعطاء اليد أو سبطها للمصافحة ، وأن المقصود بهذه الكلمة في الدين أنها استقبال الله والاتجاه إليه فمن أسلم وجهه لله فقد استقبل طريقه وأعطاه وجهه ولم يتحول عنه إلى غيره . وكل المتدينين قبل الدعوة المحمدية موصوفون بأنهم مسدومون كما جاء في سورة البقرة

﴿ وَمَنْ يُرِغِبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفَهٍ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اخْتُِفِيَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١٣) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ فَإِنْ أَسْلَمْتَ لَرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٣١) وَوَصَّيْنَا بِهَا إِبْرَاهِيمَ بِبِهِ وَيَعْقُوبَ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (٣٧) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَصَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٣٣)

[البقرة: ١٣٠ - ١٣٣]

ومى القرآن الكريم أن المسلمين وصفوا بالإسلام في الكتب لأولى كما جاء في سورة الحج

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ [الحج ١٨]

وأكثر ما اطلعنا عليه من قبائص الموعظة فهو من قبيل هذه الأخطاء هي

المتفرقة بين الكلمات على معانيها المنظمة وبين هذه الألفاظ على معانيها التي
فيها الاصطلاح أو حصصها لغة القرآن الكريم

وقيم عدا هذه النقائص وما إليها يروع المباحث في الإسلام ذلك التناسق بين
عقائده وأحكامه أو بين عقائده وأخلاقه . ولعل هذا التناسق أظهر ما يكون بين
لأخلاق المتعددة التي حمدها الدين من المسلم ، وهي متفرقات تجمعها وحدة
لاستوعبها وحدتها الإسلامية فهي في جملة وصفها أخلاق إسلامية وكفى

هل هي أخلاق قوة؟ هل هي أخلاق محبة؟ هل هي أخلاق قصد وعتدان؟ هل
هي أخلاق اجتماعية؟ هل هي أخلاق إنسانية؟

هي كذلك أحياناً ولكنها ليست كذلك في جميع الأحيان ؛ لأن أخلاق القوة
قد تفهم على وجوه متعددة ، أو متناقضة ، بحمد الإسلام بعضها ولا يحمدها
بعضها ، أو يدمها جميعاً إذا فهمت على مذهب فلاسفة القوة في العصر الأخير

وقد توصف الأخلاق في الإسلام بأنها « أخلاق محبة » لأن أصول العلاقات
بين الناس قائمة في الإسلام على شرعة المحبة والأخوة كأنهم من أسرة واحدة ،
ولكن الإسلام يسكر من المسلم أن يحب الخبيث كما يحب الطيب ، ويعرف العداوة
في الحق كما يعرف الصداقة فيه

وليس قوام الأخلاق كله في التوسط أو في القصد والاعتدال على مذهب
الفلسفة اليونانية أو فلسفة أرسطو على الخصوص . وليس مآل الأخلاق كله في
الإسلام إلى وحي المجتمع أو وحي الإنسانية برمتها ، لأن المجتمع قد يذن بأخلاقه
كما يذن الفرد ، ولأن الإنسانية لا ترمع إلى ما فوق حواشي الضعف فيها إذ لم
يكن لها من المثل العليا ما يسمو عليها أو تسمو هي إليه حياً بعد جيل



أخلاق القوة في العصر الأخير مقرنة باسم « فردريك نيتشه » رسول السوبرمان
الذي كاد إيمانه بالسوبرمان أن يقلب إلى عداوة للإنسان

فالسوبرمان لا يرحم ولا يعفو ولا يعرف للضعيف نصيباً من « الإنسان الأعلى »
غير نصيب الرزية والإدلال ، أو الإبادة والاستئصال ، محافظة على سلامة النوع

من عدوى الصعف وعواقب لإبقاء على الصعفاء ، وهم في عرفه أولى بالاحتساب من مرضى الجذام .

والأخلاق علىه قسمان قسم للسادة لا يقبله العبيد ، وقسم للعبيد لا يقبله السادة فليس بين الفريقين جامعة إنسانية تلتقي بهم في صفة من الصفات ، بل هم أعداء يتسبط منهم القدر على العاجز ، ولا يحسن بالتسبط أن يقل من العاجز غير خنوع والهبوط في الدلة من هاوية إلى هاوية ، لانهة عبر الانقراض والضماء



وأخلاق القوة عرفت قبل نيتشه بتفسير لا تفسير فيه عند الحاجة إلى تفسير ، لأنه يجعل القوة مرادفة للاستحسان ، ولا يدري منه لماذا يكون هذا الاستحسان

وتفسير الفيلسوف هوبز Hobbes لقوة من هذا القيس

عالمس على رعم هؤلاء المفسرين يحمدون الرحمة ، لأنهم يحمدون القوة ، ويرون في الرحمة دليلاً على قوة الرحيم لأنه يتفصل بها على الصعيف وترفع بها عن معاملته كما يعامل الأبداد والظراء

والناس يحمدون العمو ؛ لأن الذي يعفو عن المسيء إليه يعتد بقرنه ويأمنه إن وحي له بالشكر أو غلر به على السواء .

وهم يحمدون الكرم ؛ لأنه عطاء ولا يملك ما يعصل من حاجته ويخود به على المعتقر إليه غير الأقوياء .

وهم يحمدون الصبر ؛ لأن القوى حليد يتماسك لصدمة المصاب ولا يتصعصع تحت وقره النقل . فهو يصبر على بلائه لأنه قوى يحتمل منه ما لا يحتمله الصعيف ولا يكون القوى حروغاً وإن عظم عليه المصاب

وهم يحمدون الدهاء ؛ لأنه قوة في العقل يتمكن بها صاحب العن القوى من تسخير الأقوياء بالأحسام ، ويحمدون الذكاء والحق والمعرفة والبراعة في صناعه من الصاعاب ؛ لأنها علامة من علامات القوة على نحو من لأحاء

وهذه الصفات ، أو المراب ، تفيد أصحابها قوة كما سم فيهم عن القوة التي تصبر عنها . فهي محمودة لما تدل عليه ، وما تؤدي إليه .

أما العظمة والمجد والشجاعة فلا حاجة بها إلى تفسير عند من يرجعون بالأخلاق جميعاً إلى القوة على هذا الأسلوب لأنها ظاهرة بقوتها معترف بسب الإعجاب بها بين الأقوياء أو الصعفاء

وقيل الرجوع بالأخلاق لتتلى إلى القوة على مذهب هوبر أو على مذهب نيتشه - كانت المدرسة اليونانية تعتبر الأخلاق العاصلة وسطاً بين طرفين ، أو تحت طالب المصينة على الاعتدال في جميع الأمور ولاجاء إلى الحسن من كل خلق على قدر حظه من الاعتدال .

فالشجاعة وسط بين الشهور والحس ، والكرم وسط بين الإسراف والبخل ، والصبر وسط بين الحمود والجرح ، والحلم وسط بين الرق والسلافة ، والرحمة وسط بين القسوة والخور وكل فصيلة على هذه القياس فهي مسألة بوسط في مسافة بين غابيين

وهي ربما هذا ، يعلب على مدارس الأخلاق أنها تزود بالمصائل كلها إلى باعث واحد وهو باعث المصلحة الاجتماعية ، أو باعث العرائر الوعية التي يتصل بها نقاء نوع الإنسان . ومن هذه المدارس ما يحصر المصلحة في الطبقة العالية على المجتمع . فلا مصلحة للمجتمع كله في الأخلاق العاصلة التي يحمدها المجتمع في عهد من العهود ، ولكن المصلحة فيها للطبقة المتحكمة فيه ثروتها ووسطوتها فما تراه حساً فهو الحسن بالنسبة إليها لاستيفاء مفاعها ، وهي دن تسوم الطبقات الأخرى أن تستحسه على المحاكاة والتقليد وإن لم يكن لها حير فيه



والإسلام يحمد كثيراً من الأخلاق المحمودة في هذه المذهب ، ولكننا لا نستطيع أن نجمع الأخلاق الإسلامية كافة في نطاق مذهب منها ، ولا سيما مذهب القوة في فلسفة نيتشه ومذهب الطبقة الاجتماعية في فلسفة الماديين

فمذهب القوة في رأى نيتشه ينافى جميع الأديان الإلهية ، ولعله يوافق ديناً يعتقد أتباعه أنه دين إله واحد يختارونه ويختارهم ويستبقيهم ويمحق غيرهم من العالمين . ولكنه لا يوافق الأديان التي تدعو إلى إله واحد للأقوياء والصعفاء ، وقد يكون لأحد مذهب القوة في رأى نيتشه همماً لهذه الأديان من قواعدها وأقلاغا لها من حدودها إذ لا قيمة للدين مالم يشق أمام القوة الطاغية قوة تكبحها

ونَهَتْها وهي قوة الضمير ، ولا رسالة للدين من الشر إن لم تكن رسالته أن يربي فيهم وازْعُ لل قوة البدنية وقوة اطامع والشهوات وقد تعلم الناس دهرً طويلاً أن حماية المريض غير حماية المرحس ، وأن العاية بالمرضى تؤول على الدوام إلى عاية بالصحة ، يستفيد منها الأصحاء كما يستفيد منها المصابون وليس بالعسير عليهم أن يتعدوا كذلك أن حماية الضعيف غير حماية الضعفاء ، وأن العاية بالضعفاء تؤول إلى عاية شاملة يستفيد منها الأقوياء والضعفاء . أو تكون فائدة الأقرباء منها مقدمة على فائدة الضعفاء .

وتفسير « هوبز » للقوة لا يقرب مذهب القوة كثيراً إلى حفيمة الأخلاق الإسلامية لأن الإسلام لا يحدد من الأخلاق أنها حيلة متتوية أو مستقيمة إلى طلب القوة ، بل يحدد منها في كل شأن من شئون الإنسان أنها وسيلة إلى طلب الكمال ، ويحسب إلى الإنسان أحياناً أن يؤثر الهرمة مع الكمال على الظفر مع القوة ، إذا كان الظفر وسيلة من وسائل القوة الداعية التي لا تتورع عن السباح بكل سلاح

ومذهب الفلسفة اليونانية ينتهي بنا إلى مقياس للأخلاق شبيه بمقاييس الهندسة والحساب بعيد عن تقدير العوامل النفسية والقيم الروحية في الأخلاق العليا على التخصيص وقد تصدق هذه الفلسفة إذا كان المطلوب من الإنسان أن يحتار بين رذيلتين محقتين ، فإنه في هذه الحالة يحس الاحتيار بالتوسط بين صريين متقابلين كلاهما مدموم ومتروك إلا أننا لا نقول من أجل ذلك إن الكرم نقص في رذيلة البخل ، أو نقص في رذيلة السرف ، ولا نقول من أجل ذلك إن الكرم إذا زاد أصبح سرفاً ، وإن السرف إذا نقص أصبح كرمًا بل تكون الريادة في الكرم كرمًا كبيراً ، والنقص في السرف سرفاً قبيلاً ، ولا يكون الكرم أبداً درجة من درجات السرف ، ولا البخل أبداً درجة من درجات الكرم بل هي أخلاق متدبنة في الباعث متبابة في القيمة ، بتقارب الطرفين فيها أحدهما من الآخر ، ولا يتقارب السرف من الوسط كما يظهر من قياس الهندسة أو قياس الحساب

وقد رأينا في مباحث العلل النفسية التي كشفها العلم الحديث أن الشدود يقرب بين المسرفين والسحلاء في أعراض مشابهاة ، وأن العلة الكامنة في التركيب قد تظهر في الأسره الواحد بحلافى أحد الأخويس ، كرمًا في أح وسرفًا في الأح

الأخر . أو تظهر هي أحدهما هوساً بالإقدام ولافتحام ، وتظهر هي أحيه هوساً بالخسر والإححام . فلا إفراط هنا ولا تفريط هي « كمية » واحده تقاس الهندسة والحساب ، ولكنها حالات تق متباينة تختلف بالباعث لها وتختلف بقيمتها في معايير الأخلاق .

وبوصح مذهب الفلسفة اليونانية أو مذهب أرسطو على الأصح لما جاز للإسناد أن يطلب المرید من فصيلة الكرم مثلاً - لأنه ينتقل على هذا الرأي إلى رذيلة السرف والتبذير إلا أن زيادة الكرم لا تكون إلا زيادة في فصيلة مشكورة ، ولابد من التفرقة بين زيادة الكرم وزيادة العطاء فإنهما في الواقع أمران مختلفان ، وقد قيل لاحق في السرف ولا سرف في الخير وفي القول الثاني توضيح لازم للقول الأول ، لأن زيادة الخير إلى أقصى حدوده واحدة لا تحرج به عن كونه خيراً محموداً يرداد حمده مع ازياده ، ولا يحسب من السرف على وجه من الوجوه

ونما يلتبس الأمر على أصحاب مدرسة التوسط في جميع الأمور لأنهم يظنون في تقدير الكرم إلى المال ائبدون وإلى مصلحة المادل هي حساب المال ، ولا التماس هي الأمر إذا بطروا إلى الباعث والنوجب والمصلحة هي عمومها ولو ناقصت مصلحة الباذن في بعض الأحيان .

ومن كانت طاقته أن ينفق ألف دينار ولا يتقاصه الواحد أو تتقاصاه مصلحته أن ينفق ألفين فهو مسرف ما في ذلك خلاف . لأنه بفعل شيئاً يضره ولا توجه عليه مصلحة أكبر من مصلحته . أما إذا كان باعث الإصفاق شيئاً غير مصلحته وغير هواه وكان حسن المال في يده ضرراً وحيم العقبة على الناس وعليه في النهاية - والكرم أن يرداد في الإصفاق على حسب المصلحة العظمى ، وعلى قدر التضحية وإسكار الذات يكون حظ البدل من الفضيحة المحمودة أو حظه من الخير الذي لا سرف فيه

وتصعب المقارنة بين التطرف والتوسط حين تكون المسألة مسألة درجات ولا تكون هناك مقادير تعد بالأرقام فإذا ترخصنا عرفت إن الكرم هو الذي يبدل ألف دينار ، وإن المسرف هو الذي يبدل ألفين أو ثلاثة آلاف ، والبخيل هو الذي يبدل مائة أو لا يبدل شيئاً على الإطلاق فمن هو الشجاع ومن هو المشهور ومن هو الخجول ؟

ليست هنا مقادير تعد بالأرقام . فإذا عرفنا أن الخصال هو الذي يحجم عن الخطر فمن هو الشجاع ؟ ومن هو المشهور ؟ إن التهور ليكرس أفصل من الشجاعة إذ قلنا إن

الشجاع قليل الإقدام على الخطر وإن المنهور كثير الإقدام عليه ، أو قد إن درحه الخطر الذي يقدم عليه انتهور أعظم من درحه ، خطر الذي يقدم عليه الشجاع . ولكنا حين نقول إن الشجاع هو الذي يقدم على الخطر حيث يجب الإقدام عليه يرجع بالفصيلة والردية إلى مقياس الواجب وتقديره ، وتصبح المسألة هنا مسألة قدرة على فهم الواجب والعمل به ، وليست مسألة أعداد أو أبعاد . فالمنهور والحيان كلاهما عاجز عن فهم الواجب والعمل به ، والشجاع هو القادر على الفهم والعمل ، ولا يستقيم في التعبير إذن أن نقول إن المنهور أكثر شجاعة من الشجاع ، وأن الحيان أقل شجاعة منه ، لأنهما معاً خلو من الشجاعة الواحدة بغير إفراط أو تفريط

ولم يشد الإنسان عن الاعتدال في الطبع إذا هو أثر أن يذهب في كل فصيلة إلى نهايتها القصوى ، فماداً يعاب في حمل الوحوة - مثلاً - إذا انتهى إلى عاية لا غاية بعدها في معهود الأنصار؟ وماداً يعاب في جمال لأحلاق إذا انتهى إلى مثل تلك الغاية في معهود البصائر؟ إن كلمة من كلمات اللغة العربية العاصرة بمنلولاتها البهسية والفكرية لتهدينا إلى قسطاس الحمد في كل حسنة مأثورة فكلمة «باهيك» حين نقول . باهيك من رجل أو باهيك من عمل أو باهيك من خلق - هي قسطاس للثناء فيما تشبه النفوس الإنسانية من كل فضل منشود فهو الفصل الذي ينتهي بنا إلى النهاية فلا نتطع بعله إلى مريد

غير أن مذهب الاعتدال - مع هذا - أقرب المذاهب إلى فهم الأخلاق المحمودة في الإسلام ، على اعتبار أن خلق الاعتدال فصيلة مستقلة تدل على طبع سليم وعمل رشيد يفسر لكل عمل قسره ولا يجمعهما الاعتدال أن بدهبا به إلى عاية الكمال ، إذا كان له هذا القدر بين أقدار الأخلاق



ومذهب المصلحة الاجتماعية لا يباوص مكارم لأحلاق الإسلامية كل انمافصة ولا يوافقها كل الموافقة إذ محمل الرأي في الإسلام أن المجتمع يقاس بالدين وليس الدين يقاس بالمجتمع ، فقد يسفل المجتمع فتشقق فيه الآراء والأهواء على مصلحة يأنها الدين ويحبسها مصرة أو مفسدة يؤب المجتمع من أجلها كما يؤب الأفراد وربما كانت مصلحة النوع الإنساني أصدق المقياس للخلق المحمود في الإسلام

ولكن النوع الإنساني يترقى في العلم بمصالحه حقبة بعد حقبة ، ومن حوافره إلى الترقى أن تكون أمامه أمثلة عليا للأحلاق أرفع من مألوف الأخلاق التي يسرسل معها بغير جهد وبغير رياضة وبغير تربية مفروضة عليه ، يعتقد أنه يتفاهها عن هو أكبر من الإنسان وأحق منه بالطاعة والإصغاء إلى هدايته وتعليمه .

لا بد من المعصائل الإلهية في تعليم الإنسان مكارم الأخلاق ، وما اكتسب الإنسان أفضل أخلاقه إلا من الإيمان بمصدر سماوي يعلو به عن طبيعته الأرضية

وهو لمقياس الأوفى لمكارم الأخلاق في الإسلام

ليس مقياسها الأوفى أنها أخلاق قوة ، ولا أنها أوساط بين أطراف ، ولا أنها ترحمان لمصلحة النوع الإنساني بأجمعه في وقت من الأوقات .

وإنما مقياسها أنها أخلاق كاملة ، وأن الكمال اقتراب من الله

وقد يكون الكمال كالجمال مقياساً غير منطبق عليه قبلاً للتفاوت - بل للتناقض

كما تتفاوت مقاييس العرف وتناقض في كثير من المعقولات والمخسوسات . . . لكنا نقول قولاً مفيداً حين نقول إن الإنسان يحب أحمل الرخوة ، أو أحمل الشمائل ، أو

أحمل الخصال ، ونقول قولاً مفيداً حين نضع الكمال في موضع الجمال

إلا أن الإسلام يقرب المثل الأعلى في كل فصيلة بالصفات الإلهية

. . . والله المثل الأعلى .

وكل صفة من صفات الله الخسنى محفوظة في القرآن الكريم ، يترسمها المسلم ليلبلغ فيها عاية المستطاع في طاقة المخلوق .

ولا تكلف نفس إلا وسعها كما جاء في غير موضع من لكتاب الحكيم

يسر للأحلاق الإسلامية مقياس جامع من القوة ، ولا من المتوسط من الأطراف ، ولا من مصلحة أمة قد تنقصها مصلحة أمة غيرها ، ولا من مصلحة لأمة جميعاً في عصر يتلوه عصر غيره بمصلحة أكرم منها وأحرى بالسعى إليها

فالتدين الإسلامي بعقائده وأدبه ، أو بحملته وبفصيله ، يستحب القوة للمسلم وبأمره بعداد عدته من قدره الروح والبدن ، ولكنه يستحبها قوة تعطف على الضعيف وتحسن إلى المسكين واليتيم ، ويمقتها قوة تصان بالخبروت والخيلاء ولا ينال الصعفاء منها غير الهوان والإدلال .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان : ١٨]

﴿فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الحل : ٢١]

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر : ٦]



ولا يسحب الإسلام القوة للقوى إلا ليدفع بها عدوان الأقوياء على
المستضعفين عن دفع العدوان

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ
وَالْوِلْدَانِ﴾ [النساء : ٧٥]

ولم يوصف الله بالكرياء في مقام الوعيد للكرياء بالكل والإدلال ، إلا ليذكر
المكبر الحصار أن الله أقدر منه على التكر والخروت



والإسلام يركى مذهب التوسط فيم يقبل التوسط بالمقادير أو بالدرجات
كالإنفاق الذي ينتهى الإسراف فيه إلى اللوم والحسرة -

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا
مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء : ٢٩]

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان : ٦٧]

﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعام : ١]

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف : ٣١٠]

ولكن القسطام في فصائل الإسلام لا يرجع إلى المقدار والنوسط فيه ، بل
يرجع إلى الوجه وما يقصيه لكل أمر من الأمور وهذا واجب بنى المال كله وبدل
الحياة معه في سبيل الحق فلا هوادة ولا توسط هب بين طرفين ، وإنما هو واجب
واحد يحمد من ابتعد أن يذهب فيه إلى أقصاء

ولا يصدق هذا على شئون القوه والكرم وحسب ، بل يصدق في شئون الرحمة حيث تحب لمن هو أهل لها .

والإسلام على كراهته الدن لا تساعه يستحب منهم لدل في الرحمة بالوالدين الشحين .

﴿واخص لهم جناح الدل من الرحمة﴾ [الإسراء ٢٤]

لأن الدل هنا زيادة في الرحمة يأتي من كرام في النفس ولا يأتي من هوان فيها

وملاك الاعتدال في الحق الإسلامى أن المسد يؤمر بالعمل لدينه كم يعمل لدينه ، ويؤمر بصلاح الحسد كم يؤمر بصلاح الروح فلا يكون في هذه الدنيا روحاً محصاً ولا يكون فيها جسداً محصاً . ومن أى عليه دينه أن يكون في هذه الدنيا جسداً محصاً فمن العت أن يقال إنه يعمل ليكون جسداً محصاً في عالم الرضوان : علم الروح والصفاء

وقد صلل بعض المعربين من دعة الأديان عقولاً كثيرة في شتى لأقطار حين زعمو أن الخطايا بالمحسوسات في أمر الحة والار مفصور على العقيدة الإسلامية ، وأن المؤمنين بالدين لا يؤمنون بالنعيم المحسوس إلا إذا كانوا من المؤمنين بالقرآن

والأسياء والقديسون في جميع الأديان الكتبية قد تمثوا المحسوس في رضوان الله ووصفه على هذه الصفة في كتب العهد القديم والعهد الجديد وهي كتب الترانيل والدعوات . فهي العهد القديم يصف أشعياء يوم الرضوان في الأصحاح الخامس والعشرين من سفره فيقول

«يصع رب الجنود لجميع الشعوب في هذا الجبل وليمة سمائن ووليمة خمر على دردي سمائن مجة . دردي مصى ويفى في هذا الجبل وجه النقب .. التقاب الذى على كن الشعوب والعطاء المعطى به عن كن الأمم يبلغ الموت إلى الأبد ويصبح السيد لرب الدموع عن كن الوجوه .

وهي العهد الجديد يقول يوحنا اللاهوتى في الأصحاح الرابع من رؤياه «بعد هذا نظرت وإذا باب مفتوح في السماء والصوت الأول الذى سمعته كبوق

يتكلم معنى قائلاً: «اصعد الى هناك ريك ما لا بد ان يصير بعد هذا وبوقت صرب في الروح، وإذا عرش موضوع في السماء وعلى العرش جالس وكان جالس في المنظر شبه حجر الشب والعقيق وقوس قرح حول العرش في المنظر شبه الرمرد وحول العرش أربعة وعشرون عرشاً ورأيت على العروش أربعة وعشرين شيخاً جالسين متسربلين بشيا ببيض وعلى رؤوسهم أكاليل من ذهب ومن العرش تخرج بروق ورعود وأصوات وأمام العرش سبعة مصاييح نار منقذة هي سبعة ارواح الله وقدم العرش بحر رجح شبه البلور، وفي وسط العرش وحول العرش أربعة حيوانات مملوءة عبوداً من قدام ومن وراء والحيوان الأول شبه الأسد والحيوان الثاني شبه عجل والحيوان الثالث له وجه مثل وجه اسن والحيوان الرابع شبه سر طائر»

ويقول في الأصحاح العشرين

«متى تمت الألف السنة يعمل الشيطان من سجنه ويخرج ليصل الامم الذين في أربع زوايا الأرض يأجوج ومأجوج ليجمعهم للعرب وعددهم مثل رمل البحر فنزلت نار من عند الله من السماء وأكبتهم وأطيس الذي كان يصهم طرح في بحيرة النار والكبريت وكل من لم يوجد مكتوباً في سفر الحياة طرح في بحيرة النار»

ويقول في الأصحاح الحادى والعشرين

«ثم رأيت سماء جديدة وأرضاً جديدة لأن السماء الأولى والأرض الأولى مصينتان والبحر لا يوجد فيما بعد، وأنا يوحنا رأيت المدينة المقدسة اورشليم الجديدة بارلة من السماء من عند الله مهيأة كفروس مريية لرحبها وسمعت صوتاً عظيماً من السماء قائلاً: هوذا مسكن الله مع الناس»

وكانت آمال البعيم المحسوس تسور قلوب القديسين في صدر المسيحية فصلاً عن عامة العباد بين عمار الدهماء ومن أشهر هؤلاء الأقطاب المعبودين رجل عاش في سورية في القرن الرابع للميلاد وترك بعده بركات مقروءة بتعنى بها طلاب انعيم وهو القديس أفريم الذي يقول في إحدى هذه التراتيل

«ورأيت مساكن الصالحين رأيتهم نقطهم منهم العصور ويشوح منهم التعبير برينهم صائر الماكهة والريحان وكل من عفا عن خمر انديب عطشت اليه خمر الفردوس، وكل من عفا عن الشهوات سقته احسان في صدر ظهور»

واتفق أحناف العرب وأحناف الشرق في وصف المعيم بهذه الصفة فقال القديس أريوس Irenius أسقف ليون في القرن الثاني (سنة ١٧٨ للميلاد) :

(إنما السيد المسيح أنبا يوحنا اللاهوتي أن ستأش أيام يكون فيها كروم لكل كرمة عشرة آلاف عصب ولكل عصب عشرة آلاف فرع، ولكل فرع عشرة آلاف عسلوج، ولكل عسلوج عشرة آلاف عقود، ولكل عقود عشرة آلاف عنبه وتعصر العنبه منها فتدر من الخمرة مائتين وخمسة وسبعين رطلاً)^(١) .

ولم يبيع لإسلام هذا السبع من النمثيل بالمحسوسات ، ولكنه يشعنها بعقيدته التي تمنع المسلم أن يكون حسداً محصاً في دينه فصلاً عن آخرته ، وينهى المسلم أن يقيس نعيم الرضوان على نعيم الدنيا :

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِّمَّ أُحْصِيَ لَهُمْ مِّنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾

[السجدة : ١٧]

أو كما جاء الحديث الشريف « فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »



وبحسب لا نعرض لهذا البحث في موضوع الأخلاق الإسلامية إلا لأن الأديان جميعاً تنظر إلى المعيم الإلهي كأنه المثل الأعلى للحياة الدنيوية ، وليس في المثل الأعلى في الحياة هي عقيدة المسلم - ما يحصيه عن زعم المصللين من أعداء الإسلام حسداً محصاً في أخلاقه وأدبه ، أو يحور على الحاسب الأخلاقي فيه ، ومن أسى عيبه دينه أن يكون في الأرض حسداً محصاً فمن السخف أن يقال أنه يرتضى لنفسه أن يكون حسداً محصاً في جوار الله الذي بلغ به الإسلام غاية ما تصوره العقل والتصميم من التبريه

وهذا قسطاس لا يحطين في تقويم كل خلق حسن يستحقه الدين في المسلم ، فإنه مأمور ألا يسيى بصيبه من الحياة الدنية ، ولكنه مأمور في الوقت نفسه أن

(١) - راجع كتاب الفلسفة الفرائيه للمؤلف

يسطر إلى صفات الله المحسى كما نخلت في أسمائه التي وردت في القرآن الكريم فهي قبلته التي يهتدى بها في كل مكارم الأخلاق لا يكف أن يدرك منها شأو الكمال لإلهي، لكنه يكف منها بما هي وسعته كنهها قطب السماء الذي يهتدى به ملاح البحر وهو يعلم أنه ملكه الرفيع بعيد المسال



والأخلاق التي يهتدى إليها لمسلم يهتدى الأسماء المحسى كثيرة وافية يحير ما يتحراه الإنسان في مراتب الكمال المصنوعة لكمالها مع عموم بعضها في حياة الفرد والجماعة ومنها العزة، والقدرة، والمتانة، والكرم، والإحسان، والرحمة، والبر، والصبر، والعفو، والعدل، والصدق، والحكمة، والرشد، والحفاظ، والحزم، واللطف، والولاء، والسلام، والجمال

وكلها مشهود لأنه كمال لا يقاس إلا بمقياس الكمال، وأنه ليوافق مقياس القوة والتوسط والمصلحة الاجتماعية في أحمل مطالبها وأصحبها على هدى الفكر وهدى الضمير، ثم لا تستوعبه مدرسة خاصة من هذه المدارس المتفرقة كما تستوعبه مدرسة الإسلام، أو مدرسة الكمال بهداية الأسماء المحسى

وحير للمجتمع الإنساني أن تقاس الأخلاق فيه بهذا القسطاس ولا تقاس بمسعة تصد بمصاد المجتمع نفسه، وتتحرف مع تحراف بطرته إلى منافع ومصاره فيزج المجتمع قد يصاب بأفات الدل والعجز والهرال والبخل والسوء والقسوة والبعضاء وسائر الآفات الموبقة من نقائص الخلائق الإلهية، فيصلحها الترياق من الدين، أو يصلحها أن تقلع عنها ولا يصلحها أن تتماهى فيها .

إن أدب الإسلام بنحرح للمجتمع الإنسان الكامل فيخرج له الإنسان الاجتماعي الكامل في أقوى صورته وهي أجملها

يخرج له السوبرمان الذي لا يصع على أحد، ويخرج له المسلمان الذي لا يسىء إلى أحد .

ومن عناية الإسلام بالتفصيل والاستيعاء في كل أمر من الأمور أنه يشجع الأصول بفروعها في مسائل الأخلاق ومسائل الفرائض والعبادات . . . مما لا حماء به أن الرجل الذي يعرف العرف والصدق والطف « جنتلمان » على أحمل ما تكون « الحسدمانية » هي رأى الرجل المهذب الكريم ولكن الإسلام يستوفي صفاته

تفصيلاتها لأنه يحاطب الناس كافة ويتوجه بالإرشاد إلى أحواح الناس إليه ، ولا يدع الإرشاد إلى الآداب الاجتماعية في أدق تفصيلاتها التي تحسب من آداب المجاملات في اللقاء والتحية بين الناس أو هي عرف السلوك في المحضر والمعيب

لا يدخل أحد بيتاً حتى يستأذن .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ غَيْرِ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَسَلِّمُوا عَلَى

أَهْلِهَا ﴾ [البقرة: ٢٧]

ولا يحيى بحية إلا أحابها بمثلها أو بأفصل منها .

﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَةٍ فَحِوُوا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ [النساء ٨٦]

ولا يحسن بالمرء أن يقول للناس إلا قولاً حسناً :

﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة ٨٣]

ولا يحسن به أن يسخر ممن يستصغره ويستطعن عليه :

﴿ لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَمَىٰ إِنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَمَىٰ إِنْ

يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ [الحجرات ١٠]

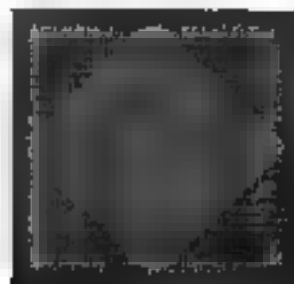
ولا يحسن أن يقول عن الناس سوءاً في المحضر أو المعيب

﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ [الحجرات ١٢٠]



ولا تحفه بصفت الكمال في القرآن الكريم ، ولكن الإسلام في مجموعه بنية حية منسقة تصدر في العقائد والأخلاق من يسوع واحد فمن عرف عقيدة المسلم عرف أن خلق الذي يحمده لإسلام هو أخلق الذي يرتضيه إنسان يؤمن بأن الله رب العدين ، وأن النبوة بعيم لا سحيم ، وأن لإنسان مخلوق مكلف على صوره الله ، وأن الشيطان يعوى الضعيف ولا يستولى عليه إلا إدا ولاه رمامه يديه ، وأن العالم بما رحب أسرة واحدة من خلق الله أكرمها عند الله أنماها الله .

خاتمة



نحتتم بهذه الكلمة فصولاً كتبناها عن حقائق الإسلام وأباطيل خصومه في العصر الحاضر . ونحن نعلم أن هذه القوة الروحية الخالدة في معتق طريق وعرة تقف لديها لتثبت وجودها في مستقبلها بعد أن أثبتت وجودها في ماضيها

ولقد وقف الإسلام مرات في مثل هذا المعتقد أمام خصومه منذ قيام الدعوة محمدية ، وصمد الحملات عيفة كهذه الحملات التي يشنها عليه خصومه في العصر الحاضر ، وبكثرتها على أكثرها كانت من قبيل الحملات المادية ، أو الحربية ، التي شنها مافسوه من أرباب الدولة والسيطان ، وقل أن وقف الإسلام طويلاً أمام قوة يحفل بها لأنها تتصدى له من الوجهة الروحية . إذ كانت القوى الروحية التي تصدت له فيما مضى تنصر إلى ماضيها فتلمس فيه الفرق بينها وبينه ولا تأمن عاقبة الخولة في هذا المجال ، وهي محردة من عدة الدولة والسلطان ، وكانت من جاسها مشعولة بخصوماتها وممارعاتها بين نحلها ومذاهبها ، تجرد للحملة عليه إلا أن تتأهب للعبة عيه بقوة السلاح ؟

أما حملات العصر الحديث فأهونها فيما يرى حملات الدولة والسلطان ، وهي الحملات التي شنها عليه الاستعمار ثم ظهر منها بعد حين أنها لم تغفل فيه قوة المقاومة ولم تنعه أن يصمد لها في ميدان الأسس والحيلة . فكأن صمود الإسلام لمحمة الاستعمار آية من آيات القوة الروحية التي تسعد المعتصمين بها حين يحلهم قوة السلاح وقوة السيامة وقوة العلم وقوة الدال ولو لم يكن في هذه العقيدة الخالدة سر أعظم جداً من أسرار العقائد الشائعة ما اعتصم المسلمون منها بمعتصم نافع أمام هذه القوى المتصارعة عيها محتمعات .

ولما بد أن يقرب - على ثقة - إن القصية الروحية بين لإسلام والاستعمار

قضية بلغت حلها المأمول أو كانت أن تلعه ، فهي قضية مفروغ منها في هذا القرن العشرين .

ولما منذ الساعة أن نقول على ثقة أن حملات الخصوم الذين يهاجمون لإسلام صائفة إلى هذا المصير إلا أننا ننظر إلى قوى معروفة من الحاسيين ، ونرى أن فرصة الإسلام في هذه الخطوة حليقة أن تمت في الصدور أملاً أكبر من الأمل هي مجرد الثبات والصمود وبخاصة حين نذكر أن العدة التي يعتد بها خصوم الإسلام في حملاتهم عليه هي عدة سنية لا يعتمدون فيها على حجتهم وبياناتهم كما يعتمدون فيها على ضعف العقائد عامة في عصر امدية الطاعية على العقول والصمائر . فهم ضعفاء يحدون احملة على الإسلام لطهم أن الشهات المادية ولرلته من داخله وفتحت من أهنة ثعرة يمد منها مهاجم وإن ضعف وصعفت معه حجته وبياناته . فإذا انكشفت هذه الرعوة عن رندتها وعرضت قوى الإسلام وقوى خصومه عرصاً ساساً هذا العصر الحديث فالدى يتقدم هو الإسلام ، والدى يرتد أو يذعن لتحقيقه هو الخصم المستعد بالإنصاف



يتلقى الإسلام أشد الحملات في العصر الحاضر من منكريه لأهم يحترفون التشير بدين آخر ، أو من منكريه لأهم يكررون جميع الأديان وكلا الخصمين لا يستطيع أن ينال من الإسلام إذا ورن بمران واحد وأحد بعبارة واحد فيما يؤيده من دعوه وهيم يكره من دعوى الإسلام .

لا يستطيع المشر المحترف أن ينال من الإسلام بما يدعيه عليه من التحريف والنشويه للأديان التي سبقتة ، فإن الإسلام في الإله وفي النبوة وفي الخير والشر وفي حقوق الإنسان أرفع وأصلح مما جاءت به الأديان التي سبقتة إذا ورت كلها بمران واحد يأخذ هنا بما يأخذ هناك ، وليس في عقائد الإسلام ما يعنره المصنف كسنة إلى الزواء أو يعنره تطوراً في عقيدة تترقى مع الزمن حسبما يعرض لها من الظروف والملاسات فإن من هذه العقائد - كالعقيدة في

رب العالمين ما ينفص عقائد الشرك وعقائد العصبية والامتنان ، ويصدر من بيئة مشحونة بمحار العصبيات والسلالات ، وإيه لمن تعسف القول أن يقال إنها هي السئة التي يتطور فيها الإيمان بالله القسيدة يصبح إلهٌ وحداً يؤسى بين الشعوب والقبائل ، يحاسبها بأعمالها ولا بحاسنها بأبائها وأسابها ، أو بما سيف من خطايا الآباء والأسلاف

ومن ينكر النبوة على صاحب الدعوة لعله من العذل الماحيه التي ينمحبونها فهو مرغم على نكار نبوات كثيرة يتقبلها ولا يشك في مصدرها السموى ومعاديرها المقولة عند الله

والمؤمنون بالعهد القديم يؤمنون بما جاء فيه من دواذ عبيد السلام ، ويؤمنون برصوان الله عنه واختصاصه بالثرة الإلهية من فريته ، ويقرأون ما جاء في الأصحاح الخامس عشر من سفر صموئيل الثاني عن قصة داود مع القائد « أورويا » وروحته التي بنى بها بعد بعريضه للقتل وهو في خدمته يهجر داره ويحارب بحبانه لمحاربة أعدائه .

بقور روى القصة كما جاءت في الأصحاح الخامس عشر من كتاب صموئيل الثاني

« قال داود لأوريا أقم هـ اليوم أيضاً وعداً أضفت . فأقام أوريا في أورشليم ذلك اليوم وعاه ، ودعاه داود فأكر أمامه وشرب ونسكره ، وخرج عند المساء لبصطجع في مصححه مع عبيد سيده وإلى بيته لم يرل . وفي الصباح كتب داود مكتوباً إلى يؤب وأرسنه بيد أوريا وكتب في المكتوب يقول احعنوا أوريا في وحه الحرب الشديدة وارجعوا من ورته فصرى ويوت . وكان في محاصرة يؤب المدينة أنه جعل أوريا في الموضع الذي علم أن رجل الأس فيه . فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات رجبها نديت بعده . ولم مصت المباحة أرسن داود وصممها إلى بيته وصارت له امرأة وولدت له أس . وأم الأمر الذي فعله داود هصح في عبي الرب . . . »

فمن كانت هذه القصة هي عقيدته لا نعص من النبوة ولا تدعو إلى إنكارها
فليس له أن ينكر سواه رسول الإسلام لما يتعلل به من أحاديث رواحه ولو صح منها
كل ما يدعيه وهو عبر صحيح ، وليس له - وهو يزن السوات بميزان واحد - أن
يستنكر النبوة على صاحب رسالة يرتقى بالعقيدة الإلهية وبالرسالة النبوية ذلك
المرتقى الذي لا يحفى على بصير يفتح عينيه ولا يعمصهما سده .

أما الذين يحملون على الإسلام من غير المسلمين فهم جماعة الماديين الذين
ينكرون الإسلام لأنهم ينكرون جميع الأديان ، ويرفضون وجود الله فيرفضون الإيمان
بصدور شيء من الأشياء من عند الله .

وأمة هؤلاء الماديين صيق الأفق العقلي أو ضيق حظيرة الفهم في حالتها
التصديق والإنكار .

فهم ينكرون الرسالة السوية لأنهم لا يقدرّون على تصورها في غير الصورة التي
يرفضونها ، ولعلمهم بذلك أنهم أن يتصوروها على هذه الصورة لأنها تمشي في
صائعهم مع شهوة الإنكار التي تتسبط على عقول المسحاء ، ولا سيما المسحاء من
أدعياء العلم والتفكير .

ولا يراد من هؤلاء أن يسدو العقل ليدركوا حتى حق الإسلام ولكن يراد منهم
أن يوسعوا أفق العقل فيعلموا من ثم أن العقل لا يمنحهم أن يدركوا حق الإسلام
بل يمنحهم أن يقلوا عقلاً أنه وحى من عند الله .

فمن حقائق العقل والعلم أن الشكوك لا تبطل فرصاً من الفروض ، لا إذا كانت
قاطعة في بطلانها ، ولا يحور فيها لأحد بأحد الرأي المختلفين . . فما هي شكوكهم
التي يوردونها على الإسلام فتتمنع أن يكون ديناً صالحاً أو تتمنع أن يكون ديناً من عند
الله .

لا يحور أن ينكروه لما فيه من التعبيرات الرمزية . لأن التعبيرات الرمزية متمثلة
في كل حاسة من حواس الأحياء ، متمثلة في شعوره الوجداني وشعوره الذي
يعون فيه على البصر أو على الخيال

ولا يحور لهم ينكروه لأن الجهلاء يفهمونه كما يفهم الجهلاء كل شيء . فكل حقيقة كسرت أو صغرت لابد أن يفهمها جهلاء فهمًا يحالف ما يفهمه منها العارفون ودور النضر والبراية .

ولا يحور لهم أن ينكروه لأن العصور المتعاقبة تندرج في فهمه والسداد إلى سره فهكذا ينبغي أن تندرج العصور في السداد إلى سر انديس الذي تدين به أجيال بعد أجيال ، وهكذا يكون الخطاب في الأديان لأنها لا تدين العصور إذ، بوحه بها الخطاب اليوم ليلعى بعد يوم من الأيام .

وإذا وجد الدين الصالح فليس يكون في وسع العقل أن ينصوره في عبر هذه الصورة من التعبيرات الرمزية ومن أحلاف العماء والجهلاء في فهمه ومن تعاوت الاستعداد له على حسب الاستعداد بين الأجيال والأمم وإنه لعقل يذيع ذلك العقل الذي ينكر الشيء ثم لا يستطيع أن ينصوره حقًا إلا على الصورة التي أنكرها!

ونحن لم نكتب فصول هذا الكتاب لسخر بالإسلام هؤلاء الماديين المتعطين إلى إنكار كل معنى شريف من معاني الحياة البشرية ، ولكننا كتبناه للمثدين المصنف الذي يستطيع أن ينظر إلى ديبه وإلى هذا الدين نظرة واحدة ، وكتبناه أولاً وأحرًا للمسلم الذي يتلقى حملات حصوم الإسلام من انتدسين وغير المتدسين ، نيعلم أنه خليف أن يطعن إلى حقائق ديبه في هذا العصر سواء نظر إليها بعين العقل أو بعين الإيمان ، وأنه خليف أن يواحه العمد بما يؤمن به من عقائد ديبه ومعاملاته وحقوقه وأدابه وأخلاقه فلا يعوقه عائق منها أن يحارز النمر في المستقبل إلى أبعد مجراه .

وإذا وفي المسلم بأمانة الشكر وعرفان الخميل فلا ينسى أنه مدين لهذه الدين الخفيف بوحوده الروحي ووجوده المادي في حاضره الذي وصل إليه بعد عهود شتى من عهود المحنة والبلاء . ولولا قوة بالعة يعتصم بها المسلم من هذه العروة الوثقى لضاع بوحوده الروحي ووجوده المادي في عمار يحويه ولا يبقى له على معالم بقاء

ومن حق هذا الدين عليه أن يسلمه إلى الأعقاب قوة يعتصم بها العالم في مستقبله بين زعازع المحن التي ابتليت بها الإنسانية في هذا الزمن العصيب . . . لعله من نصيب هذا الميراث في غده القريب أن يكون مصداقاً لنبوءة الإسلام بحكمته جل وعلا في خلق عباده شعوباً وقبائل متفرقين ، ولعل هذا الدين القويم الذي دعا أول دعوة إلى رب العالمين أن يكون دين الشعوب والأمم متعارفين متسلمين . ولا تكونن أمانة للدين يومئذ سياسة حسنة نخدم بها نحن المسلمين حاضريننا ومصيرنا ، بل هو الإيمان بإرادة الله كما تتجلى لخلقهِ يؤديها كل من عرفها بمقدار ما عرف منها ، وسيذكرها كل من يتجوبها من أمم العالم فيذكر الرسالة الإلهية التي تفتتح باسم الله الرحمن الرحيم وتختتم بحمد الله رب العالمين .

عباس محمود العقاد

الفهرس

الفصل الثالث	تقديم : بقلم أنور السادات
الحقوق	سكرتير هام المؤتمر الإسلامى ٣
١٠٧	فاتحة
١٠٨	شبهة الشر
١١٧	شبهة الخرافة
١٢٢	الفصل الاول
١٤٠	العقائد
١٤٧	١ - العقيدة الإلهية
١٥٨	٢ - النبوة
١٦٦	٣ - الإنسان
١٨٦	٤ - الشيطان
الفصل الرابع	٥ - العبادات
الأخلاق والآداب	الفصل الثانى
١٩٩	المعاملات
٢١٥	٨٥
خاتمة	

مؤلفات عملاق الأدب العربي

الكاتب الكبير

عباس محمود العقاد

- | | | |
|--|---------------------------------------|---|
| ١ - الله . | ٢٧ - سارة . | ٥٣ - يوميات (الجزء الأول) . |
| ٢ - إبراهيم أبو الأنبياء . | ٢٨ - الإسلام دعوة عالمية . | ٥٤ - يوميات (الجزء الثاني) . |
| ٣ - مطلع النور أو طوابع البعث الممجدية . | ٢٩ - الإسلام في القرن العشرين . | ٥٥ - عالم السلوك والفكر . |
| ٤ - عبقرية محمد ﷺ . | ٣٠ - ما يقال عن الإسلام . | ٥٦ - مع عاهل الجزيرة العربية . |
| ٥ - عبقرية عمر . | ٣١ - حقائق الإسلام وأبطال خصومه . | ٥٧ - مواقف وقضايا في الأدب والسياسة . |
| ٦ - عبقرية الإمام علي بن أبي طالب . | ٣٢ - تفكير فريضة إسلامية . | ٥٨ - دراسات في القالب الأدبي والاجتماعي . |
| ٧ - عبقرية خالد . | ٣٣ - الفلسفة الفرثية . | ٥٩ - آراء في الأدب والفنون . |
| ٨ - حياة المسيح . | ٣٤ - الديمقراطية في الإسلام . | ٦٠ - بحث في اللغة والأدب . |
| ٩ - ذو النورين عثمان بن عفان . | ٣٥ - أثر العرب في الحضارة الأوروبية . | ٦١ - خواطر في الفن والفن . |
| ١٠ - عمرو بن العاص . | ٣٦ - الثقافة العربية . | ٦٢ - دين وفن والفلسفة . |
| ١١ - معاوية بن أبي سفيان . | ٣٧ - اللغة الشاعرة . | ٦٣ - فنون وشجون . |
| ١٢ - داهي قصائد بلال بن رباح . | ٣٨ - شعراء مصر وبناتهم . | ٦٤ - قيم ومعايير . |
| ١٣ - أبو الشهداء الحسين بن علي . | ٣٩ - أشتات مجتمعات في اللغة والأدب . | ٦٥ - الذب عن الأدب والنقد . |
| ١٤ - فاطمة الزهراء والفاطميون . | ٤٠ - حياة قلم . | ٦٦ - عبد القلم . |
| ١٥ - هذه الشجرة . | ٤١ - خلاصة الزومة وقشور . | ٦٧ - رموز وحجود . |
| ١٦ - إلهيس . | ٤٢ - ملعب قوى المملكات . | ٦٨ - ديوان يفظه الصباح . |
| ١٧ - بهذا الضاحك الضحك . | ٤٣ - لاشيوعية ولا استعمار . | ٦٩ - ديوان وهج لظهير . |
| ١٨ - أبو ترانس . | ٤٤ - الشيوعية والإنسانية . | ٧٠ - ديوان أشباح الأحول . |
| ١٩ - الإنسان في القرن . | ٤٥ - الصهيونية العالمية . | ٧١ - ديوان وسع الأربعين . |
| ٢٠ - المرأة في القرن . | ٤٦ - أسوان . | ٧٢ - ديوان حديد الكروان . |
| ٢١ - عبقرى الإصلاح والتعليم الإمام محمد عبده . | ٤٧ - أنا . | ٧٣ - ديوان غابر سبيل . |
| ٢٢ - سعد زغلول زعيم الثورة . | ٤٨ - عبقرية الصديق . | ٧٤ - ديوان الحاضر مغرب . |
| ٢٣ - روح عظيم المهاتما غاندي . | ٤٩ - قصيدة بنت الصديق . | ٧٥ - ديوان بعد الأعاصير . |
| ٢٤ - عبدالرحمن الكواكبي . | ٥٠ - الإسلام والحضارة الإنسانية . | ٧٦ - ديوان حرائر وشياطين . |
| ٢٥ - رجبة أبي العلاء . | ٥١ - مجمع الأحياء . | ٧٧ - ديوان أشجان الليل . |
| ٢٦ - رجال عرفهم . | ٥٢ - الحكم للطق . | ٧٨ - ديوان من دواوين . |
| | | ٧٩ - غلغلي للريان . |
| | | ٨٠ - أغنية الشعوب . |
| | | ٨١ - القرن العشرون ما كان وما سيكون . |
| | | ٨٢ - النازية والأديان . |

احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)

وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع www.enahda.com

